

سلسلة كتب الدعوة والخطابة

في ظلل القمصان القفراآني

(دروس وعبر)

أ.د/ أحمد عبد الحادي شاهين

أستاذ الدعوة ومقارنة الأديان في جامعة الأزهر

وعضو هيئة كبار علماء الجمعية الترشحية للرئاسة بالقاهرة.

من نور القرآن الكريم

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

سورة الذاريات الآية (٥٥).

في ظلال القصص القرآني (دروس وعبر)

رقم الإيداع / ٧٥٢٨ / ٢٠٢٢ بدار الكتب المصرية.

الرقم الدولي: 3-1174-94-977-978

الطبعة الأولى / سنة ١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م.

مقدمة

القرآن الكريم كتاب دعوة وهداية ونور، وإصلاح وتربية وتشريع، أورد الله فيه عددا من القصص، منها ما يتعلق بالأنبياء والصالحين، أو بأقوام لهم مواقف إيجابية أو سلبية، أو بأشخاص لهم مواقف فردية شخصية، صالحة مرغبة، مثل لقمان عليه السلام أو باغية فاسدة، مثل قارون، وصاحب الجنتين، أو ببعض الحيوانات والطيور التي لها مواقف متميزة.

والإنسان يتعلم منها ما ليس فيه، مثل الغراب والنملة والهدد، أو تنفّر وتحذر الناس من الطباع الشاذة، والتصرفات الرديئة، مثل الحمار في صوته، والكلب في لهائته.

والقصص في القرآن الكريم لا يتأتى لذاته بصورة مجردة للتسلية، وإنما يأتي للتربية والاعتاظ، يريد الله عز وجل أن يعلم الخلق شيئا له قيمة وفائدة، فيسوقه في صورة قصة موحية مؤثرة، فيها من الدلالات والعبر والمواعظ، ما يحرك مشاعر الناس وعواطفهم نحو التطبيق لها، العمل بها.

ولذلك قال الله عنه في القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ سورة يوسف: ٣. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ سورة يوسف: ١١١. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَقْصِصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ سورة الأعراف:

وهذا الكتاب هو محاولة لمعايشة عدة صور من قصص القرآن الكريم، وتحليل بعض أحداثها، وتبسيط الضوء على ما فيها من دروس وعبر، وربط هذا القصص بالأحداث المتشابهة المتكررة عبر التاريخ، بأسلوب يقوم على الإيجاز والاختصار، فيه ما يحقق الهدف، ويصيب الغرض، ويقرب المضمون، ويصل بالإنسان إلى ما يريد من أقصر طريق، وأيسر سبيل.

وقد أعدتها في صورة خطب ودروس ومواعظ، وفي عناصر مرتبة، أمل أن تنفع القارئ لها في دينه ودنياه، وهي زاد قرآني للداعية، والإمام والخطيب، والمدرس، والمربي، والمعلم، كل يجد فيها ما يساعده في تحقيق رسالته، وهدفه المنشود.

لقد كتبت هذا القصص القرآني في ظروف خاصة، عشتها قصة قصة، ولم يتيسر لي من الكتب والمراجع سوى ثلاثة كتب فقط، أفدت منها من شرح وبيان، وفهم لجو النص القرآني، وتلخيص لأحداث القصة، وهي كتاب، تهذيب زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج بن الجوزين، وكتاب تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن السعدي، ومختصر ابن كثير، للشيخ أحمد شاكر.

فأسأل الله أن أنتفع بهذا القصص القرآني، وبما فيه من دروس وعبر وعظات، وأن ينفع به قارئه ومتصفحها، وأن يجعله عملاً صالحاً متقبلاً، وزاداً للدعاة إلى الله ﷻ في دلالة الناس على الله ﷻ وتقريبهم إليه، إنه نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله أولاً وآخراً. الذي بنعمته تتم الصالحات.



(١) قصة طالوت وجالوت وعبور.

- ١- التمهيد سنة إلهية.
- ٢- القلة المؤمنة تنتصر على الكثرة الكافرة.
- ٣- دروس وعبور من قصة طالوت وجالوت.



١- التمهيد سنة إلهية:

التمهيد هو: اختبار لمعرفة حقيقة الشيء، جودة ورداءة، قوة وضعف، إيماناً وكذباً، وهو درس في الإرادة والصمود والثبات على الإيمان. والتمهيد: سنة إلهية ماضية في جميع البشر إلى يوم القيامة، وهو تكشف عن مكونات النفس البشرية، ليُخرج منها أمراضها وعللها، ويبقيها نقية خالصة، إذا كانت مؤمنة صادقة في إيمانها، وهذا لون من ألوان التربية الميدانية العالية. وقد تفشل النفس في هذا التمهيد، وترسب فيه، وتخرج منه وقد انكشفت أمام صاحبها، وظهر عورها، وبان خللها، ونقصها وضعفها. والتمهيد كما يكشف حقيقة النفوس والضمائر، يكشف حقيقة القلوب، وما تنطوي عليه من إيمان وعقيدة ويقين، ويميز الصفوف، وما بها من ضعف وخور، وجبن ودخن.

وقصة طالوت مع جالوت تكشف هذه المعاني السابقة، من خلال التجربة العملية في ميدان الجهاد، وما يحتاجه من جهد وصعوبات، وما يتطلبه من صبر وثبات.

لما خالف بنو إسرائيل ما عليه موسى عليه السلام سلب الله منهم التابوت، ووقعوا في الأسر والتشريد والقتل، إلى أن رزقهم الله بنبي يسمى (شمويل أو شمعون) فدعاهم إلى ما كانوا عليه وقت موسى عليه السلام من إيمان وتوحيد، فطلبوا منه أن يختار لهم ملكا يقاتلون معه أعداءهم، فشرط عليهم فوافقوا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿الَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أبعثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ سورة البقرة: ٢٤٦.

وأول خطوة في التمحيص، أنه لما كتب الله عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم، فأعرض أكثرهم ونكلوا عن الجهاد، وهذه أول درجة في التمحيص أجتازها البعض، ورسب فيها كثير من القوم، من أول جوله في الاستعداد للجهاد.

لقد طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكا يقاتلون معه، تحت رايته، ليستردوا مجدهم السليب، فاختار لهم طالوت، فاعترضوا على اختياره، لأنه ليس من بيت الملك، وإنما كان جنديا من الجيش.

لقد أیده الله بعلامة، حيث وقعت معجزة خارقة للنواميس، وهى أن يأتيهم التابوت الذي به بقية من التوراة تحمله الملائكة، وهذا دليل على اختيار الله ﷻ له، فهم ينظرون بأعينهم، ويشاهدونها بأنفسهم، حتى تكون مدعاة للإيمان والتسليم.

لقد اعترضوا على اختيار طالوت قائدا، لأنه لم يؤت سعة من المال، ونسو أنه اختيار الله ﷻ والله يختار الكفاءة التي تحقق الهدف، ليس فيها مجاملة أو محاباه، فالله يعلمهم قانون اختيار القائد، وهو أن الكفاءة تقدم على الثقة، وأن جسد القائد الشاب وصحته، وقوته العقلية والفكرية التي يدير بها المعركة، تقدم على الغنى والعرض الزائل، الذي لا يفيد في إدارة المعركة وتحركه فيها.

وقد رسبوا في هذا الاختبار الثاني، حيث قدموا موازين البشر على موازين الله ﷻ في اختيار القائد الذي يقودهم للنصر والتحرير.

فينبغي للملك أن يكون ذا علم وثقافة واسعة، وقوة شديدة في نفسه وبدنه، وشكل ومظهر حسن، حتى لا تستخف به الرعية، والفضائل النفسية أعلى وأشرف وأفضل من الفضائل الجسدية، فبقوة العلم والجسم يعالج أمور السياسة والجهاد، المعارك الحربية.



فراعي في اختيار القائد الصالح، الذي يقود الناس للإصلاح والتغيير ما

يأتي:

١- أن يكون موهوبا في القيادة، بالاستعداد الفطري الذي يولد معه، وقد زوده الله به، فالاصطفاء نتيجة مواصفات ومواهب، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ سورة البقرة: ٢٤٧.

٢- كمال العقل والجسم، فبالعقل يحسن تدبير الأمور والنظر في عواقبها ومآلاتها، وبالجسم يجعله يتمتع بالصحة واللياقة البدنية، لتفقد شئون الرعية وقضاء مصالحهم.

٣- أن تتاح له فرصة ليثبت وجوده وكفاءته في عمل ما، وتوفيق الله ﷻ له فيه، مثل طالوت وداود عليه السلام قَالَ تَعَالَى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ دَجَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ سورة البقرة: ٢٥١.

أخبرهم القائد أنهم سوف يواجهون جيشا قويا من الأعداء العمالقة بقيادة جالوت، فلا بد من تمحيص الإرادة، لتصمد أمام الشدائد والمشاق والصعاب، فتستعلى على الضرورات، وتحمل التبعات، مهما كانت التضحيات.

إن تمحيص إرادة الجيش يتمثل في أمرين، صمود أمام الرغبات والشهوات، وصبر على الحرمان والمتاعب، لخصها بعضهم في كلمتين تمثل فلسفة التمحيص في الحياة: (نقاوم ما نحب، ونتحمل ما نكره).

لابد من امتحان إرادة الجيش الذي سوف يقود المعركة الفاصلة، ليعلم من يصبر معه في ميدان الحرب حتى النهاية، وينكشف ويتبين من ينقلب على عقبيه، ويرسب في هذا الاختبار الشديد.

لقد قطعوا مسافات طوال، والجيش في حالة من الإجهاد والعطش، فسمح لهم بغرفة واحدة، دون أن يشربوا ويرتوا من الماء، وكانت النتيجة العملية الميدانية خير دليل، فلم يبق من العدد الكبير إلا أقل القليل.

لقد انفصلت الأكثرية الكاثرة، لأنهم لا يصلحون للمهمة، وهم بذرة ضعف وخذلان في الجيش المتوجه للنصر والتحرير، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ سورة البقرة: ٢٤٩. وهذا هو الاختبار الثالث الذي رسب فيه عدد كبير من الجيش الجرار، فما بقي منه إلا أقل القليل.



٢- القلة المؤمنة تنتصر على الكثرة الكافرة:

الأقلية الذين تجاوزوا النهر تراجع أكثرهم عن الجهاد، وخافوا من مواجهة الأكثرية من الأعداء، وهذا هو الاختبار الرابع.

كانوا ثمانين ألفاً، شرب من الماء ست وسبعون ألفاً، وبقي أربعة آلاف، تخلف أغلبهم عن المواجهة لما رأوا كثرة جيش الأعداء، وصمدت الفئة القليلة المؤمنة، التي أنزل الله ﷻ عليهم النصر، وكان عددهم مثل عدد جيش المسلمين من الصحابة في بدر، ثلاثمائة وبضعة عشر.

إن الذين نظروا إلى المعركة نظرة مادية صرفه في العدد والعتاد، هم الذين تخلفوا لسيطرة الجبن والخوف عليهم، أما الذين نظروا إلى المعركة نظرة إيمانية، فهم الذين ثبتوا حتى النهاية، لأنهم دخلوا المعركة وهم يعلمون نتائجها، إما النصر وإما الشهادة قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ سورة البقرة: ٢٤٩.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَخَفْ اللَّهَ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُمْ مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ سورة الأنفال: ٦٦.

إن هؤلاء هم خلاصة الخلاصة، وصفوة الجيش، وهم الذين صدقوا مع الله ﷻ في الميدان، فحقق الله ﷻ لهم ما وعد، وأنزل عليهم النصر، لأنهم فهموا المعركة

فهما صحيحًا، فعلموا أن الإيمان بالله والاتصال به، هو مصدر القوى الغالبة التي لا تقهر، مهما كان عدد الأعداء وقوة الخصوم.

إن الفئة القليلة الباقية، هي التي توفرت فيها أسباب النصر- والتمكين، وتحققت فيها الشروط، ونجحت في الاختبارات كلها، فكتب الله ﷻ لها دخول الأرض المقدسة، بعد فترة طويلة من التيه والضياع.

وهكذا الدعوات عبر التاريخ تقوم على ركائز قليلة، هم الأعمدة القوية الصلبة التي تحمل البناء، فرسوخها وثباتها، يجعلها مؤهلة لتحمل أعباء البناء حتى يكتمل.



٣- دروس وعبر من قصة طالوت وجالوت.

١- لقد فهموا سنة الله ﷻ في النصر والتمكين، وهي سنة التدافع بين الحق والباطل، وأن الحق لا بد أن يأخذ بجميع الأسباب المادية المتاحة، وأن يبذلوا أقصى ما في وسعهم من جهد بشري، وامتلاك جميع أسباب القوة التي تكون سببا في نزول النصر من الله ﷻ كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ، عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ سورة الأنفال: ٦٠.

والوعي بهذه السنة يجعل المسلم يفر من قدر إلى قدر، ويرد القدر بالقدر، والعقيدة الراسخة هي التي تكسب صاحبها ملكة الصبر في النوازل والشدائد.

٢- الثبات في الميدان عند اللقاء، فقوة الجيش في صلابة إيمانه، والجرأة والشجاعة، وعدم التحدث مع النفس بالفرار من الميدان، أو التولي يوم الزحف، وإيمان ثبات أرسخ من الجبال، وبأس أشد من الحديد، وحرص على إحدى الحسينين قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أقدامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ سورة البقرة: ٢٥٠.

٣- الثقة في الذات الإلهية، بأنه هو المقدر الحقيقي للنصر، وهو الفاعل والمدير له، فهو الذي ينصر أوليائه، ويهزم أعداءه، ولا مبدل لكلماته، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ دُجَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ سورة البقرة: ٢٥١.

٤- أن النصر يأتي فجأة، ومن حيث لا يدري الإنسان ولا يحتسب، فهذا داود عليه السلام جندي صغير في جيش صغير، يواجه جيشا كبيرا مدربا، تحت قيادة عسكرية متخصصة، ووضع داود عليه السلام الحجر في المقلاع، وأطلقه كالرصاصة، فأصاب جالوت في جبينه، فوقع على الأرض صريعا ميتا.

فلما رأى جيشه أن قائده قد قتل ولّى مدبرا منهزما ولم يعقب، وانحسمت المعركة لطالوت وجيشه، واصطفى الله ﷻ هذا البطل الصغير ليكون نبيا ملكا، وتكون النبوة في ولده سليمان عليه السلام من بعده، والله يؤتي ملكه من يشاء، فهو صاحب

الإرادة والمشية المطلقة التي لا تقف أمامه عوائق، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

٥- إن الدعوة والمجاهدين الذين يسرون على منهج الله ﷻ ينبغي أن يتعلموا من قصة طالوت، أن الحق لا بد له من أنصار، هم النواة الصلبة التي يرتكز عليها الجميع، فحمل الأمانة لا يصلح لها كل الناس، بل تحتاج إلى صفوة مختارة، يعدون لهذه المهمة إعدادا جيدا، تقوم بهم الأمم، وتنهض بهم الدعوات، ويحيون الأمة من موات، يفكرون بحزم، ويعملون بعزم، ولا يبرحون حتى يحققوا ما يريدون.

٦- إن من يحمل لواء الدين والدفاع عنه لا بد من الابتلاء والتمحيص، فليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، وإنما لا بد أن تصدقه الأفعال أو تكذبه، لتحدث الغرلة والتمحيص، ويتميز الصادق من الكاذب، والقوي من الضعيف، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣﴾ سورة العنكبوت: ٢ - ٣.

فالتمحيص يكشف عن نجب النفوس من معدنها، وما هو مجهول من أمراضها وعللها، فيعرف الإنسان وزنه الحقيقي في ميزان الإيمان، ومدى ثباته عليه، وحب له، واستمساكه به.

فالنصر مدخر لمن يسحقه، وهم من يصمدون أمام الزلازل، ويحققون في أنفسهم الصبر والثبات، وتحمل المشاق والشدائد والصعاب حتى النهاية، ويوافقون سنة الله ﷻ الجارية في الأخذ بأسباب النصر والتمكين.

٧- العقائد الرخيصة لا يدفع أصحابها ثمنًا غالياً، فيتخلون عنها عند المحك والشدائد، أما التضحيات الكبيرة فهي الثمن الحقيقي الغالي والنفيس التي تغرسه العقيدة في النفوس، ويسكبه الإيمان في القلوب.

٨- الفرار من الموت لا ينجي من الموت أو القتل، ومن علم ذلك هان عليه التقدم في الميدان، والأسباب لا ترد القضاء، فلا بدَّ من التسليم مع اتخاذ الأسباب.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ سورة آل عمران: ١٥٤.

٩- التوجه في طلب الصبر من الله ﷻ في الدعاء، عند لقاء الأعداء، ثم ثبات القدم، والقوة والبأس والثبات في مقاومة الأعداء، فهذا الترتيب في الدعاء مقصود، لأن كل خطوة يترتب عليها ما بعدها، فكيف تكون المقاومة وثبات الأقدام، دون صبر ومصابرة. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أقدامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ سورة البقرة: ٢٥٠. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ

كثيْرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنزِعُوا عَنْهُ فَنفَشَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ سورة الأنفال: ٤٥ - ٤٦.

١٠- أهمية الدين والمُلك معا، فالدين أساس، والمُلك حارس له، وما لا أساس له فمهْدوم، وما لا حارس له فضائع، وما انتصر الإسلام والمسلمون عبر التاريخ إلا بهذا الدين الذي يحمله المسلمون، وبقوة بشرية تحمي هذا الدين وتنصره.

فالحق المجرد من القوة ضعيف، والقوة المجردة من الحق قوة غاشمة مدمرة، إنما الحق المؤيد بالقوة، فهي قوة حكيمة عاقلة، تضع الأمور في مكانها الحقيقي، دون غلو أو شطط، ودون زيادة أو نقصان، ودون إفراط أو تفريط، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ﴿٩﴾ سورة الرحمن: ٩.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ

هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ﴿١٨﴾ سورة الزمر الآية (١٨).



(٢) قصة قابيل وهابيل دروس وعبر.

١- حوار قابيل مع هابيل.

٢- تنفيذ قابيل للجريمة، وكيف يتخلص من آثارها.

٣- دروس وعبر من القصة.



قابيل وهابيل هما أول مواليدي علي وجه الأرض لآدم وحواء، فهما باكورة إنتاجهما، والأرض واسعة تتسع لملايين البشر، ومع ذلك ضاقت بأحدهما فقتل أخاه، في حادثة تعد أول جريمة قتل علي وجه الأرض، ويتحمل القاتل إثم جريمته التي ابتدعها وسنها، ويتحمل إثم كل من عمل بها بعده إلى يوم القيامة، والقصة موجهة إلى بني إسرائيل وأشياعهم وأمثالهم، لحكم وفوائد مهمة تربوية وتعليمية، يحتاجها الناس جميعا علي مر التاريخ.



١- حوار قابيل مع هابيل.

لقد قص الله ﷻ علينا القصة في القرآن الكريم، ليتعلم البشر- جميعا أن لا يكونوا مثل قابيل، الذي قتل أخاه هابيل علي أمر دنيوي، قيل إن حواء كانت تلد في كل بطن ذكر وانثى، والترتيب الطبيعي أن يتزوج قابيل أخت هابيل، والعكس.

لكن أخت قابيل كانت أجهل من أخت هاويل، وهذا سر الاعتراض، فاعترض قابيل على ذلك، فقرب كل واحد منهما قربانا إلى الله ﷻ من ذبح ونحوه، وهاويل كان أتقى لله من هاويل، وتقرب بخيار ماله، فتقبل الله منه ولم يتقبل من أخيه قابيل، فأضمر له الشر، وقال لأقتلنك، لأنه حسده وبغى عليه، وجاوز الحد، ولم يرض بالحكم مرتين.

في المرة الأولى لم يرضى بشريعة الله في الزواج واعترض على ذلك، وفي المرة الثانية، لم يقبل بحكم الله ﷻ حين تقبل الله قربان أخيه، ولم يتقبل منه شيئا، فأول جريمة وقعت على ظهر الأرض كانت بسبب الحسد، وعدم الرضا بما قسم الله ﷻ فقال هاويل: وما ذنبي؟ إنما يتقبل الله من المتقين، الذين يتقون المعاصي، ويخافون من آثارها، ويتعدون عنها وعن أسبابها، التي تورد الإنسان المهالك في الدنيا والآخرة.



٢- تنفيذ قابيل للجريمة، وكيف يتخلص من آثارها؟.

قال هاويل لأخيه لئن مددت إلي يدك تريد قتلي، ما كنت لأبتدأك بالقتل، لأنني أخاف الله، مالك الخلائق كلها، ورفض هاويل أن يتعرض لقتل أخيه كما يفكر قابيل، ليس ناتجا عن ضعف أو جبن، وإنما ناتج عن خوف من الله ﷻ فلا يريد أن يتعرض لقتله ابتداءً ولا مدافعه، فلو دار الأمر بين أن يكون الإنسان قاتلا أو مقتولا لاختار الثاني، حتى ييؤ القاتل بالوزرين، فالقتل من كبار الذنوب، وموجب لدخول النار.

وهذا الكلام متضمن موعظة قصيرة بليغة لقابيل لو أنه اتعظ، وزجرا له لو أنه انزجر، ومع ذلك لم يتعظ ولم ينزجر، لأن الحسد والبغي والغضب جعلت على عينه غشاوة، فلم ير الحقيقة أو ما تؤل إليه الأمور في نهايتها وعواقبها.

إني أريد أن ترجع بإثم قتلي، وإثمك الذي في عنقك إن قتلتي، فتكون من أصحاب النار يوم القيامة، وهي جزاء للظالمين، الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم، حيث جاوز الحد والحكم الذي شرعه الله لهم ليسيروا عليه.

فشجعتة نفسه الأمانة بالسوء، ورخصت له قتل أخيه فانقاد لها، فضرب رأسه بصخرة وهو نائم، فأصبح من الخاسرين في الدنيا، لأنه أسخط والديه، وبقي بلا أخ، وفي الآخرة أنه أسخط ربه، وصار إلى النار.

كما أنه سن هذه السنة السيئة، التي تعد جريمة وكبيرة كبرى لكل من فعلها بعد ذلك، وفي الحديث قال ﷺ: "لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا - وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ مِنْ دَمِهَا - لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ أَوَّلًا". البخاري (٧٣٢١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فلما قتل قابيل هايبيل، أحس أن الدنيا قد أظلمت أمامه، وأن الأرض ضاقت عليه رغم اتساعها، وخلوها من البشر، وأبصر الحقيقة التي كانت غائبة عنه، أنه وقع في جريمة كبرى، وخسارة عظيمة، حينما رأى جثة أخيه أمامه، ولا يدري ماذا سيفعل معها؟ كيف يداريها ويوارئها؟ وهي أول حادثة من نوعها على ظهر الأرض، وعلى غير مثال سابق.

أراد الله ﷻ أن يعلمه كيف يوارى سوءة أخيه، وكيف يدفن هذه الجثة الإنسانية التي لها كرامتها واحترامها، فعلمه الله ﷻ عن طريق الطيور العجاوات، التي لا تسمع ولا تتكلم ولا تعقل، فيتعلم منها الإنسان السميع البصير العاقل.

فبعث الله ﷻ غرابا ليعلم قابيل كيف يدفن أخاه هابيل؟ فرأى قابيل غرابين اقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، فبحث في الأرض حتى جهز له مكانا يدفنه فيه، فكان درسا عمليا له، كيف يوارى جثة أخيه، التي لو تركت فسوف تأكلها الطيور والسباع، وتتعض فوق ظهر الأرض، والله كرم الإنسان، فما ينبغي أن تكون نهاته هكذا! ومن إكرام الميت التعجيل بدفنه، حتى لا تؤذى رائحته من حوله.

وقد كتب أحد الشعراء بيتين من الشعر، يعبران عن لسان حال آدم حينما علم أن ابنه قتل أخاه، فقال الشاعر:

تغيرت البلاد ومن عليها: فوجه الأرض مغبر قبيح
أرى طول الحياة علي هم: وما أنا من حياتي مستريح

من أجل ابن آدم الذي قتل أخاه ظلما وعدوانا، فرض الله ﷻ على بني إسرائيل، أنه من قتل نفسا ظلما وعدوانا، وبدون حق، وبغير فساد تستحق بسببه القتل، فكأنها قتل الناس جميعا، أي يستحق النار، كما لو أنه قتل الناس جميعا متعمدا ومستحلا دماءهم، فيعذب بالنار كما يعذب قاتل الناس جميعا.

وكذلك من استنقذها من هلكة، فأحياها من غرق، أو حرق أو هلاك، فله أجر من أحيا الناس جميعا، والآية لها صلة بالقصة السابقة، فهي تبين حرمة ومكانة وعظمة الإنسان عند الله فهو الذي خلقه وكرمه، وجعله خليفة في الأرض، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ سورة الإسراء: ٧٠.



٣- دروس وعبر من قصة قابيل وهابيل:

١- طلب الله ﷻ من نبيه أن يقص على مشر-كي قريش وغيرهم من المدعويين، قصة ابني آدم بالحق، لأنها قصة حقيقية صادقة، لا كذب فيها ولا افتراء، للعةظة والعبرة، كيف أن الله تقبل قربان هابيل، ولم يتقبل قربان قابيل، فالقبول اختيار واصطفاء من الله ﷻ لا دخل لإنسان فيه، سوى صلاحه وتقواه.

فكذلك اصطفى الله ﷻ محمدا ﷺ على أهل مكة جميعا، فكان ينبغي عليهم الرضا والتسليم والاتباع والقبول، باصطفاء الله ﷻ له بالوحي والرسالة والنبوة.

٢- على المسلم أن يكون مسالما مع المسلمين والمسالمين أجمعين، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: (المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ) البخاري (٦٤٨٤) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

فيسلم الناس من إيذاء لسانه، من السب والشتم واللعن، والغيبة والنميمة، ويسلم الناس من إيذاء يده من البطش والضرب والقتل، ولا يلجأ إلى استخدام العنف أو القوة إلا عند الضرورة القصوى، كدفع الأذى عن النفس، ورد الصائل، الذي يريد أخذ ماله.

وفي الحديث (من قتل دون ماله فهو شهيدٌ، ومن قتل دون دمه فهو شهيدٌ، ومن قتل دون حرمة فهو شهيدٌ). ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٢٨ / ٥٤٠ وهو صحيح عن سعيد بن زيد رضي الله عنه.

والقوة تقدر بقدرها دون إفراط أو تفريط، ودون مجاوزة لتحقيق المطلوب، وبلا زيادة عن إصابة الهدف المقصود وهو دفع الأذى.

٣- حرم الإسلام قتل المسلم لأخيه المسلم عامدا متعمدا، وحذر منه الإسلام أشد التحذير؛ لأنه جريمة كبرى، وشنيعة عظيمة، وفي الحديث: "لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصَبْ دَمًا حَرَامًا". البخاري (٦٨٦٢) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

والقرآن الكريم اعتبر أن القاتل المتعمد جزاؤه جهنم، خالدا فيها، وغضب الله عليه، ولعنه، وأعد له عذابا عظيما، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا

٤- الحسد والبغيا هما سبب أول جريمة وقعت على ظهر الأرض، فلماذا قتل قابيل هايل، حسدا وبغيا وعدم رضا لما قضاه الله وقضى به بين عباد.

ولماذا أخرج إبليس آدم من الجنة، حسدا وبغيا، ولماذا عادى إخوة يوسف أخاهم يوسف حسدا وبغيا، فالحسد من أخطر الأمراض القلبية التي تؤدي بصاحبها إلى الوقوع في أكبر المصائب، والحسد أول ما يأكل يأكل صاحبه، وأقل درجة فيه تمنى زوال النعمة واستكثارها على الآخرين، وأعلى درجة فيه، محاربتة في النعمة لزوالها أو زوال صاحبها، وأغلب المشكلات والمصائب التي تقع بين الناس سببها الحسد.

٥- يتعجل الانسان بالوقوع في الجريمة دون تفكير، ودون النظر في عواقبها، وبمجرد الانتهاء منها يشعر بالخسارة والندم، ويحاول أن يتخلص من آثار جريمته فلا يستطيع، وكلما وجد حلا تعقدت الأمور، فيقع في ما هو أشد وأنكى كما فعل قابيل مع هايل.

والحل أن يتحكم الإنسان في غريزة الغضب، فلا يترك نفسه للشيطان يقوده حيث شاء، وأن يصبر على كظم الغيظ، وحبس النفس على المكروه، خير من أن يتحمل مرارة العقوبة، والسمعة التي تطارده، وقد تتعدى إلى أولاده وذريته من بعده.

٦- أن الإنسان يتعلم من الحيوانات رغم أنه مفضل عليها، ومسخرة له، وميزه الله ﷻ بالعقل والتكليف، فالإنسان غير معصوم، وعرضه للخطأ والنسيان،

فليحمل مع ذلك التواضع، وكسر الجناح، وسرعة العودة والأوبة إلى خالقه وبارئه عند الوقوع في المعصية.

فقد يكون في المفضول ما ليس في الفاضل، وقد يكون في الطالب ما ليس في المدرس، من مواهب ومنح ربانية، وقد كان في الهدهد ما ليس في سليمان عليه السلام، وقد كان في الغراب ما ليس في قاييل.

وعالم الحيوان والطيور أمم مثل البشر، فيتعلم الإنسان من الجمل والحمار الصبر والتجلد، وقوة التحمل، ويتعلم من الكلب الوفاء، ويتعلم من النمل والنحل النشاط والنظام، والتخطيط والابداع، ويبقى الإنسان في حاجة إلى التعلم ما دام فيه نفس يتحرك، وقلب ينبض.

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من:

﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا

الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ سورة الزمر الآية (١٨).



(٣) قصة موسى عليه السلام والخضر عليه السلام دروس وعبر

١- موسى عليه السلام في البحث عن الخضر.

٢- القصص الثلاث التي وقعت بين موسى عليه السلام والخضر عليه السلام.

٣- دروس وعبر من القصة.



إن موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم؟ فقال أنا، فعتب الله تعالى عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه، إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى يا رب: فكيف لي به؟ فقال تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكمل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم.



١- موسى عليه السلام في البحث عن الخضر:

انطلق موسى عليه السلام ومعه فتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤسهما فناهما، واضطرب الحوت في المكمل، فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جريه الماء، فصار عليه من الطاف، فلما استيقظا نسي صاحبه أن يخبر بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتها، حتى إذا كان موسى عليه السلام من الغد قال موسى عليه السلام لفتاه؟.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ء إِنَّا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ ﴾

﴿ سورة الكهف: ٦٢. ﴾

ولم يجد موسى ﷺ النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، فقال فتاه
كما حكى القرآن، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا
أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ سورة الكهف: ٦٣.

فكان للحوث سربا، ولموسى ﷺ ولفتاه عجبا، حينئذ قال موسى ﷺ قَالَ
تَعَالَى: ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّ إِلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾ سورة الكهف: ٦٤. وانظر
البخاري (٣٤٠١).

سُمى غلام موسى ﷺ فتاه، لأنه كان يلازمه، ويأخذ عنه العلم ويخدمه،
والحُقب وقت غير محدود، فلما بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين، أخذ الحوت سبيله
في البحر مسلكا ومذهبا، والنصب الإعياء، وهو مباح في الجهر به ما لم يكن على
سبيل الشكوى والتضجر، ومعنى عجبا أي يُرى عجبا، ويُحدث عجبا، ومعنى
قصصا: أي يقصان الأثر ويتبعانه.

والعبد هو: الخضر، ومعنى الرحمة هنا: الرقة والحنو على من يستحقه،
وعلمناه من لدنا علما، أي: أعطاه الله علما من علم الغيب، فطلب منه موسى أن
يعلمه علما ذا رشد وحكمة.

قال الخضر: إنك لن تصبر على صناعي، لأنه عنده علم من غيب الله لم يطلع الله موسى عليه، فسعى موسى ﷺ خلفه ليحصل هذا العلم ويتخلق بأخلاقه، قال الخضر لموسى: كيف تصبر على أمر ظاهرة منكر، وأنت لا تعلم باطنه، قال موسى: ستجدني بمشيئة الله صابرا ولا أعصى لك أمرا، وإن لم يكن موافقا لهوأي، ولم أعلم الحكمة منه.

قال الخضر: لا تسألني عن شيء مما أفعله، حتى أكون أنا الذي أبينه لك، لأن علمه قد غاب عنك، فلا تكن عجولا في الإنكار والاستبيان، وهذا يدل في اتباع موسى على كمال ثقته فيه، وأنه يعلم أمورا لا يعلمها موسى ﷺ وهو نبي.



٢- القصص الثلاث التي وقعت بين موسى ﷺ والخضر ﷺ:

انطلقا أي موسى ﷺ والخضر يطلبان سفينة يركبانهما، فلما وجدها خلع منها الخضر لوحا مما يلي الماء، فحشاها موسى ﷺ بثوبه، وأنكر عليه ما فعل، فقال موسى ﷺ متعجبا، لقد فعلوا معنا معروفا حين حملونا فيها، فهل هذا جزاؤهم، لقد فعلت أمرا منكرا وعجيبا، فعاتبه الخضر - قائلًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنَّ سَتَاطِعَ مَعِيَ صَبْرًا ۗ ﴾ سورة الكهف: ٧٢.

قال موسى ﷺ لا تؤاخذني على ما نسيت من العهد الذي قطعته على نفسي، ولا تعاملني بالعسر، بل عاملني باليسر واليسير، فهذا بمثابة اعتذار من موسى ﷺ له على سؤاله، والسبب في ذلك النسيان.

ثم انطلقا سويا مرة أخرى، فوجد الخضر غلاما لم يبلغ الحلم فقتله، فكان أمرا يثير الدهشة والتعجب، كيف تقتل نفسا بريئة لم تفعل ما يوجب القتل، لقد فعلت شيئا منكرا، وأقدمت على أمر عظيم جلل.

فذكره الخضر بالوعد والشرط، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَمْ أَبْلُوكَ لِأَنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ

صَبْرًا ﴿٧٥﴾ سورة الكهف: ٧٥.

وذكر لك هنا للتوكيد، فالخطاب له مباشرة يخصه هو دون غيره من الناس فلا بدّ عن التركيز.

قال موسى ﷺ معذرا عما بدا له وعن سؤاله، إن سألتك بعد هذه المسألة فلا تجعلني أصحابك وأتابعك، يريد أنك قد أعذرت فيما بيني وبينك، فقد أخبرني أنني لا أستطيع معك صبرا على ما تصنع من عجائب الأمور وغرائبها.

ثم انطلقا سويا مرة ثالثة، حتى إذا وصلا إلى قرية قيل: هي أنطاكية، سألم الضيافة فرفض أهل القرية أن ينزلونها منازل الأضياف، وكانوا أهل بخل وشح فوجدا حائطا يسقط بسرعة، فسواه الخضر وعدله، لأنه كان مائلا، فقال موسى ﷺ متعجبا: كيف تفعل هذا العمل لأهل هذه القرية الذين رفضوا ضيافتنا وتسوى لهم الجدار؟ فهلا اتخذت مقابلا وأجرا على ذلك مع مثل هؤلاء.

قال الخضر منكرا على موسى ﷺ سؤاله للمرة الثالثة، هذا هو المفرق بيننا، وكرر لفظ بيني وبينك للتوكيد، سوف أخبرك بما مضى من أجوبة أنت لم تصبر على

معرفتها، وأخبرك عما آلت إليه الأمور التي ظاهرها الخراب للسفينة، والاعتداء على النفس البريئة، وبناء الجدار في قرية بخلاء، لتعلم أنك لست بأعلم أهل الأرض قاطبة، ثم شرع في تفسير وتبرير ما فعل سابقا.

أما السفينة التي نزلت منها لوحا من الخشب؛ محاولة ظاهرة لإغراقها، فكانت ملكا لمساكين ضعفاء في أكسابهم وأبدانهم، وهي ملك لعشرة إخوة، خمسة زمني، وخمسة يعملون في البحر، فأردت أن أجعلها ذات عيب بخرقها، وكان هناك ملك سيسيروا بسفينته ثم يراهم، فكان يأخذ كل سفينة صالحة للإيجار غصبا عن أهلها، فيستولى عليها ويضمها إلى ممتلكاته.

وإنما خرقها الخضر - لأن الملك إذا رآها منخرقة تركها، ورقعها أهلها، فانتفعوا بها، وهي مصدر رزق لهم جميعا.

وأما الغلام الذي قتله الخضر فقد طبع كافرا، ولو عاش لأرهق أبويه طغيانا وكفرا، فخاف وخشي الخضر من هذا الأمر المتوهم، أن يؤثر هذا الغلام على أبويه بالاستكبار على الله وإنكار النعمة.

فأردنا أي فأراد الله ﷻ أن يرزقها مكننا عنه غلاما آخر صاحب دين وعمل، وبارا بوالديه، وواصل للرحم.

وأما هذا الجدار الذي كان مائلا للسقوط، فكان الحائط ملكا لغلामين يتيمين بالمدينة، أي القرية السابقة المذكورة، وكان تحت هذا الجدار كنز من الذهب

والفضة، وكان والد الغلامين يعرف بالصلاح والتقوى، فأراد الله ﷻ بسبب صلاح الوالد أن يبلغا أشدهما، أي سن القوة والشباب.

ولو أن الخضر ترك الجدار لتهدم ووقع، وأخذ الناس الكنز، ولم يأخذ اليتيمان شيئاً من مال أبيهما المدخر، قبل أن يبلغا البلوغ أو القوة والفتوة، وهذا رحم من فضل الله ﷻ على الغلامين.

هذا كل الذي رأيت يا موسى ﷺ ما فعلته من عندي ومن تفكيري، وإنما أنا عبد مأمور من الله ﷻ كيف لي ان أعرف عواقب هذا الأعمال دون أن يأمرني الله ﷻ بفعلها، ويعلمني نهايتها وعواقبها وحكمتها.

هذا كل الذي رأيت هو تفسير لما لم تسطع عليه صبراً، أي لم تصبر على تحمله بعض الوقت، حتى أقوم بشرح وتفصيل ذلك لك، وأبين الحكمة منه.



٣- دروس وعبر من قصة موسى ﷺ والخضر ﷺ:

١- تعد قصة موسى والخضر- تأصيلاً قرآنيًا للرحلة ففي طلب العلم وفضله، وقطع مسافات طوال، وتحمل مشاق السفر، وعناء الطريق، في سبيل تحصيل العلم، وكيف يمكن الاستفادة منه عملياً.

كما أنها تبين أدب العالم والمتعلم، وما ينبغي أن يكون عليه طالب العلم من الحرص والصبر، والسمع والطاعة، واحترام المعلم والتأدب معه، وعدم الجدل، لاسيما إذا وضع المعلم شروطا وضوابط للتعامل معه.

وخطاب موسى عليه السلام للخضر فيه من الأدب والتلطف في القول والمشاورة، فكأنه يقول: هل تأذن لي بمصاحبتك للتعلم؟ بخلاف أسلوب أهل الجفاء والكبر، الذي لا يظهر افتقاره وحاجته للعلم.

وعلى العالم أن يكمل ما ينقصه من علم ولو أخذه ممن هو أقل منه، لأن العالم إذا تكلم في غير تخصصه، أتى بالعجائب والغرائب.

والعلم النافع هو العلم الذي يرشد للخير، وفيه هداية وإصلاح، والبعد عن العلم الضار، أو الذي ليس فيه فائدة أو نفع للعالم والمتعلم.

والعلم يحتاج إلى قوة وصبر، وطول ثبات على ذلك، وعن الأسباب المعينة على الصبر إحاطة الإنسان علما وفهما بقيمة الشيء الذي يصبر عليه.

وأن من آداب العالم والمتعلم التواضع في التعليم والتعلم، ونسبة العلم إلى

واهبه ومانحه، وهو الله، قال تعالى: ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عُلِّمْتَ

رُشْدًا ۖ ﴾ سورة الكهف: ٦٦. وقال تعالى: ﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ ۖ ﴾ سورة البقرة: ٢٨٢. وقال تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۖ ﴾ سورة

طه: ١١٤. وقال تعالى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۖ ﴾ سورة الإسراء: ٨٥.

٢- الإنسان ابن طبيعته، ومن طبيعته النسيان، فمن نسى فله عذره، حتى إن الشرع التمس له عذر.

ففي موسى عليه السلام قد نسى، ونسب نسيانه إلى الشيطان، وإضافة الشر- وأسبابه إلى الشيطان، فهذا على وجه التسويل والتزيين، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره.

وآدم قد نسي، وغفر الله له، فعلى المسلم أن يلتمس للناس اعدارا فيما يتعلق بالنسيان، ما لم يكن مرضا يحتاج إلى علاج، فليذهب إلى الطبيب للعلاج، ويعافي عن المسؤوليات الدقيقة التي تحتاج إلى تركيز وتذكر، وحضور بديهية وعدم النسيان، والناس غير مؤاخذه بالنسيان، في حق الله وحق العباد، وأن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملتهم العفو منها، وما سمحت به أنفسهم، ولا يكلفهم ما لا يطيقون.

٣- وصف الله ﷻ الخضر معلم موسى عليه السلام بالرحمة والعلم في قوله، قَالَ

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾

سورة الكهف: ٦٥.

فقدم الله ﷻ الرحمة على العلم، لأن صفة الرحمة في المعلم تجعله مشفقا ورحيما بطلابه، فهو يعاملهم معاملة الأب لأولاده، يحنو عليهم، ويبحث عن مصلحتهم ومنفعتهم.

والرحمة تدعو إلى الرفق وعدم الشدة والقسوة، وهذا أفيد للدارس والطالب في العملية التعليمية، وكان النبي ﷺ رحيمًا شفيقًا لنا مع الصحابة في تعليمهم، وتصويب خطائهم.

وقد شهد الله ﷻ لنبيه بالرحمة والرفق واللين، قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ سورة آل عمران: ١٥٩.

٤- أن المعونة تنزل من الله ﷻ على العبد قدر قيامه بالمأمور به، وأن الموافق لأمر الله ﷻ يعان بم لا يعان به غيره، فلم يشعر بصعوبة الطريق إلى مجمع البحرين، فلما جاوز المكان شعر بالتعب والنصب.

٥- أرحج الأراء في الخضر أنه رجل صالح، لأن الله تعالى وصفه بالعبودية والرحمة والعلم، ولم يذكره بالرسالة والنبوة، وما أعطاه الله ﷻ إياه من علم جاء عن طريق الإلهام، والعلم نوعان، علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده، وعلم لدني يهبه الله ﷻ لمن يمن عليه من عبادة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ سورة الكهف: ٦٥.

٦- أهمية التآني والتثبت، وعدم المبادرة في الحكم على الشيء، حتى يعرف ما المراد منه؟ وما المقصود؟ وهذا مستفاد من تعجل موسى ﷺ الإجابة في القضايا الثلاث التي رآها من الخضر، ولو أنه تحمل وصبر لجاءت الإجابات من الخضر- دون عناء.

ومن حق المعلم أن يختار الطريقة التي يتبعها في الشرح، وتوصيل المعلومة، وعلى الطالب أن يلتزم بما تعهد به مع المدرس دون ملل أو ضجر.

٧- التأكيد على أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، في الأموال والدماء وغيرها، فموسى عليه السلام أنكر على الخضر خرق السفينة، وقتل الغلام، فهذه أمور ظاهرها منكر، فموسى عليه السلام لا يسعه السكوت عنها أنكرها، لكنها كانت حالات خاصة، وأمورا عارضة، تحتاج إلى صبر وعدم المبادرة في الإنكار.

٨- يدفع الشر الكبير بالشر الصغير، ويراعى أكبر المصلحتين بتحقيقها، وتقويت أصغرها وأقلها، فقتل الغلام أخف ضررا من ذهاب دين أبيه، وأن عمل الإنسان في مال غيره، إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة أمر جائز، ولو بلا إذن منه، حتى ولو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير، مثل قصة السفينة، ومثل لو شب حريق في دار إنسان واضطر إلى إتلاف البعض حفاظا على الباقي منها.

٩- العبد الصالح يحفظه الله في نفسه وفي ذريته، فصلاحه يبقى لذريته من بعده، فسخر الله موسى عليه السلام والخضر لرفع الجدار وإصلاحه للغلامين اليتيمين؛ لأن أبوهما كان صالحا، فأراد الله عز وجل أن يحافظ لهما على كنزهما ببناء الجدار وإصلاحه.

١٠- استعمال الأدب مع الله ﷻ في الألفاظ، فالخضر أصاب عيب السفينة

إلى نفسه، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ سورة الكهف: ٧٩.

وأما ما كان يحتمل أمرين، فجاء الخطاب بالجمع بين الذات الإلهية، وبين

الخضر — قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ سورة

الكهف: ٨١.

وأما الخير المحض فنسبه إلى الله ﷻ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا

وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ سورة الكهف: ٨٢.

رغم أن الأمر في الأمور الثلاثة هو الله ﷻ وهي قدر محض من الله ﷻ

وجعلها على يد العبد الصالح، ليستدل العباد بذلك على ألطف الله في أفضيته، وأنه

يقدر على العبد أموراً يكرهها، بينما هي صلاح في دينه، ليرضى العباد بأقدار الله

المكروهة في ظاهرها.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من:

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾

الْأَنْبِيَاءِ ﴿١٨﴾ سورة الزمر الآية (١٨).



(٤) قصة ذو القرنين دروس وعبر.

١- ذو القرنين وموابه التي أعطها الله له.

٢- رحلة ذي القرنين وقوانينه.

٣- دروس وعبر من القصة.



وردت قصة ذي القرنين في سورة الكهف فقط، وفيها يقول الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ ويسألونك عن خبر ذي القرنين، وقد سأله كفار قريش بمساعدة اليهود لهم ما يمتحنون به النبي محمد ﷺ فقالوا سلوه عن رجل طاف الأرض، وعن فتية لا يدري ما صنعوا، وعن الروح، فنزلت سورة الكهف.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا إِنَّا

مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَنْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ سورة الكهف: ٨٣-٨٥.

١- ذو القرنين وموابه التي أعطها الله له:

وسمى بذو القرنين لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس، وقيل لأنه ملك الروم والفرس، وقيل كان في رأسه شبه القرنين، وقيل لأنه بلغ المشارق والمغارب، من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب.

وكان ملكا عظيما ممكنا، له فيه من جميع ما يؤتي الملوك من التمكين والجنود، وآلات الحرب والحضارات، ولهذا ملك الشرق والغرب، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم من العرب والعجم، وأتاه الله من كل شيء علما.

فيسر الله ﷻ له الأسباب، أي الطرق والوسائل التي تؤدي إلى فتح الأقاليم والبلاد، وكسر الأعداء، وكبت ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك، فأعطاه الله ﷻ من كل شيء مما يحتاج إليه مثله من الأسباب، فأتبع سببا، يعني بالسبب المنزل يتخذ منزلا وطريقا بين المشرق والمغرب، ويتبع منازل الأرض ومعالمها، فسلك طريقا حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب، فرأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه في عين حامية حارة، وماء وطين أسود.

٢ - رحلة ذي القرنين وقوانينه:

وجَد عند غروب الشمس أمة من الأمم، مكنه الله ﷻ منهم، وحكمه فيهم، وأظفره بهم، وخيره إن شاء قتل وسبى، وإن شاء منَّ أو فدى، فعُرف عدله وإيمانه فيما أبداه بيانه فقال: أما من استمر على كفره وشركه بربه فسوف نعذبه بالقتل، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا بليغا أليما، وأما من تابعا على عبادة الله وحده لا شريك له، فله جزاء الحسنی، أي في الدار الآخرة عند الله، وسنقول له قولا معروفا.

ثم سلك طريقا آخر فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها، فوجدها تطلع على أمة ليس لهم بناء يكنهم، ولا أشجار تظلمهم، وتسترهم من حر الشمس، والله سبحانه مطلع على جميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفى عليه منها شيء، وإن تفرقت بهم أممهم، وتقطعت بهم الأرض، فإن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

ثم سلك طريقا من مشارق الأرض حتى بلغ بين السدين، وهما جبلان، بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيشون في الأرض فسادا، ويهلكون الحرث والنسل، وهما من سلالة آدم.

وَجَدَ ذُو الْقُرْنَيْنِ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا، لاسْتَعْجَامَ كَلَامِهِمْ، وَبَعْدَهُمْ مِنَ النَّاسِ، فَأَرَادُوا أَنْ يَجْمَعُوا لَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ مَالًا يَعْطُونَهُ إِيَّاهُ، حَتَّى يَجْعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ سَدًّا، فَأَجَابَهُمْ بَعْفَةً وَدِيَانَةً وَصَلَاحًا وَقَصَدَ لِلْخَيْرِ، إِنْ الَّذِي أَعْطَانِي اللَّهُ مِنَ الْمَلِكِ وَالتَّمَكِينِ خَيْرٌ لِي مِنَ الَّذِي تَمْنَعُونَهُ، فَالَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي تَبْذُلُونَهُ، وَلَكِنْ سَاعِدُونِي بِعَمَلِكُمْ وَأَدْوَاتِ الْبِنَاءِ، أَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا.

آتوني قطع الحديد في صورة لبنات من الطوب، وضع بعضها على بعض من الأساس، حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً، قال أجبوا عليه ناراً حتى صار كله نار مذاباً، فهو بناء من حديد ونحاس، عال منيف شاهق، لا يستطيع تسوره، ولا ما حوله من الجبال.

فما قدر يأجوج ومأجوج أن يصعدوا فوق هذا السد، ولا قدروا على نقبه من أسفله، ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه، قابل كلاهما يناسبه فما استطاعوا أن يظهروه، وما استطاعوا له نقبا، فلم يقدروا على نقبه، ولا على شيء منه.

وفي الحديث عن زينب بنت جحش قالت: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ وَهُوَ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيَلُّ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلَ هَذِهِ. وَعَقَدَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ عَشْرَةَ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَهْلِكَ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْحَبْثُ". مسلم (٢٨٨٠). عن زينب بنت جحش رضي الله عنها.

لما بنا ذو القرنين السد قال هذا رحمة من ربي بالناس، حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلا يمنعهم من العبث والفساد، فإذا اقترب الوعد الحق، ساواه بالأرض، وكان وعد الله كائن لا محالة، والناس يومئذ، يوم يدك هذا السد ويخر هؤلاء فيموجون في الناس، ويفسدون على الناس أموالهم، ويتلفون أشياءهم، وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال.



٣- دروس وعبر من قصة ذو القرنين:

إن شخصية ذي القرنين تميزت بأخلاق رفيعة، وفهم صحيح، ومبادئ وقيم عالية، ساعدته على تحقيق رسالته الدعوية، والجهادية في الحياة، والقرآن الكريم اعتنى بإخراج القيم والأخلاق والمبادئ الصحيحة في سيرة ذي القرنين، وأعماله، وأقواله.

ومن أهم هذه الصفات ما يأتي:

١- الحكم والسلطان والتمكين في الأرض لإقامة العدل. فالذي أعطاه الحكم هو الله، والذي مكن له في الأرض هو الله، من أجل ذلك ينبغي أن يسخر الحكم والتمكين لتنفيذ شرع الله في الكون، وإقامة العدل بين العباد، وتيسير الأمر على المؤمنين المحسنين، وتضييق الخناق على الظالمين المعتدين، ومنع الفساد والظلم، وحماية الضعفاء من بطش المفسدين، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ ﴿٨٤﴾ سورة الكهف الآية (٨٤).

٢- كان له مساعدون من الرجال الأشداء الأقوياء، ذو الخبرات الفنية العالمية، في النواحي السياسية، والعسكرية، والعمرانية، والاقتصادية، الذين كانوا طوع بنان ذي القرنين، وكذلك خضوع الأقاليم له، وفتح الخزائن أمامه، وتقديم خراج الشعوب له طواعية، ويستخدمه في عمارة الأرض والكون، وليس في بناء مجد شخصي له.

٣- الاهتمام باتخاذ الأسباب لبلوغ الأهداف والغايات، التي سعى إليها حيث آتاه الله من كل شيء سبباً، فأتبع سبباً، وهذا لا يكون إلا بتسخير العلم لتحقيق الهدف والرسالة الكبرى التي يحملها، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ سورة الكهف الآيتان (٨٤-٨٥).

٤- الصبر على صعوبات الحياة ومشاقها، فكان جلدا صابرا علي مشاق الرحلات، فمثلا تلك الحملات التي كان يقوم بها تحتاج إلى جهود جبارة في التنظيم، والنقل، والتحرك، والتأمين، فهي تحتاج إلى جيوش ضخمة، وإلى عقلية يقظة، وذكاء وقاد، وصبر عظيم، وآلات ضخمة وأسباب معينة علي الفتح والنصر والتملك، حيث إنه ذهب إلى مطلع الشمس، ومغربها، وبين السدين، فطاف الكرة الأرضية كلها، وهو أحد أربعة حكموا العالم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجْدهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۗ ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۗ ﴿٩١﴾ سورة الكهف الآيتان (٩٠-٩١).

٥- الوصول إلى أعلى درجة من العلم المادي في عصره، التي جعلته يكتشف أسرار الكون والطبيعة والحياة، وكيف يفجر طاقاتها، ويسلب أغوارها، ويوظفها لعمارة الكون، والخلافة في الأرض، وإقامة موازين الحق والعدل في الحياة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ءَأَنزَلْنَاهُ رِزْقًا حَدِيدًا حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأَنزَلْنَاهُ نُورًا ۗ أَلَمْ نَجْعَلْ لَّكَ آيَاتٍ لِّعَلَّكَ تَفْقَهُ ۗ ﴿٩٦﴾ سورة الكهف الآيتان (٩٦-٩٧).

٦- كانت له مهابة ونجابة يستشعرها من يراه لأول مرة، ولكنها ليست مهابة الملوك الظالمين الجبارين، أو مهابة مصطنعة مختلقة يصنعها بعض المستشارين للحكام، فعندما بلغ بين السدين، ووجد القوم المستضعفين، استأنسوا به، ووجدوا فيه مخلصا لهم من الظلم والقهر الواقع عليهم، فبادروه بسؤال المعونة، فمن الذي أدراهم بأنه لن يكون مفسدا مثل المفسدين أو الظالمين، ومعه من القوة والعدة ما

ليس مثلهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا قَوْمِ لَرَبِّنَا إِلَهٌ وَرَبُّكُمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ سورة الكهف الآيات (٩٣-٩٥).

٧- الشجاعة والإقدام، فكان قوي القلب، جسورا غير هيب من التبعات الضخمة، والمسئوليات العظيمة، إذا كان ذلك في مرضاة ﷻ فإن ما طلب من إقامة السد، كان عملا عظيما في ذاته، حيث إن القوم المفسدين كان من الممكن أن يوجهوا إفسادهم إليه، وإلى جنوده، ولكنه أقدم وأقبل بشجاعة نادرة، غير متأخر ولا مدبر، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ءَأَتُونِي رُبْرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نُقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾ سورة الكهف الآيات (٩٦-٩٧).

٨- التوازن في شخصيته، فلم تعكر شجاعته علي حكمته، ولم ينقص حزمه من رحمته، ولا حسمه من رفقته وعدالته، ولم تكن الدنيا كلها - وقد سخرت له - كافية لإثائه عن تواضعه، وطهارته وعفته، فوضع قانونا عادلا يسير على الجميع، ولا يستثني منه أحدا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ نُرِيدُ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحَسَنَىٰ وَسَنُقُولُ لَهُ: مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ سورة الكهف الآيات (٨٧-٨٨).

٩- كان عفيفا مترفعا عن مال لا يحتاجه، ومتاع لا ينفعه، فإن القوم المستضعفين لما شكوا إليه فساد المفسدين، عرضوا عليه الخراج، فأجابهم بعفة

وديانة وصلاح، إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، وما أنا فيه خير من الذي تبدلونه، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ (٩٥) سورة الكهف الآية (٩٥).

١٠- كثير الشكر لله، والاعتراف بالجميل للمنعم، لأنه كان صاحب قلب حي موصول بالله تعالى، فلم تدفعه نشوة النصر، وحلاوة الغلبة، إلى الفخر والخيلاء، بعدما أذل كبرياء المفسدين، بل نسب الفضل إلى ربه ﷻ كل ذلك لم يدخل في نفسه الغرور والبطر والطيش والغواية، بل بقي مثالا للرجل المؤمن العفيف المترفع عن زينة الحياة الدنيا، الشاكر لربه على نعمائه، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (٩٨) سورة الكهف الآية (٩٨).

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من:

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا

الْأَلْبَابِ﴾ (١٨) سورة الزمر الآية (١٨).



(٥) قصة قارون دروس وعبر.

- ١- قارون الباغي وفتنة المال.
- ٢- موقف الناس من قارون.
- ٣- دروس وعبر من قصة قارون.



قارون صاحب قصة مشهورة عند اليهود، وعند المسلمين، فهو كان من عشيرة موسى عليه السلام، وقيل كان ابن عمه، فخرج عليهم مما هم فيه من إيمان وطاعة لله، وعمل للأخرة، وسار وراء شهوات النفس، وملذات الدنيا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ سورة القصص: ٧٦.

١- قارون الباغي وفتنة المال:

لقد بسط الله عز وجل لقارون من الرزق الكثير، ففتح له أبوابا من العلم، كان يحول الرمال إلى كنوز نفسه، حتى كثرت أمواله بطريقة كبيرة جدا، فكانت مفاتيح الأبواب والخزائن ثقيلة على الجماعة من الناس، والعصبة ما فوق العشرة، فإذا كانت مفاتيح الأبواب والخزائن ثقيلة على الرجال، فكيف بالأموال التي داخلها؟

فذكر الله قصته، وماذا فعل، وماذا فعل به؟ وما وجهه له أهل العلم من نصيحة وموعظة.

لقد فرح قارون بهذه الأموال الكاثرة فرحا شديدا، وظن أنه مخلد في الحياة، ونسى إيمانه بالله وبالدار الآخرة، فطغى وبغى بما أوتي من الأموال العظيمة المطغية.

٢- موقف الناس من قارون:

لقد نصحه رجال مؤمنون من قومه، فقالوا له: لا تفرح ولا تأشر ولا تبطر، لأن الله ﷻ لا يحب صفة الأشر والبطر، فليست من صفات الرجال الصالحين.

لقد نصحوه محذرين له من الطغيان ومجاوزة الحد، أن يستخدم هذه الأموال في التقرب إلى الله ﷻ بإنفاقها على الفقراء والمساكين والمحتاجين، فيطلب بذلك الجنة، وما عند الله في الآخرة من جزاء، فقد حصل لك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال الكثيرة العظيمة؛ فتصدق بها على المحتاجين، ولا تقتصر بها على نيل الشهوات، وتحصيل الملذات.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٧٧) سورة القصص: ٧٧.

ولا تنس نصيبك من الدنيا، فأمسك عليك ما يغنيك ويكفيك، وما زاد فادخره لنفسك عند الله، فهو الذي يبقى لك، وليس الذي تبقى بيدك أو تمسكه في خزائنك، فأنفق لآخرتك واستمتع بدنياك، بما لا يضر دينك ودنياك وآخرتك.

وإذا كان الله أحسن إليك بأن أطل هذا الرزق والمال، وأعطاك أسبابه، فأحسن أنت إلى عباد الله في استخدام المال في مصارفة ومواضعه، خاصة ما زاد عن قدر حاجتك.

ولا تستخدم هذا المال في المعصية والتبذير، والافتقار في غير موضعه، أو الانشغال بالنعمة عن المنعم، فليس من العقل أن يحسن الله ﷻ للإنسان، ثم يسيء الإنسان إلى نفسه، بسوء الفعل والعمل، فالله ﷻ لا يحب أصحاب البغي والمعاصي، والظلم والإفساد، ويعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ، عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۗ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن قَوْمٍ مِّنَ الْقُرُونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۗ وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ سورة القصص: ٧٨.

لقد تكبر قارون ونسي نفسه، ونسى نعم الله عليه، وظن أنه قادر على كل شيء، وصرح بذلك صراحة فقال: إنها أوتيت هذا المال على علم عندي، أي بكسبي ومعرفتي وحذقي ومهاراتي.

وهكذا يقول الجهلاء، ينسبون ما أعطاهم الله ﷻ من نعم ومواهب إلى أنفسهم، ويظنون أن الله وسع عليهم في المال لرضاهم عنهم، وهذا ليس صحيحاً ولا صواباً، إنما المال اختبار من الله ﷻ للإنسان، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ سورة الفجر: ١٥.

ألم يعلم قارون أن الله ﷻ قد أهلك بالعذاب من قبله من القرون، حينما كذبوا رسلهم، وأعرضوا عن المنهج، من هو أشد من قارون قوة، وأكثر منه جمعا من الأموال، حينما فعل ما يوجب الهلاك.

فإذا كان وصل إلى علمه ذلك، فلماذا لا يتعظ بما سبق عليه؟ ولا يعتبر من هلاك السابقين حتى لا تكون نهايته مثل نهايتهم؟ ولا يسؤلون عن ذنوبهم التي كانت سببا في هلاكهم لوضوحها وظهورها، أو توبيخا لهم على ما فعلوه، فالملائكة تعرفهم بسيماهم، فيدخلون النار دون سؤال أو حساب؛ لشدة جرمهم، ومع ذلك لا يزال قارون مستمرا في عناده وبغيه وعدم قبول النصيحة.

ومن شدة طغيان قارون وكبره وبطره وأشره، أنه خرج على قومه في كامل زينته من الثياب، ومظهر التفاخر، فتجمل بأعظم ما يمكنه، ففتن به الناس كل على حسب حالته.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ سورة القصص: ٧٩.

فالذين يريدون زينة الدنيا ومظاهرها قالوا: يا ليتنا أعطينا مثل ما أعطي قارون من المال والزينة، إنه صاحب نصيب وافر من الدنيا، وهكذا أبناء الدنيا ينظرون إلى مظاهر الدنيا الفانية، ويتنافسون فيها، ويتباهون بمن يحوز أكبر قدر من حطامها، فتعلقت إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم، وليس لهم تفكير في غيرها.

بينما قال أصحاب العلم من أحبار بني إسرائيل، ناصحين أبناء الدنيا الذين تمنوا أن يكون لهم مثل قارون: ما عند الله من الجزاء الأخروي هو خير لكم مما أعطى قارون، ولا يوفق إلى هذا الاختيار من العلم الصالح، والرغبة فيما عند الله من الآخرة، إلا الصابرون على أمر الله وقضائه وقدره، وما اختاره الله ﷻ لهم من الرزق، فالسعيد هو صاحب القناعة والرضا والتسليم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ ﴿٨٠﴾ سورة القصص: ٨٠.

وبعد الإنذار والندير، وبعد النصيحة للاتعاظ والاعتبار والنظر في عواقب الأمور، وعدم الاستفادة من ذلك، يأتي العذاب الأليم الشامل الذي يطيح بالإنسان، وبها كان يفتخر به.

فهذا عقوبة له في الدنيا، وعظه لمن أراد أن يتعظ، فحسف الله به وبيداره وأمواله كلها الأرض، فابتلعتة وابتلعتها معه، ولم ينفعه شيء من مال أو حراس أو جنود، أن يدفع عنه هذه النهاية الأليمة، فكان بئس الفرد، وبئس ما صنع، وبئست النهاية التي لم يقف أمامها أحد يحجبها عنه، أو يصرفه عنها.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ ﴿٨١﴾ سورة القصص: ٨١.

ولما رأى أهل الدنيا هذه النهاية الأليمة التي نزلت به، وكانوا يتمنون أن يكونوا مثله، تعلموا الدرس، وفهموا المراد، والسعيد من اتعظ بغيره، وفهم حقيقة

الأمر، تعجب هؤلاء من حكمة الله وتقديره في المنع والعطاء، فالله عَزَّوَجَلَّ هو المعطي والمقسم للأرزاق، وهو الذي يبسط على من يشاء، ويقدر على من يشاء.

قال هؤلاء لولا أن الله عَزَّوَجَلَّ منَّ علينا بالإيمان والرحمة والمعافاة؛ لكانت نهايتنا الخسف مثل نهاية قارون، وأقروا بالحقيقة الواضحة، والسنة الإلهية الثابتة، أن الكافرين لا ينجحون في الدنيا ولا في الآخرة، وما يتمتعون به من مظاهر مادية، إنما لأنهم أخذوا بأسبابها فقط، فيتمتع الجسد، وتشقى الروح، فحرموا نعمة السعادة والسكينة والطمأنينة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَابُ لَا يَفْلِحُ الْكٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

سورة القصص: ٨٢.

وختم الله قصة قارون بهذه القاعدة الربانية، والسنة الإلهية، أن الدار الآخرة خصها الله لمن تواضع له، وسار على نهجه، واتبع منهجه، وليس لمن أراد كبرا وبطرا واستعلاء في الأرض، وهي لمن أراد الإصلاح، فجعل من ذلك رسالة له، إقامة العدل بين الناس، وهداية الناس إلى دين الله، وليست الآخرة لمن أفسد نفسه وغيره، واتبع سبيل المفسدين بالقتل والظلم، والعدوان والبغي، والذنوب والمعاصي والآثام.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾

سورة القصص: ٨٣.

وفي النهاية لا يصح إلا الصحيح، أن العاقبة للمتقين، فهم الذين يرثون الأرض بعد سنة المدافعة مع المفسدين، فالذين يخافون الله ﷻ هم الجديرون بإقامة العدل والمساواة بين الناس.



٣- دروس وعبر من قصة قارون:

١- قارون شخصية متكررة في كل عصر، وحاضرة في أماكن كثيرة، يختلف في الاسم لكن يشترك معه في الصفات، والطباع والأعمال، يعيش لنفسه ولدنياه فقط، يحمل من الصفات القارونية الكبر والبطر، والغرور والأشر، وإذا لم يتعظ بصاحبه السابق فسوف تكون نهايته وخيمته، وعاقبته أليمه، فليحذر العاقل من سلوك هذا المسلك الذي لا يحبه الله ﷻ ولا يفلح صاحبه.

٢- المال فتنة في الحياة الدنيا، وكثرته عند صاحبه ليس دليلاً على محبة الله ﷻ له، وإنما هو اختبار شأنه شأن الفقر، سواء بسواء.

ومن أجل أن ينجح صاحبه في اختبار المال لابد أن يكسبه من الحلال، وينفقه في الحلال، ويكون في يده، وليس في قلبه، وأن يؤدي زكاته، وأن لا يسرف أو يبذر فيه، وأن يكون قنوعاً وراضياً بما أعطاه الله، ولا ينظر إلى مال غيره، أو يقارن بينه وبين نفسه، أو يحسده عليه وينافسه فيه، ويتمنى زواله.

٣- هناك فرق كبير بين أبناء الدنيا وأبناء الآخرة، أما أبناء الدنيا فهم يحرصون على جمع المال، ونيل الشهوات، وتحقيق الملذات، ويتمنى المزيد من المال بلا ضوابط أو أحكام.

أما أبناء الآخرة فالمال عندهم وسيلة وليس غاية، ويأخذون منه القدر الذي يحققون به قضاء مصالحهم، وما زاد يدخرونه لأنفسهم عند الله ﷻ بإنفاقه في مصارف الزكاة والصدقة، وقضاء حاجات الناس.

٤- على المسلم أن يعلن فقره الدائم، وحاجته المستمرة إلى عطاء الله ﷻ وإحسانه، فهو يعيش في نعمه، ويغمره كرمه وفضله وعطاؤه، وما أتاه الله ﷻ من نعم ومواهب وقدرات، فلينسب الفضل في ذلك إلى الله وحده، كما فعل سليمان عليه السلام، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ سورة النمل: ٤٠.

ولا يكن مثل قارون، نسي نعم الله عليه، ونسب العلم إلى نفسه، فاستحق العقوبة في الدنيا قبل الآخرة، فحرم من ماله، وخسف الله به الأرض، فمات حسرة وكمدا على ضياع ماله، وفاتته الفرصة الأخيرة فلم يتب من جرمه، لأن العقوبة عاجلته. قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ سورة القصص: ٧٨.

٥- تقديم النصيحة الصادقة أمر شرعي رغب فيها الإسلام، سواء علم بها المنصوح أم لا، وإنما تقديمها حق له، ويراعي فيها ضوابطها الشرعية، بأن تكون لله، وبعيدة عن الناس، وبعيدة عن التشهير، ويقصد بها مصلحة المنصوح.

فأهل الدنيا تمنوا أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون، أما أهل العلم وأبناء الأخرى، فقالوا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ ﴿٨٠﴾ سورة القصص: ٨٠.

وقد صدقوا في نصيحتهم، وقدموها على أحسن وجه، وأجمل صورة، ومن لم يعمل بها جنى ثمرة اختياره، وتحمل نتيجة أفعاله الأليمة.

٦- إن الله يبغض الكبر والمتكبرين، ويجب التواضع والمتواضعين، فالكبر سبب للهلاك، ومنافسة لله في صفاته، وأما التواضع فهو من شيم الصالحين، وطريق إلى جنة الله ومرضاته، لذلك وضع الله ﷻ قاعدة في نهاية القصة لتكون ضابطة وحاكمة لمن يريد الأخرى، وهي قوله، قَالَ تَعَالَى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَها لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِنِينَ ﴾ ﴿٨٣﴾ سورة القصص: ٨٣.

٧- إن الأعمال بالخواصم، والحي لا تؤمن عليه الفتنة، والحياة مليئة بالتقلبات، فيمسي الرجل مؤمنا ويصبح كافرا، ويمسي كافرا ويصبح مؤمنا، وعلى المسلم أن لا ينظر إلى مظاهر الناس وأشكالهم وألوانهم، وأن لا ينخدع بالصورة

الظاهرة للإنسان، أو يحكم عليه من وقت واحد، وأن أفضل مقياس لمعرفة حقيقة الناس هو مقياس القرآن الكريم، والسنة النبوية، والسلف الصالح.

٨- إن القرآن الكريم أكثر من قصص بني إسرائيل في أكثر من سورة، وأكثر من موضع، لما تشتمل عليه من دروس وعبر للأمم المسلمة الأخيرة، فلا تقع في نفس أخطاء الأمم السابقة.

وذلك مثل قصة أصحاب السبت، أو قصة أصحاب البقرة، أو قصة السامري والعجل، أو قصة قارون وبغيه على قومه، فكلها انحرافات عن الطريق المستقيم، فلتكن الأمة المسلمة على حذر من هذه الانحرافات، حتى لا تحل بها العقوبة، فهي خير أمة أخرجت للناس.

وفي قصصهم الإيجابي صور تعليمية تربوية إيمانية رائعة، مثل قصة سحرة فرعون، أو قصة موسى عليه السلام والخضر، أو قصة دخول الأرض المقدسة، فلا بد أن تكون الأمة على وعي وبصيرة بطريقها الصحيح ومحاذيره، حتى لا يكون لها عذر عند الله عز وجل في الدنيا والآخرة. نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من:

﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا

الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ سورة الزمر الآية (١٨).



(٦) قصة لقمان الحكيم عليه السلام دروس وعبر.

١- التربية على العقيدة الصحيحة.

٢- الوصية بالوالدين.

٣- التربية على المراقبة.

٤- الوصية بالصلاة.

٥- الوصية بالأمر بالمعروف.

٦- الوصية بحسن الخلق.



لقمان عليه السلام رجل حكيم، آتاه الله الفهم والعقل، والفقهِ وحسن التعبير، والإنسان يقاس بعقله، وما يحمل من فهم صحيح لرسالة وجوده في الحياة، ومن ثم أراد أن يورث ولده خبرته المتراكبة الطويلة، ولقمان عليه السلام رجل صالح حكيم، وليس نبيا على أصح الأقوال.

قال ابن عباس: (كان عبدا حبشيا نجارا، وكان قصيرا أفطسا من النوبة).

ومن وصايا لقمان الحكيم عليه السلام، كان يقول ما جاء في الحديث النبوي الشريف: (إنَّ

الله إذا استودعَ شيئا حفظه). صحيح الجامع (١٧٠٨).

وولده هو أحب الناس إليه، وأشفقهم عليه، فيود أن يقدم له أحسن ما يملك من النصيحة، وثمره ما يملك من الحكمة والمعرفة.

فوجه له هذه الرسالة، والموعظة البليغة التي يحتاج إليها كل مسلم في تربية أولاده، ليسترشد بها في أصول التربية الإسلامية، ويمثلها الناس ويقتدوا بها، وكفى أن القرآن الكريم خلد ذكرها، بأن أوردتها مفصلة في ثمان آيات متواليه، في سورة تحمل اسم هذا الرجل الصالح، والمربي الحكيم في سورة لقمان (من الآية ١٢ – حتى الآية ١٩) وهي تشتمل على أصول الإسلام، العقيدة الصحيحة، والعبادة السليمة، والأخلاق الفاضلة.

بدأت القصة بذكر بعض النعم التي خص بها لقمان عليه السلام، وهي نعمة الحكمة، وهي تعني وضع الشيء في موضعه الحقيقي، بلا زيادة أو نقصان، ونسب الله عطاء هذه النعمة إلى نفسه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ سورة لقمان: ١٢.

وأمام هاتان نعمتان لا بد أن يقابلها العبد بالشكر، وهذا ما طلبه الله من البشر أجمعين، فقال: (أن أشكر الله) على ما أتاه الله من منحه، وما وهبه من فضله، وميزة به عن غيره من أقرانه ومعاصريه، لأن كل النعم والفضل منه، فالإنسان من مفرق شعره إلى أخمص قدميه حفييل بنعم الله التي لا تعد ولا تحصى، فإذا شكر الله عليها أدامها عليه، فبالشكر تدوم النعم.

وفي النهاية الإنسان هو المستفيد من الشكر، لأن شكر العبد لله لا يزيد الله عَلَيْهِ شيئاً، ولا ينقصه شيئاً، ولذلك ختم الله الآية بقوله، (ومن كفر فإن الله غني حميد) فهو غني عن عباده وخلقته، وهو محمود ومشكور على جميع الأحوال.

وبداً لقمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصيته النافعة لولده في صورة موعظة، والموعظة فيها من الترغيب والترهيب، وفيها الحنو على الولد بعاطفة الأبوة، وفيها مخاطبة العقل والقلب، للاستمالة والإقناع.

١- التريية على العقيدة الصحيحة:

وبداً بأهم القضايا على الإطلاق، وهي التوحيد، فحذره من الشرك، بأن يتخذ مع الله إلهاً آخر، أيا كانت صورته، لأنه كذب وافتراء على الذات الإلهية، مخالف للحق والحقيقة، ووضع الشيء في غير موضعه، فهو ظلم للنفس، وجرم عظيم من القول والفعل. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ سورة لقمان: ١٣.

٢- الوصية بالوالدين:

وبعد قضية التوحيد الخالص، والتحذير من الشرك، تأتي قضية البر بالوالدين، فهما سبب وجوده بعد الله عَلَيْهِ فجاءت الوصية بهما مباشرة، وكثيراً ما يقرن بين توحيد الله عَلَيْهِ وعبادته، وبين بر الوالدين، في أكثر من موضع في القرآن الكريم منها:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾﴾ سورة لقمان: ١٤.

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ سورة الإسراء: ٢٣.

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴿٣٦﴾﴾ سورة النساء: ٣٦. وقال تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴿٨٣﴾﴾ سورة البقرة: ٨٣. وقال تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴿١٥١﴾﴾ سورة الأنعام: ١٥١.

فهم أولى الناس بمساعدة أولادهم وخدمتهم، والأم تقدم على الأب في الرعاية والخدمة، لأنها حملت ولدها وهي في ضعف على ضعف، ووهن على وهن، يتغذى من دمها ولحمها وعظامها، وقامت بإرضاعه لمدة عامين وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً، فالشكر لها بعد الله ﷻ.

ومن فعل ذلك فسوف يرى ثواب ذلك في الدنيا والآخرة، فالمصير والمرجع إلى الله وحده، وهو الذي أمر بالوصية، وهو الذي يجاسب عليها من البر والشكر، والرعاية والخدمة.

ثم حذرت الوصية من الشرك بالله إذا جاء عن طريق الوالدين، حيث يقع الابن في حيرة شديدة بين أوامر الله بالتوحيد، وبين طلب والديه منه الشرك بالله،

فهنا يجب مخالفتها، وعدم السمع لهما في هذا الموضوع على وجه التحديد، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۗ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۗ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ سورة لقمان: ١٥.

ومع ذلك تبقى حسن الصحبة والمعاملة قائمة، فيجب الفصل بين الموضوعين، الأول لاحق لهما فيه، والثاني حقهما في البر والوفاء، والمعروف هو ما يستحسن من الأقوال والأفعال.

ثم جاء الأمر بأن المسلم يسلك طريق من يعود ويرجع إلى الله دائماً وأبداً، فالمرجع إليه والحساب عنده، وكل ما سبق من عمل سوف يعرض على الإنسان مرة أخرى؛ ليحاسب عليه.

والآية نزلت في سعد بن مالك قال: (كنت رجلاً باراً بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت، لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتعير بي، فيقال: يا قاتل أمه، فقال: لا تفعلي يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثت يوماً وليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت يا أمه، تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلني وإن شئت لا تأكلي، فأكلت) رواه الطبراني في كتاب العشرة. ❀❀❀

٣- التربية على المراقبة:

وإذا كانت العقيدة تقوم على توحيد الله ﷻ وإفراده بالعبادة، وطلب العون منه، والتحذير من الشرك بجميع صورته وألوانه، فإن من متطلبات هذه العقيدة مراقبة الله ﷻ في السر والعلن، واستشعار هذه المراقبة تحتاج إلى تربية في الصغر، وتعهد مع الإنسان حتى يشب عليها.

فالإنسان مهما فعل فعين الله ﷻ ترقبه، وتشهد عليه الملائكة والجوارح والأرض التي يعيش عليها، ويترتب على استشعار المراقبة أنه ما من ذنب يصنعه الإنسان صغيرا وكبيرا، في السر والعلن، والحضر- والسفر، والليل والنهار، أمام الناس أو من ورائهم، فإن الله ﷻ آت به ومحاسب الإنسان عليه.

وقد صور هذا المعنى السابق لقمان الحكيم ﷺ لولده في قوله، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَبْنِيْ اِيْنِهَآ اِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ اَوْ فِيْ السَّمٰوٰتِ اَوْ فِي الْاَرْضِ يَآتِ بِهَا اَللّٰهُ اِنَّ اَللّٰهَ لَطِيْفٌ خَبِيْرٌ﴾ (١٦) سورة لقمان: ١٦.

فالذنب والمعصية، والمظلمة والخطيئة، لو كانت تساوى مثقال حبة من خردل فإن الله ﷻ آت بها، ومحضرها يوم القيامة، حين يضع للناس الموازين بالقسط.

فالله سبحانه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، فهو لطيف في علمه، خبير بكل شيء مهما صغر أو خفي،

ومن ثم كل إنسان سوف يجاسب على مثاقيل الذر في الخير والشر، قَالَ تَعَالَى: ﴿

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴿

سورة الزلزلة: ٧-٨.



٤- الوصية بالصلاة:

وبعد العقيدة الصحيحة تأتي العبادة السليمة، فجاءت الوصية بإقامة الصلاة، أي أدائها بحدودها كاملة، وعلى أول وقتها، وأركانها وسنتها، والخشوع فيها.

فالصلاة هي أول ما يسأل عنه العبد، وآخر وصية من النبي ﷺ لأمنه، وهي معراج للقلوب والأرواح؛ لتحلق في ملكوت السماوات، فالصلاة صلة بين العبد وربّه، تجعله موصولاً به خمس مرات أو يزيد كل يوم، فيحصل الإنسان من خلالها على شحنة إيمانية، لقلبه ونفسه وروحه، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَبْنِيْ أَقْرِبَ الصَّلَاةِ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ سورة لقمان: ١٧.

وفي الحديث: (مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ) صحيح الجامع (٥٨٦٨). حديث حسن عن عبد الله بن عمرو. فكل والد مسؤول عن أولاده، وكل راع مسؤول عن رعيته.



٥- الوصية بالأمر بالمعروف:

ثم أوصى لقمان عليه السلام ولده بعد إقامة الصلاة، بأن يكون محتسبا من أجل إصلاح البيئة التي يعيش فيها، فأوصاه بأن يأمر بالمعروف، وينهي عن المنكر، على حسب وسعه وطاقته، فهو صمام الأمان للمجتمع، فالناس تجير ما قاموا بهذا الواجب، وهو يجعل الإنسان إيجابيا أمام أخطاء الآخرين.

والأمر بالمعروف ينبغي أن يكون بالمعروف، وبضوابطه الشرعية، وقد يتعرض الفرد المحتسب للإيذاء عندما يقوم بهذا الواجب، لذلك قال لقمان عليه السلام لولده قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ سورة لقمان: ١٧.

والصبر حبس النفس على المكروه، ومنعها من الضجر والجزع عند الإيذاء، ومن أقسام الصبر، الصبر على تكاليف الدعوة، وتبليغها للناس، ومن فعل ذلك فقد أخذ نفسه بالعزيمة، ولا يقوى على ذلك إلا كبار النفوس.



٦- الوصية بحسن الخلق:

وتأتي وصية لقمان الأخيرة، بحسن الخلق، وهو ثمرة العقيدة الصحيحة، والعبادة السليمة، فكل شجرة لا بد لها من جذور وساق، وفروع وأوراق وثمار، والأخلاق هي الترجمة الحقيقية لكل عقيدة وعبادة، فجاءت وصية لقمان عليه السلام

بالنهي عن الأخلاق السيئة، المتمثلة في الكبر في قوله، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ﴿١٨﴾ سورة لقمان: ١٨.

والمقصود عدم إعراضه بوجهه عن الناس الذين يخاطبونه، أو يتحدث معهم باحتقارا إهمالا لشأنهم، أو استكبارا عليهم، والمطلوب منه عكس ذلك، بأن يكون متواضعا لين الجانب، باسطا وجهه للناس.

وأصل الصعار داء يصيب الأبل في أعناقها أو رؤوسها، فتلوي أعناقها، فشبّه حالة الإبل هذه بحالة الإنسان المتكبر، ثم أكد النهي عن التكبر بصورة أخرى، فقال ولا تمشي في الأرض مَرَحًا، أي متكبرا جبارا، مختالا معجبا في نفسه، فخورا على غيره، لأن هذا العمل يبغضه الله، فهو لا يجب كل مختال فخور.

ومن صور حسن الخلق النهي عن رفع الصوت أكثر مما يحتاج إليه السامع، فالصوت الذي لا فائدة منه، إيذاء للآخرين، فهو عمل غير إنساني لا يليق بالإنسان، وإنما هو يشبه صوت بعض الحيوانات التي ترفع صوتها، وتؤذي الآخرين، وهذا الصوت بغض إلى الله تعالى، وهو عمل مذموم.

وفي الحديث: "إِذَا سَمِعْتُمْ نُبَاحَ الْكَلَابِ، وَهَيْقَ الْحَمِيرِ مِنَ اللَّيْلِ؛ فَتَعَوَّدُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّهُمْ يَرِينَ مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَقْلُوا الْخُرُوجَ إِذَا هَدَّاتِ الْأَرْجُلُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- يَبُتُّ مِنْ خَلْقِهِ فِي لَيْلِهِ مَا يَشَاءُ، وَأَجِيفُوا الْأَبْوَابَ، وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ بَابًا إِذْ أُجِيفَ وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَغَطُّوا الْجِرَارَ، وَأَكْفُوا الْآنِيَةَ، وَأَوْكُوا الْقَرَبَ" مشكاة المصابيح (٤٢٣٢) صحيح لغيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

فهو يحذر ولده من الصور السلبية في الأخلاق، ويرغبه في الصور الحسنة
الإيجابية في حسن الخلق.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من:

﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ ۖ وَوَلَّيْنَاكَ هُمْ أُولُوا ۗ ﴾

الألب ١٨ ﴿ سورة الزمر الآية (١٨) .



(٧) قصة أصحاب الكهف دروس وعبر.

١- الفتية المؤمنة من الاضطهاد إلى الكهف.

٢- الفتية المؤمنة في معية الله وأمنه.

٣- دروس وعبر من القصة.



١- الفتية المؤمنة من الاضطهاد إلى الكهف:

قصة أصحاب الكهف قصة إيمانية عالية المستوى، فيها هداية ونور، فيها عظة وعبرة، قصتها الله علينا في سورة الكهف، ووجه الله ﷻ فيها الخطاب للنبي ﷺ وهو مضطهد في مكة، ووراء الصحابة يعانون عن التعذيب والتشريد، فأراد الله ﷻ أن يبشر نبيه وأصحابه بأنه سيجعل لهم مخرجا وفرجا، من هذا الضيق الذي يعانون منه، فساق هذه القصة العجيبة؛ لتكون موضع اهتمام وتأمل، وعظة وعبرة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ (٩)

سورة الكهف: ٩.

الكهف المغارة الواسعة في الجبل، فإذا صغر فهو غار، والرقيم لوح من الرصاص، كانت فيه أسماء الفتية مكتوبة، ليعلم من اطلع عليها أسماهم، فقصتهم عجيبة، لكن يوجد في الكون ما هو أعجب منها، مثل خلق السماوات والأرض وما بينها.

هؤلاء كانوا فتية في سن الشباب والقوة والعطاء، آمنوا بالله الواحد الأحد، الخالق الرازق المدبر، في وسط قوم كافرين، لا يؤمنون بوجود الله ﷻ وتوحيده، فماذا يصنعون، لجأوا إلى الكهف هرباً من قومهم، وسألوا الله الرحمة والهداية والفرج.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ

أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ سورة الكهف: ١٠.

فألقي الله ﷻ عليهم النوم عدداً من السنين، وهي سنوات معدودات عند الله ﷻ وإن كان لا يعلمها أصحابها، أو المعاصرون لهم، أو من جاء بعدهم إلا ما قصه الله ﷻ علينا في القرآن الكريم.

وآوى الفتية إلى الكهف، أي جعلوه مأوى لهم، وسألوا الله أن يرشدهم إلى ما يقربهم منه، وينالوا حظهم من الرشد والتوفيق.

أيقظهم الله من النوم الطويل، والسبات العميق، فتلك آية ومعجزة من الله ﷻ فأَي الفريقين أضبط لمدة لبسهم ومكثهم في الغار، المؤمنون أم الكافرون؟.

وأخبر الله ﷻ نبيه بهذه القصة وأصحابها بصدق، فهم أهل إيمان وتوحيد، وثبتهم الله ﷻ على هذا الإيمان، وأنقذهم من أهل الكفر في عصرهم، فكذلك الحال بالنسبة للمسلمين والمشركين، فلا بد أن تكون العاقبة حتماً للمسلمين، وقد جاءت الأحداث فيما بعد بصدق ذلك.

٢- الفتية المؤمنة في معية الله وأمنه:

هؤلاء الفتية حظو بمعية الله ﷻ وتوفيقه وحفظه، فألهمهم الله ﷻ الصبر، حينما واجهوا ملكهم دقيانوس، حين رفضوا الوثنية وعبادة الأصنام، فعصمهم الله ﷻ من القتل أو التعذيب، أو الجور والظلم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى

سورة الكهف: ١٣. ﴿١٣﴾

لقد صرح هؤلاء الفتية بما كانوا عليه قومهم من انحراف في العقيدة، وعبادتهم للأصنام، وليس معهم من حجة أو دليل أو برهان، على صحة ما يزعمون، فقولهم هذا كذب وافتراء لا محالة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمُ

بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ سورة الكهف: ١٥.

لقد فاصلوا قومهم بالتوحيد، ففارقوهم بالفرار إلى الكهف، يعبدون الله ﷻ فيه، ويجعلونه مأوى لهم، سائلين الله ﷻ من رزقه وفضله ورحمته، وأن يجعل لهم مخرجاً من هذا الضيق الذي هم فيه.

ومن آيات الله ﷻ في القصة أن الشمس عند شروقها تميل وتعديل عنهم وتركهم، فلا تؤذيهم بحرهما، كما أنهم كانوا في متسع من الكهف، ينالهم برد الريح،

ونسيم الهواء، وهذا كله من دلائل قدرة الله ﷻ ولطفه بهم، فهو الذي هداهم إلى الحق، ولولا ذلك لم يبتدوا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لِيَهْدِيَ اللَّهُ الْبَلَّغِينَ وَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ سورة الكهف: ١٧.

ومن تخلت عنه عناية الله ﷻ وهدايته وتوفيقه فلن تجده من يرشده، وسوف يصيبه الذل والخذلان، وعدم التوفيق في دنياه وآخرته.

وحينما تدخل عليهم أو تراهم تجدهم كالأيقاظ المتنبهون، لأنهم يتقبلون ذات اليمين وذات الشمال، وحتى لا تأكل الأرض جنوبهم، بينما هم في الحقيقة نيام ركود، وكلبهم أيضا كان على حالهم من النوم، بينما من يراه، يظن أنه منتبه يقظ فكان ينام على عتبة الكهف، ومن يرى هذا المشهد يأخذه رهبة وفرع وخوف، وقد منحهم الله هذه الخصيصة، حتى لا يدخل عليهم أحد؛ فينكشف أمرهم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلْتُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَسِيطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٨﴾ سورة الكهف: ١٨.

ولقد بعثهم الله ﷻ من هذه النومة الطويلة، ليكون بينهم تساؤل وتنازع واختلاف في مدة مكثهم داخل الغار، كم مر عليهم منذ دخلوهم هذا الغار، كانت إجابتهم هم يوما أو بعض يوم، لأنهم دخلوا في أول النهار، وبعثهم الله ﷻ آخر

النهار، ويبدوا أن نفوسهم قد شعرت بأنهم ناموا أكثر من ذلك، فأسندوا معرفة المدة إلى الله ﷻ وقيل لأنهم رأوا أظفارهم وأشعارهم قد طالت جدا عما كانوا عليه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ سورة الكهف: ١٩.

فأرسلوا واحدا منهم إلى المدينة التي خرجوا منها، واسمها دقسوس وهي اليوم طرسوس، ومعه عملة من الفضة ليشتري لهم طعاما طيبا حلالا، ذبح وذكر اسم الله عليه، ولأن عامة أهل بلدهم كانوا كفارا، فمن ذهب فليكن ذكيا، وليدقق النظر في من يتعامل معهم في شراء الطعام، ولا يخبرن أحدا منهم بمكانكم، فهم ظنوا أنهم لا يزالون يعيشون في عهد الملك السابق.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ سورة الكهف: ٢٠.

إن هؤلاء القوم الذين تركناهم على الكفر لو علموا بمكانكم، واطلعوا على أمركم، فلن تسلموا منهم، فيما أن يقتلوكم رجما بالحجارة، وإما يردوكم إلى دينهم، وإذا وقعتم في ذلك فلن تفلحوا في الدنيا ولا في الآخرة.

وكما أن الله ﷻ أنامهم هذه المدة الطويلة، فهو الذي بعثهم، وأطلع الناس عليهم، ليكون درسا لقومهم في الإيثار بالبعث بعد الموت، فالذي أنامهم هذه المدة

الطويلة ثم أحياهم وبعثهم وأطلع الناس على أمرهم، قادر على أن يبعث الخلائق كلها بعد موتها، فالقيامة حق لا شك فيها.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَن وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سورة الكهف: ٢١.

ولقد تنازع المسلمون والمشركون في شأنهم، فقال المسلمون بنبي عليهم مسجدا، وقال المشركون بنبي عليهم بنيانا، وقيل محل الخلاف هو البعث، قال أصحاب الحل والعقد المطاعون منهم والرؤساء: ابنوا عليهم مسجدا، فكتبوا لوحا من الرخام عليه أسماءهم، وعلقوه على باب الغار أو الكهف، حتى يعرفهم ويعرف قصتهم الأجيال اللاحقة فيما بعد.

اختلف المتنازعون حول عدد أصحاب الكهف، فقال بعضهم من فرق النصارى هم ثلاثة، وقال بعضهم هم خمسة، وقال بعضهم هم سبعة، وهذا كله ظنا غير يقين.

وفي الحقيقة لا يعلم عددهم إلا قليل من الناس، من أجل ذلك يا محمد ﷺ لا تجادل مع أهل الكتاب في عددهم، لأن ما عندهم من العلم في ذلك ليس يقينا من القول، ولا تستفت أحدا منهم في عددهم، فالعلم اليقيني الحقيقي هو عند الله ﷻ وهو الذي أعطاك إياه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ سورة الكهف: ٢٢.

وعقب الله على القصة بقوله (ولا تقولن) لأن مشركي قريش قد تواصلوا مع اليهود في معرفة بعض الأسئلة التي يطرحونها على الرسول ﷺ ليخرجوه، فوعدهم ولم يقل إن شاء الله، وتأخر الوحي قليلا، فكان الدرس الإلهي للنبي ﷺ والأمة من بعده، أن يقول عند كل شيء مستقبلي: إن شاء الله، وكذلك يمكن أن تقولها بعد فترة من الكلام.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادَّكَرَ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشْدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ سورة الكهف: ٢٣ - ٢٤.

وقد أعطى الله نبيه هذه القصة وغيرها من قصص الأنبياء، ما هو أوضح في الحجة وأقرب إلى الرشد والصواب.

تكلم الناس في المدة التي مكثها أهل الكهف في الغار، فقالوا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا، وهي فرق السنة الشمسية من القمرية، وطلب الله من نبيه أن يخبرهم بأن المدة التي قالها أهل الكتاب مختلف فيها، والله وحده هو الذي يعطي الإنسان المعرفة الحقيقية، فهو يسمع ويصبر بما أعطاه الله ﷻ من علم ومواهب ونعم، وليس لأحد في الكون من دون الله ﷻ من ناصر، وليس لأحد أن يعلن أنه شريك لله في ملكه، فهو رد على المشركين الذي فرّ منهم الفتية ولجأوا إلى الكهف.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ ٢٥ ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْثُوا لَهُ، غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ، وَأَسْمَعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ، مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ ٢٦ ﴿ سورة الكهف: ٢٥-٢٦.

فتلتقي نهاية القصة مع بدايتها، حيث فرّ الفتية بإيمانهم وتوحيدهم لله من الكفر والشرك والضلال، إلى هذا الكهف الذي أصبح معلماً لقصتهم، واسماً لسورة من سور القرآن.

وختم القصة يؤكد أن الله وحده هو الولي والناصر، والمنقذ للشباب من الاضطهاد، وأن الله ﷻ ليس معه إله آخر شريك له، سواء كان من البشر أو الحجر، فهذه من ضلالت الناس، والله لم يأمر بها، وسوف يحاسب كل إنسان على قوله وعمله في يوم آت قريب لا مفر فيه.



٣- دروس وعبر من قصة أصحاب الكهف:

١- إن قصة أصحاب الكهف وما فيها من تفاصيل قصة عجيبة وغريبة، وآية من آيات الله، التي تدل على طلاقة القدرة الإلهية المطلقة في كل شيء، ومع ذلك يوجد في الكون ما هو أعجب منها بكثير، لمن طلب الهداية، أو كان له عقل يفكر، أو قلب يعي.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَخَلِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٥٧ ﴿ سورة غافر: ٥٧.

فالكون كتاب مفتوح لمن أراد أن يتعرف على الله ﷻ من خلال مخلوقاته، فيزداد إيمانا ويقينا بعظمة الله ﷻ وقدرته.

٢- قصة أصحاب الكهف هي قصة الإيمان في أعلى صورها، فكيف يواجه عدد قليل مؤمنون بالله حاكما جبارا مشركا، معه إمكانات دولة، ويعجز عن الوصول لهم، أو تغيير عقيدتهم، أو القضاء عليهم، ويموت ذلك الحاكم وتمضي السنون، ويخرج الفتية من الكهف بإيمانهم، فعاشوا على التوحيد، وماتوا على ذلك، وخلد الله ﷻ قصتهم بأن قصها على نبيه في القرآن الكريم، لأن قصة الإيمان سوف تتكرر عبر التاريخ، فتبعث الأمل في النفوس، بأن الله ﷻ جاعل للمؤمنين فرجا من الضيق، ومخرجا من كل هم.

٣- إن قصة أصحاب الكهف فيها من عجائب قدرة الله ﷻ وتدبيره، فضرب على آذانهم حتى لا يسمعوا أصوات من حولهم، وجعل الشمس عند شروقها لا تتسلط عليهم فيؤذيهم حرها، وجعلهم يتقلبون في نومهم على جنوبهم ذات اليمين وذات الشمال، حتى لا تأكل الأرض أجسادهم، وجعل لهم هيبة وهم نيام، بحيث من يراهم يظنهم أيقاظا، وهم في الحقيقة في نوم عميق، في مدة طويلة، بلغت ثلاثمائة وتسع من السنوات، وجعل كلبهم وهو يحرسهم في صورة المتيقظ المنتبه لما حوله من أخطار أو هجوم، وجعل من يراهم على صورتهم هذه يمتلئ خوفا، ويهرب منهم فرارا من الرعب.

٤- في بعثهم بعد نومهم هذه المدة الطويلة، الرد على المشركين والدهرين ومنكري البعث، فكما أن الله ﷻ بعثهم بعد هذه المدة الطويلة، فهو قادر على بعث جميع

الخلائق للحساب يوم القيامة، والقرآن الكريم لا يركز على مدة النوم والمكث في الغار، قدر ما يركز على القضية الكبرى، وهي الإيمان بالله القار على الموت والإحياء.

٥- الحرص والحذر والذكاء في التعامل مع الموقف الصعب عند غياب المعلومة، فهم لا يدرون ماذا يدور في المجتمع من الأحداث، لكنهم يتعاملون بحذر حتى لا ينكشف أمرهم، فاختاروا أحدهم ليشتري لهم طعاما، وقدموا له عدة نصائح مهمة، وهي أن يبحث عن الطعام الطيب الحلال من الذبيحة التي ذكر اسم الله عليها، وليكن خفيفا ولطيفا في تعامله مع البائعين عند الشراء، فلا يفاضل أو يناقش، أو يجادل حتى لا يكشف أمرهم عند القوم، وليذهب وليعد في خفاء وسرية تامة، حتى لا يشعر به أحد من أعوان هذا الحاكم الظالم.

فهم كانوا أصحاب فطنة وذكاء، وأصحاب فهم لطبيعة الموقف الذي يعيشونه، ولو انكشف أمرهم فلن يسلموا من عواقبه، إما بالقتل أو إجبارهم على الردة، وهم قد فروا من ذلك، فكيف يسعون إلى هذه النهاية بأيديهم وأقدامهم.

٦- هناك موضوعات صغيرة جانبية، لا ينبغي أن ينشغل بها المسلم الداعية الفقيه، وهي المسائل التي علمها لا يفيد، والجهل بها لا يضر، فلا بد من ميزان الأولويات.

فالمسلم الداعية الفقيه هو الذي يعطي القضية من الأهمية مثل ما أعطها القرآن الكريم، من حيث الإجمال والتفصيل والسكوت، فمعرفة عدد أصحاب الكهف لا ينبغي عليه عمل شرعي، إنما القصة فيها جوانب أخرى من الدروس والعبر ما يحتاج إلى اهتمام وعناية.

٧- يقدم المسلم مشيئة الله على كل شيء يريد أن يفعله، لأن الأمور تمضي- بقدر الله، فعليه أن يباشر الأسباب المادية، ونتائج الأمور يكلها إلى الله ﷻ من حيث المشيئة والإرادة، ويدعو الله ﷻ أن يلهمه الحق الصواب، وأن يكتب له التوفيق والسداد، فهو وحده القادر على ذلك.

٨- إذا نزلت بالمسلم نازلة أو شدة أو بلاء، فليهرع إلى الله ﷻ وإلى كتابه، وإلى قصة أصحاب الكهف، فسألوا الله الرحمة، وأن يهباً لهم مخرجاً مما هم فيه، وقد استجاب الله ﷻ لهم ذلك.

فهو الذي أرشدهم إلى اللجوء إلى الكهف، وهو الذي نشر عليهم الرحمة، وهبى لهم المخرج، الذي لم يكن في حسابهم، فليتعلم المسلم ذلك، وليكن على يقين بأن وراء كل شدة فرجا، ووراء كل كرب مخرجاً، وبعد كل عسير يسراً، وخلف كل بلاء نصراً وتمكيناً.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من:

﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا

الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ سورة الزمر الآية (١٨).



(٨) قصة صاحب الجنتين دروس وعبر.

١- حوار صاحب الجنتين مع صاحبه.

٢- نتيجة المحاوره وثمرتها.

٣- دروس وعبر من القصة.



هذه القصة وقعت أحداثها في بني إسرائيل، كان هناك ملك توفى وترك ولدين، فاتخذ أحدهما الجنان والقصور، وكان الآخر زاهدا في الدنيا، فكان إذا عمل أخوه شيئا من زينة الدنيا، أخذ مثل ذلك فقدمه لآخرته، حتى نفذ ماله، فضر بهما الله مثلا للكافر الذي أبطرته النعمة، والمؤمن الشاكر لنعمة ربه.

وكذلك الحوار الذي دار بينهما، وما صدر عنهما من الأقوال والأفعال، ونتيجة ذلك في العاجل والآجل، يعتبر ويتعظ بها كل من قرأ القصة، ووقف معها موقف المتأمل والمتدبر لعواقب الأمور.

والقرآن الكريم لا يركز على اسم الرجلين، وفي أي زمان، وفي أي مكان، فهذا ليس صلب الموضوع الرئيسي- للقصة، وإنما يركز على أحداث القصة والدروس المستفادة منها.



١- حوار صاحب الجنتين مع صاحبه:

فقال الله لنبيه محمد ﷺ اذكر لمشركي قريش هذين المثلين، فكان للأول منهما وهو الكافر، بستانين حسنين من أعناب، وحول هذين البستانين نخيل مطيف بهما، وبين هذه الأعناب زروع من الخضروات، ففيهما من كل الثمرات، وأغلب ما يحتاجه الإنسان، وقد جمع البستانان بين أشرف الأشجار والزروع والثمار، ففيهما حسن المنظر وبهائه، وتنوع الزروع والثمار، والاستفادة من جميع الأرض، بصورة إقتصادية.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ۝٣٢﴾ سورة الكهف: ٣٢.

فكيف كان ثمار هذه الأشجار والزروع؟ وكيف كانت تروى؟ فكل واحدة منهما آتت ثمارها كاملة، ولم تنقص منه شيئاً، وليس فيها علة من المرض، أو خلل في الزراعة والرعاية. قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكُلْهُمَا وَلَمْ تَطْعِمِي مِنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا ۝٣٣﴾ سورة الكهف: ٣٣.

فالأنهار في جوانبها سارحة غزيرة كثيرة، وهذا الوصف يدل على الجمال والكمال، فحينما يمشي صاحب الحديقتين بين الزروع والثمار والخضرة، وعلى ضفاف النهر الرقاق، ورائحة الثمار التي طابت يفوح في الهواء، فأى متعة أكثر من ذلك؟.

وكان لصاحب الجنتين مال كثير، نتيجة طبيعية لكثرة ما يملك من الثمار الناتجة من الجنتين، وقد سلمت الحديقتين من الأمراض التي تصيب الزروع والثمار، فأعجب بنتيجة المحصول والمال العائد، فقال لصاحبه المؤمن وهو يراجعه الكلام ويجاوبه، ومغتترا بحاله من الغنى والمال والثراء، والعبيد والخدم والعمال، أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا، فافتخر بأمر خارجي، وليس من فضيلة نفسية، أو معنوية، أو خلقية. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ﴿٣٤﴾ سورة الكهف: ٣٤.

ودخل جنته وهو ظالم لنفسه، وكان قد أخذ أخاه معه، فظلم نفسه في قوله وفعله، فأنكر فناء الدنيا، وفناء جنتيه، وأنكر البعث والجزاء، فحبه للدنيا وسيطرتها على عقله وقلبه جعلته ينكر الثوابت، مثل فناء الدنيا وزوالها، وبعث الناس وحسابهم، ولو فرضنا أن البعث حق كما تزعم، فسوف أعطى في الآخرة أفضل مما أعطيت في الدنيا وأوفى وأجزل، كما يعتقد كثير من الجهلاء.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ ﴿٣٦﴾ سورة الكهف: ٣٥ - ٣٦.

ويرد عليه صاحبه بلغة الحوار المتبادل بين الطرفين من باب النصيحة والتذكير، إن كلامك السابق هذا يدل على كفرك بالله الذي خلقك، وخلق أباك آدم من تراب، خلقك من نطفة، ومررت بمراحل خلق الإنسان، فلا ينبغي أن تتكبر

وتكفر بهذا الإله الذي خلقك، ثم جعل رجلا سويا، أفلا تتعظ من ذلك وتعود إلى عقلك وإلى ربك؟.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ

سَوَّكَ رَجُلًا ۗ ﴿٣٧﴾ سورة الكهف: ٣٧.

أما بخصوصي أنا فيأني أو من بالله ربي، الذي خلقتني وسواني، وإليه مرجعي ومآبي، فلا أستطيع أن أعتقد أن هناك إلها مع الله الواحد الأحد، الخالق الرازق.

وهذا يقوله معتقدا إياه من قلبه، ومؤمنا به في معتقده، ومقتنعا به في عقله، وقاله ليعلمه بحاله مع ربه على وجه الشكر والحمد والثناء، لمن أسدى إليه كل النعم. قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَنَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۗ ﴿٣٨﴾ سورة الكهف: ٣٨.

فنعمة الإيثار والشكر مع قلة المال والولد نعمة كبيرة، تجعله يشعر بالراحة والسعادة، وأما ما عداها من نعم فهو معرض للزوال، والحساب والنكال، وما عند الله هو خير وأبقى، وما يرجى من خيره وإحسانه أفضل من جميع الدنيا التي يتنافس عليها المتنافسون.

يقول المؤمن مخاطبا صاحبه، ومحرضا إياه على العودة إلى الإيمان والصواب، هلا إذا دخلت جنتك نسبت هذه النعمة إلى المنعم بها، وقلت: (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) فيحتمى بستانه من عين نفسه وعين الآخرين، وأن الذي أعطاه هذه النعمة هو الله ﷻ صاحب الحول والطول، فإذا كنت ترانى أقل منك مالا وولدا، فهذا من

قدر الله ﷻ وحكمته، فهو الذي يوزع الأرزاق على الناس، وليس لها أي موازين دنيوية، فمن وسع الله عليه، أو قتر عليه، ليس دليلاً على الرضا أو السخط، وإنما هو أمر الله ﷻ وقسمته.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرْنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَا لَأُؤْتِيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَنُصِيعَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۝٤١﴾ سورة الكهف: ٣٩-٤١.

٢- نتيجة المحاوراة وثمرتها:

وضح المسلم لصاحبه الكافر أن الله ﷻ قادر على أن يؤتیه خيراً من جنتك، التي طغيت بسببها وغرتك، أما أنت بسبب كفرك وعنادك وتمردك فقد يرسل الله ﷻ على جنتك عذاباً من السماء في صورة ما، من مطر شديد، أو ريح شديدة، أو نارا من السماء، فتتحول هذه الجنة الخضراء المثمرة إلى أرضى ملساء، قد تساقط ثمارها، واقتلعت أشجارها من جذورها، ويتغير حالها إلى أسوأ حال وشر مآل، وفلا وقع ذلك فقد غرق زرعها، وزال نفعها.

وقد يذهب الله ﷻ ماء هذا النهر فيجعله غائراً في الأرض، لا يستطيع أحد الوصول إلي،ه حتى بالمعاول وأدوات الحفر، فلا تجد له أثراً تستطيع أن تطلبه به، وبالتالي تفقد الحديقة الماء الذي هو سر الحياة في الزروع والأشجار، فيتلف كل

شيء أمام عينيك، ولا تستطيع إنقاذه، وهذا لون من العذاب الدنيوي المادي المباشر.

ولقد دعا صاحبه المؤمن عليه، غضبا لربه، لأنها كانت سبب غروره وطغيانه، فلعله يرجع ويعود إلى ربه، ويبصر عاقبة أمره، ونهايته الأليمة.

ولقد استجاب الله لدعوة المؤمن، فأحاط العذاب بالبستان، فأتلف الأشجار والثمار، وجميع الزروع التي في بستانه، فأصيب بالقلق والاضطراب، وأخذ يضرب يدا على يد، كدليل على الندم بعد فوات الأوان.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ ۖ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا بَلِيغِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾

سورة الكهف: ٤٢ - ٤٣.

فضاع كل ما أنفقه عليها من مال وجهد، فأصبحت الأرض خالية من كل شيء نافع، فكل شيء فيها تدمر، وأصبحت أثرا بعد عين، حينئذ ندم حيث لا ينفع الندم، فندم على شركه، وعلى غروره وكبره واستعلائه، وأشره وبطوره، وماذا ينفعه الندم وقد فات منه ما كان يفتخر به، فما نفعه كثرة الأولاد، ولا ضخامة المال، وما نفعته نفسه التي سار خلف هواها، واتبع وساوس شيطانه، ولن ينفعه أي شيء أمام قضاء الله ﷻ والمبرم، وقدره الذي لا يرد، أو أمام عذاب الله الأخرى الذي ليس له دافع.

في هذه الحالة السابقة، التي أنزل الله فيها العقوبة على من بغى وطغى، وخرج عن منهج الله ﷻ وآثر الحياة الدنيا الفانية، على الآخرة الباقية، حينئذ يتولى الله ﷻ أمر الخلائق، بالحساب والثواب والعقاب، فهو ولي لمن أطاعه، وهو خصم لمن خالف أمره ونهيه، فالله ﷻ هو خير من يرجى منه الثواب والأجر، والفضل والكرم، ومن لم يؤمن بالله ويتولاه فقد خسر دينه ودنياه، وختم الله الآية والقصة بقوله، قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقَابًا ﴾ سورة الكهف: ٤٤.

أي أن عاقبة طاعة الله ﷻ خير لا محالة، في الدنيا والآخرة، وعاقبة من لم يتخذ الله ﷻ ولياً شراً لا محالة، في الدنيا والآخرة، وخسر- نفسه فيهما، وذلك هو الخسران المبين.



٣- دروس وعبر من قصة صاحب الجنتين:

- ١- هذه القصة مضرب لمثل تصويري لرجلين، أحدهما كافر جاحد، والثاني مؤمن شاكراً، فبينت حال كل واحد منهما أمام نعم الله ﷻ عليه.
- فأما الأول الكافر: فألتهه النعم عن المنعم، وألتهه دنياه عن آخرته، فعصى- الله فيما أعطاه إياه، فلحقت بالعقوبة العاجلة في الدنيا، حيث حرمة الله مما يجب، وما كان سبباً في فخره وتكبره وعناده، وخروجه عن منهج الله ﷻ.

وأما الثاني المؤمن: فكان أقل من الأول في العطاء، لكنه كان شاكرًا للنعم الله عليه، فأدامها الله عليه في الدنيا، غير ما ينتظره من الثواب الآخروي.

٢- إن القرآن الكريم يذكر المسلم بقصة يأخذ منها أجمل ما فيها، فالمزارع المطيع يتعلم من القصة كيفية الزراعة بصورة اقتصادية لأرضه، كيف يستثمر مساحتها بأقل جهد مبذول، فيزرع أرضه عنبًا، ويحيطها من جميع جوانبها بالنخيل، ويزرع بين أشجار العنب ما يطيب له من الزروع، حسب طبيعة الأرض، والشمس والبيئة.

ومن ثم فليس هناك إهدار في الأرض أو الجهد، ويحقق أفضل إنتاج ومحصول، يغني نفسه وأمته عن الاستيراد، خاصة أصبحت الحبوب الآن سلعا تلعب دورها في القرارات الاقتصادية والسياسية.

٣- إن الماء سر الحياة للإنسان والحيوان والنبات، فحيثما وجد الماء وجدت الحياة حوله، مثل ماء زمزم قديما، ومثل نهر النيل في مصر قديما وحديثا، فقامت على ضفافه حضارات متعاقبة، ومثل دجلة والفرات في العراق.

فمياه الأنهار والآبار والعيون والأمطار، تعتمد عليها الدول في الزراعة والإنتاج الحيواني، وأصبحت المعارك والحروب تقام من أجل المياه، ومن يملك التحكم في مصادر المياه ومنابعها، يملك القرار في الدول التي تستفيد من هذه المياه.

٤- على المسلم أن يكون صادقاً مع ربه وفيأ له، فإذا كان الله ﷻ قد أعطاه صحة ومالا وأولادا، ودفع عنه الأمراض والنوازل والابتلاءات، فينبغي له أن يشكر الله ﷻ على هذه النعم، حتى تدوم وتستمر.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ سورة إبراهيم: ٧. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ سورة الرحمن: ٦٠.

وعلى المسلم أن يكون متواضعاً، فلا يتكبر على الناس؛ لأن الله ﷻ قد وسع عليه في الرزق، فهذا ليس مهارة منه، وإنما هو توفيق من الله ﷻ وليس سعة الرزق دليل على رضا الله ومحبته، وإنما هي ابتلاء، شأنه شأن من ضيق عليه في رزقه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴾ سورة الفجر: ١٥-١٦.

فلا يدعو كثرة المال والأولاد إلى الأشر والبطر، والجحود والعصيان، أو الكفر والفسوق والنكران، ولا يحسب أحد أن مقاييس الناس الدنيوية هي مقاييس الآخرة عن الله ﷻ يوم القيامة.

٥- النصيحة الخالصة المطلوبة من كل مسلم بضوابطها الشرعية، وثمرتها وتناجها حسب قبول الإنسان لها أو رفضها، وما أكثر الناصحين، وما أقل المتصححين، فجميع الأنبياء كانوا نصحاء لقومهم، كما حكى القرآن الكريم، قَالَ

تَعَالَى: ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقَوِرَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ٧٩].

وكان عمر بن الخطاب يقول: (رحم الله امرأً أهدي إلي عيوبي).

٦- يستحب للمسلم عندما يرى نعم الله ﷻ عليه، من صحة وزوجة صالحة، وأولاد بررة، ومال حلال طيب، أن يقول (باسم الله ما شاء الله) فالله ﷻ هو المنعم المتفضل بها، وهو الحافظ لها من الزوال، وهو الذي قدرها لصاحبها، وبذلك يحفظها من الحسد، ويدعها أمانة عند الله ﷻ فيحفظها له، ويستودع الله ﷻ كل شيء ويخصه، ويسأل الله ﷻ أن يحفظها من كل مكروه وسوء.

ومن ترك كل ما عنده وديعة عند الله ﷻ فإن الله يحفظها له من شياطين الجن والانس، ويحميها له من التلف والخسران.

٧- الحذر من الذنوب والمعاصي، والأوزار والآثار، فهي من أقوى الأسباب التي تؤدي إلى زوال النعم واضمحلالها، فالعذاب الذي نزل من السماء على البستان فأهلكه ودمره، وقضى عليه تماماً فلم يبق منه شيء ذا قيمة أو نافع، إنما كان سبب ذلك كفر صاحبه بالله ﷻ وانكاره، وجحوده للمنعمة المتفضل.

وكذلك ما ينزل بالأمم والشعوب والدول من أوبئة وأمراض، وجفاف للماء، وقحط وحرمان في الطعام والشراء، والزروع والشمار، كل ذلك إنما سببه غياب العدل والمساواة، وشيوع الظلم، وانتشار الفساد، والخروج عن الفطرة وعن

منهج الله، قَالَ تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٤١﴾ سورة الروم: ٤١.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَشْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿٦١﴾ سورة النحل: ٦١.

٨- إن الله ﷻ يعطي للعبد فرصا كثيرة، ليتوب إليه، ويستغفره من ذنوبه، ويصلح ما أفسده، فإذا أضعاف الإنسان هذه الفرص، ونزلت به العقوبة في الدنيا، فلا يلومن إلا نفسه، ولا تنفعه أمواله وأولاده، ولا أتباعه وأعدائه.

أما العبد الطائع المنيب إلى ربه، الذي اتخذ الله وليا له، فإن الله ﷻ يحفظه ويحفظ له ما عنده، وينفع بها في الدنيا في الحلال، ويكسب ثمرة ذلك في الآخرة أيضا من الأجر والثواب، ومرضاة الله وجنته، فما تمتع الأشرار بشيء إلا وتمتع بمثله الأخيار، وزادوا عليه تقوى الله ﷻ.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من:

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْأُولُوا

الْأَلْبَابِ﴾ ﴿١٨﴾ سورة الزمر الآية (١٨).



(٩) قصة أصحاب الجنة وروس وعبر.

- ١- حقيقة الابتلاء.
- ٢- قصة أصحاب الجنة.
- ٣- تغيير النية سبب لتغير الأحوال.
- ٤- دروس وعبر من قصة أصحاب الجنة.



١- حقيقة الابتلاء:

يعتقد كثير من الناس أن الابتلاء يكون بالنوازل والخطوب؛ والنقص والحرمان، والفقر والمرض، والشدائد والكروب. وهذا فهم ضيق لحصر الابتلاء في جانب واحد دون باقي الجوانب المتعلقة بالموضوع.

فقد يكون الابتلاء بالعطاء والمنح، وقد يكون بوفرة المال، وكثرة العيال، وقد يكون بكثرة النعم واتساعها، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ

سورة الأنبياء الآية (٣٥).

ويتضح هذا المعنى من خلال هذه القصة من قصص القرآن الكريم، فيها عظة وعبرة، فيها هداية ونور، تبرز لنا عدة جوانب مهمة يحتاجها المسلم اليوم، ليتعلم من أنوار التنزيل ما ينير بصيرته، ومن نهاية السابقين ما يكون له عظة وعبرة،



فالعاقل من اتعظ بغيره.

٢- قصة أصحاب الجنة:

وقصة أصحاب الجنة التي حكاها القرآن الكريم في سورة القلم، تحكى لنا درسا من دروس التاريخ، فيها عظة وعبرة، إنهم فتية عاشوا في أرض اليمن، خلف لهم أبوهم حديقة كبيرة، وارفة الظلال، كثيرة الثمار، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، ذلك لأن أباهم كان يسير في تعامله مع ثمار هذه الحديقة سيرة حسنة، فيرد ما زاد عن حاجته وأولاده إلى الفقراء والمساكين، فيؤدى حق الله ﷻ في هذه الحديقة إلى أصحابه كما أمر القرآن الكريم.

في قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿١٤١﴾ سورة الأنعام الآية (١٤١).

فواهب النعم هو الله ﷻ وشكر النعم يكون من جنسها، حتى تدوم وتستقر نعم الله عليه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ﴿٧﴾ سورة إبراهيم الآية (٧).

فكان هذا الأب يمضى بهذه السيرة الحسنة مع الفقراء والمساكين، فاستمرت وتوالت نعم الله عليه، لكن أبناءه لم يكونوا على هذه السيرة، فغيروا مسيرة أبيهم وستته ففكروا ودبروا وقرروا أن يقطعوا الثمار ليلا، لئلا يعطوا الفقراء حقهم، وظنوا أنهم بعملهم هذا يوفر المال الكثير، والربح الوفير، فاتهموا أباهم بالسفه في الإنفاق، فهو لا يلقي بالا بمستقبلهم، فلما غيروا نيتهم وسيرة أبيهم غير الله حال بستانهم، فأرسل الله عليه طائفا من قبله فدمره وأحرقه، فلما رأوا هذا المشهد أمامهم ظنوا أنهم أخطؤوا الطريق، لكنها الحقيقة المؤلمة، والعقوبة الصارمة.

ويحكي القرآن الكريم ذلك كله في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أَعْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا يَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ قَدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

سورة القلم الآيات (٢٧-٢٧).



٣- تغيير النية سبب لتغيير الأحوال:

إنها العقوبة الإلهية لما غيروا نيتهم وسيرة أبيهم غير الله حالهم من النعم إلى النقم، قال تعالى: ﴿ إِنْ آتَىٰ اللَّهُ مَا يَغَيِّرُ مَا يَبْقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۖ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۗ وَمَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَّالٍ ﴿١١﴾ ﴾ سورة الرعد الآية (١١).

يقول أحد المفسرين: إن الله لا يغير ما بقوم من الكروب، حتى يغيروا ما بأنفسهم من الذنوب، فلا يكون التغيير إلا بعد التغيير.

لقد كان الجزاء من جنس العمل، فلما خالفوا عادة أبيهم مع الفقراء خالف الله عادته معهم في الكرم والعطاء قال تعالى: ﴿ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۗ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۗ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۗ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ سورة فاطر الآية (٤٣).

إن تغيير النية والعزم على التطبيق؛ كان سببا في حلول النقم ووقوع العذاب عليهم.

إن الإصرار على المعصية سبيل الخراب وفقدان النعم، ونزول النقم، وهذه صورة من صور العذاب الدنيوي، فكيف بالعذاب الأخروي الذي ينتظر المخالفين. قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ سورة القلم الآية (٣٣).

لقد أحبوا المال أكثر من حبهم لله وأوامره، فعذبهم الله بأموالهم حينما حرمهم منها، فمن أحب شيئاً غير الله عذبه الله به، في الدنيا والآخرة، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ ﴿٣٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٣٧﴾﴾ سورة القلم الآيتان (٢٦-٢٧).

إن الفتنة يعرفها العقلاء قبل أن تقع فيتحاشون الوقوع فيها ويبعدون عن أسبابها، أما الأغبياء فلا يعرفون الفتنة إلا بعد وقوعها وحلولها: قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسْمِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا بُولَاقَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ سورة القلم الآيات (٢٨-٣١).

فما حلت عقوبة إلا بمعصية، وما رفعت عن الناس إلا بتوبة، وهل بعد منع الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام حقهم من مال الله ﷻ ذنب، فيا ليت الأثرياء البخلاء أن يتعظوا بغيرهم قبل أن يفاجئوا بزوال النعم، أو نزول المنية فيحاسب على ما جمع، ويعاقب على ما قصر. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ سورة ق الآية (٣٧).

لقد تجاوزوا حدودهم حينما تعلقوا بحب المال، وآثروا أنفسهم على الفقراء والمساكين، وبخلوا عليهم بما أعطاهم الله إياه، فليس لهم إلا مباشرة السبب، والمعطي الحقيقي إنما هو الله ﷻ.

وإذا كانت المعصية هي التي تسببت في العقوبة بحلول النقم، فقد قال النبي ﷺ: "إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه" الحديث أخرجه الإمام الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي ٤٩٣/١ عن ثوبان رضي الله عنه.

إن التوبة النصوح تمحو ما مضى، فمراجعة النفس بعد وقوعها في الخطأ، وندمها على ما قدمت، هو لون من التوبة التي يرفع بها البلاء.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَمُونَ ﴾ (٣٠) قَالُوا يَا بُولَاقُ إِنَّا كُنَّا طَائِفِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِمَّا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ سورة القلم الآيات (٣٠-٣٢).



٤- دروس وعبر من قصة أصحاب الجنة:

١- أن المال كله ابتلاء فليكن العبد حذرا في التعامل معه، حتى لا يقع في شركه. قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (٧) سورة الكهف الآية (٧).

٢- إن المالك الحقيقي للمال هو الله ﷻ والذي يملك ويعطى، وهو قادر على أن يمنع ويحرم. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ ﴾ (٣٣) سورة النور الآية (٣٣).

٣- إن الله ﷻ له طلاقة القدرة بجنود لا نعلمها، فجنوده كثيرة جدا من حيث لا يدري الإنسان، ولا يعلمها إلا هو. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ (٣١) سورة المدثر الآية (٣١).

٤- إن تغيير النية الصالحة يؤدي إلى نزول العقوبة الإلهية من الله ﷻ. قَالَ تَعَالَى:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

﴿٤١﴾ سورة الروم الآية (٤١).

٥- إن ارتكاب المعاصي والإصرار عليها سبب رئيسي- في منع الرزق، ونزول

النقم من الله ﷻ. وفي الحديث قال ﷺ: "إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه".

الحديث ذكره الإمام المنذري في الترهيب والترهيب ٢٨٩ / ٣ إسناده حسن، عن ثوبان ؓ.

٦- إن مراجعة النفس بعد الخطأ، والتوبة النصوح إلى الله ﷻ وسيلة لمحو

الذنب، ورفع العقوبة والبلاء، فبعض المصائب قد ترد بعض الناس إلى جادة الصواب، وتعيدهم إلى الحق بعد أن شردهم عنها البطر بالنعم.

٧- إن الله ساق هذه القصة درساً بليغاً لأهل مكة، وكل من سار على دربهم،

ليتعض اللاحقون بالسابقين، فلا يقعوا في نفس الخطأ، وتبقى القصة عظة وعبرة

لجميع الأجيال إلى قيام الساعة، أن الله له سننا في كونه لا تتبدل ولا تتغير، قَالَ تَعَالَى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ

فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿١١٢﴾

(١) سورة النحل الآية (١١٢).

ولقد تكررت التجربة مرة ثانية مع قوم سبأ، حينما عرضوا عن منهج الله

فجاءتم النوازل والمصائب التي لم يتوقعوها، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ

ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ. بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ
سِدرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورَ ﴿١٧﴾ ﴿ سورة سبأ الآيات (١٥) -

(١٧).

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ

هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ ﴿ سورة الزمر الآية (١٨).



(١٠) قصة سحرة فرعون دروس وعبر.

١- حوار فرعون مع موسى عليه السلام.

٢- سحرة فرعون بين فرعون وموسى عليه السلام.

٣- دروس وعبر من القصة.



وردت أحداث قصة سحرة فرعون، أثناء الحوار والجدال، والحجة والبرهان بين موسى عليه السلام وفرعون، وقد وردت مفصلة في ثلاث سور من القرآن الكريم، وهي سورة الأعراف: (من ١٠٣-١٢٦) وسورة طه: (من ٦٥-٧٣) وسورة الشعراء: (من ٣٧-٥١) وبينها جميعا اتفاق في عرض القصة، وتفصيلها ومضمونها، والخلاف في ألفاظ وكلمات قليلة، لعل بلاغية.

١- حوار فرعون مع موسى عليه السلام:

حينما كسب موسى عليه السلام الجولة من فرعون بالحوار المنصف، أحس فرعون بالضياع، أمام موسى عليه السلام ومعجزاته الباهرة الساطعة، التي تدل على نبوته ورسالته، فلجأ فرعون مع مستشاريه سريعا إلى التضييل الفكري، فوصفوا موسى عليه السلام بأنه ساحر عليم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَنْ أَخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوْلَوْ جِثَّتْكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَآتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ سورة الشعراء: ٢٣ - ٣٥.



٢- سحرة فرعون بين فرعون وموسى عليه السلام:

وفي الغالب إن الوصف من فرعون، ووافق الملاء، فاصبح رأيهم جميعا، فاستشارهم فرعون بأنه يريد أن يخرجهم من أرضهم، فماذا ترون أن نفعل معه؟ قالوا آخره وأنظره قليلا، وأرسل في الأقاليم ومدائن المملكة، أن يجمعوا لك السحرة ليعارضوه بنظير ما جاءهم من البيئات. قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْبَشَرِ عَلَيْهِمْ إِفْكٌ مِنْ رَبِّكَ كَمَا إِفْكُ الْأَوَّلِينَ وَإِنْ تُؤْتُونَهُمْ مِنْكُمْ أَمْثَلَ يُؤْفَكُوا مِنْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٣٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّورَةَ الَّتِي كُفِّرَتْ بآيَاتِهَا وَلَا حَزَنًا لِمَنِ السُّعُودُ وَلَا لِمَنِ النُّجُودُ ﴿٣٧﴾ سورة الشعراء: ٣٦ - ٣٧.

تشارط السحرة على فرعون الذي استدعاهم، من أجل معارضة موسى عليه السلام إن غلبوا ليعطيهم عطاء جزيلا، فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا، ويجعلهم من جلسائه المقربين عنده.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِمَبْقَتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ سورة الشعراء: ٣٨-٤٢.

استعد السحرة لمبارزة موسى عليه السلام فقالوا له: إما أن تلقى ما معك أو نلقى نحن ما معنا، فقال لهم موسى عليه السلام ألقوا أنتم أولا.

والحكمة من ذلك ليرى الناس صنيعهم ويتأملوا، فإذا فرغ من سحرهم وبهرجهم، جاءهم الحق الواضح الجليُّ بعد التطلب له، والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس، فلما ألقوا خيلوا للأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج، ولم يكن له إلا مجرد صنعة وخيال.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِجَابَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعَزَّةٍ فِِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْفَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ سورة الشعراء: ٤٣-٤٥.

حينئذ في هذا الموقف العظيم، أوحى الله تعالى إلى رسوله موسى عليه السلام أن يلقى عصاه التي في يمينه، فإذا هي تلقف وتأكل ما يأفكون، ويوهمون الناس أنه حق، بينما هو في الحقيقة باطل صراح، فجعلت حية موسى لا تمر بشيء من حبالهم وعصيتهم إلا التقمته، فعرف السحرة هذا الحق الواضح المبين، أنه عند الله تعالى وليس من صنع البشر.

وأن هذا معجزة وليس سحرا، وأنه أمر خارق للعادة ليس بإمكانات السحرة مهما بلغوا أن يفعلوا مثله، فوقع في قلوبهم الإيمان، وخروا سجدا لله رب العالمين. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ ٤٦ ﴿قَالُوا ءَأَمْنَا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ٤٧ ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ٤٨ ﴿سورة الشعراء: ٤٦ - ٤٨﴾.

ماذا سيفعل فرعون أمام هذا الموقف الذي يتهاوى فيه ملكة، وضاعت فيه هيئته، وانكشفت حقيقته، إنه بشر، وليس إلهًا، وإنه ضعيف قد غلب أمام رسول مرسل من عند الله على ملاء من الناس، وحاشيته ورجاله المقربين.

لقد توعد فرعون السحرة لما آمنوا بموسى، وبدأ يكذب ويدلس، ويكيد ويمكر، فقال: إن غلبه لكم في يومكم هذا، إنما كان عن تشاور منكم، وهو كبيركم الذي علمكم السحر، وفرعون يعرف أنه يكذب عن عمد، لأنه يعرف تاريخ موسى ﷺ قبل ذهابه إلى أرض مدين وبعدها.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ فَلَسَوْفَ نَعَالِمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٤٩ ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ ٥٠ ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٥١ ﴿سورة الشعراء: ٤٩ - ٥١﴾.

لكن الهزيمة تدفع الإنسان إلى اختلاق الأكاذيب والأوهام، وفرعون هو الذي أرسل إلى جمع السحرة من البلاد، وجاءهم من مدائن متفرقة، من سائر أرض مصر، وهو الذي أحضرهم على سلطانه، ووعدهم بالعطاء الجزيل، وهم كانوا

حريصين على ذلك، وموسى عليه السلام لم يعرف أحدا منهم، ولم يره من قبل، ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك جيدا.

والذي دفعه إلى التستر بهذا القول، لأنه خشى من عوام دولته ورعايعهم وجهلتهم أن يتبعوا موسى عليه السلام ويتركوه، وقد صدقوه من قبل حينما ادعى الألوهية، وقال: أنا ربكم الأعلى، وحينما استخف عقولهم ولم يعطهم فرصة للتفكير الصواب فأطاعوه، كما حكى القرآن الكريم. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ، فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (سورة الزخرف: ٥٤).

خاف فرعون على ملكه خوفا شديدا، فأصبح مكشوبا في العراء، أمام الريح العواصف التي تأتيه من كل مكان، وهو يحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فخاف من موسى عليه السلام ومن السحرة الذي تحولوا إلى مؤمنين بالله أتباعا لموسى، ومن عوام قومه.

فلو تجمعوا جميعا فسوف تكون لهم صولة وجولة ودولة، ويخرجوا منها الأكابر والرؤساء، والملا وحاشية فرعون، الذين هم أصحاب حل وعقد، فلجأ إلى تهديد السحرة، وتوعدهم بالوعيد الشديد الذي يرهيبهم به، ولربما خافوا فغادروا إلى ما كانوا عليه من قبل.

توعدهم فرعون بالقطع والصلب، أي قطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، أو العكس، ثم يقوم بصلبهم على جذوع النخل، فيكونوا عبرة للجميع من أهل مصر.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ءَامَنَـتُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ، لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقَطِّعْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَا صَلِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ۗ ﴾ (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۗ ﴾ (٧٢) إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۗ ﴾ (٧٣) سورة طه: ٧١ - ٧٣.

فماذا يفعل السحرة وهم حديثو بالإيمان، ووقعوا تحت تهديد فرعون وجبروته؟ كان موقفهم في غاية الروعة من الإيمان والثبات، والصبر والتضحية، قالوا: إنا إلى ربنا منقلبون، أي راجعون إليه، وعذابه أشد من عذاب فرعون، ونكاله أعظم من نكال فرعون، فلنصبر على عذاب فرعون لننجوا من عذاب الله يوم القيامة.

لقد توجهوا إلى الله ﷻ بأعظم دعاء، فقالوا: ربنا أفرغ علينا صبرا، أي عمنا واغمرنا بالصبر على دينك، وثبتنا عليه حتى نلقاك، وتوفنا مسلمين متابعين لنبيك موسى ﷺ على التوحيد والإيمان والعبودية لله. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا نَقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ۗ ﴾ (١٣٦) سورة الأعراف: ١٢٦.

وفي سورة طه نجد قوله: (فاقضي ما أنت قاض). أي افعل ما تريد، وما تستطيع أن تفعله من تعذيب وقطع وقتل، فأنت تملك هذه الدار فقط، وهي إلى زوال، ونحن قد رغبتنا فيما عند الله ﷻ في دار القرار، والبقاء والخلود.

لقد آمننا بربنا حتى يغفر لنا ما كان منا من الآثام، خصوصا ما أكرهتنا عليه من السحر، فنحن جئنا إليك مكرهين، وفعلنا ما فعلنا مكرهين، وطمعا فيما عندك،

وقد انكشفت لنا الصواب والحق، والحقيقة واضحة بينة جليلة، والله خير لنا منك، وأدوم ثوابا مما كنت وعدتنا ومنيئنا به.

لقد طبق فرعون ما توعد به من قتل وصلب وتقطيع، فكانوا في أول النهار سحرة أشرار، وفي آخر النهار شهداء أبرار، وكسبوا الجولة في فوزهم بالإيمان والآخرة، وكسب موسى الجولة الأخيرة، بأن كشف حقيقة فرعون، وانهزم سحرته أمامه، وتحولوا من رجال فرعون إلى رجال موسى.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴿٧٧﴾ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ. فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَاهَدَى ﴿٧٩﴾﴾ سورة طه: ٧٧-٧٩.

ولم يذكر القرآن الكريم شيئاً عن عوام أهل مصر، الذين حضروا المشهد، ورأوا الحقيقة واضحة، أوضح من الشمس في ضحاها، وأبين من القمر إذا تلاها، وأضوأ من النهار إذا جلاها، ويبدو أنهم واقفوا ساكتين صامتتين خائفين من عذاب فرعون وتهديده، وهي صورة معبرة عن طبائع بعض الشعوب، حينما تعيش تحت القهر والذل والعبودية والطغيان، فيصعب عليهم اتخاذ القرار المناسب في وقته.



٣- دروس وعبر من قصة سحرة فرعون:

١- الحوار الهادئ مع خصوم الإسلام وأعدائه، هو أفضل وسيلة للدعوة، حين أعلن موسى عليه السلام أنه رسول من عند الله تعالى وأن معه من الحجج والبيانات والمعجزات ما يؤيد صحة كلامه، وصدق حديثه، وقبل فرعون التحدي والنزال لرؤية ما مع موسى، فأخرج موسى المعجزات، وانتصر على فرعون من أول جولة بالضربة القوية المؤثرة، فخسر فرعون في ميدان الحوار والحجة، فلجأ إلى ميدان الحرب الإعلامية، التي تقوم على التزييف والتضليل، فاتهمه بالسحر، وأنه يهدد مملكته، وهي في خطر داهم، فلا بدَّ من استنفار القوى الكامنة كلها، فكانت الجولة الثانية.

٢- تشاور فرعون مع ملائه، واتفقوا على جولة أخرى، سوف يكسبون فيها المعركة، فاتفقوا على يوم يجتمع فيه الناس، ويأتي بالسحرة من كل مكان من أرضه، وينظرون لمن تكون الغلبة.

ونجح فرعون في التعبئة، ونجح في إحضار السحرة، ووعدهم بالمكانة والمنزلة المقربة، وعند النزال والمبارزة، خسر- فرعون الجولة الثانية، فالمعركة مستمرة، ويخسر- فرعون بالتدريج، حيث خسر- السحرة والسمعة، أمام الملاء والحاضرين للمشاهدة، ومن خواص الناس، ومن عوام الناس وسوقتهم أيضا.

٣- لقد كان موقف السحرة رائعا وموفقا، حينما عاينوا الحقيقة وشاهدوها، ورأوا أن ما مع موسى عليه السلام معجزة باهرة، فخرؤا سجدا لله مؤمنين برب موسى

وهارون، وقذف الله الإيمان الصادق في قلوبهم، وذاقوا حلاوته، وتنسموا عبيره، وخالط دماءهم، فأصبح يجري في عروقهم، فنطقوا بكلمة الحق رغم صعوبة نطقها، وثقل تبعتها، والعقوبة التي تترتب عليها، وقبلوا ذلك كله في رضا وتسليم، لأنهم يعيشون الحياة مرة واحدة، فلا بد أن تكون صحيحة.

٤- مناورات فرعون وتهديداته ما زالت مستمرة؛ لأنه فقد توازنه، حيث

خسر الفريق الذي يلعب به، وانضم إلى خصمه، فقال معترضا كما حكى القرآن.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَا مَنَّمُ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكَ إِن هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِنُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْمُونَ ﴿١٢٣﴾ سورة الأعراف: ١٢٣.

إن الإيمان مسألة شخصية، والمعتقد مسألة شخصية، صاحبه يتحمل تبعاته، فهو لا يحتاج إلى إذن من الغير، ولو طلبوا من فرعون الإذن بالإيمان فلن يأذن لهم، لكنها طبيعة الشخصية المتسلطة على كل شيء، فيظن أنه يملك الرعية، ويملك معتقدهم، وهو صاحب الأمر والنهي، والقول والفعل، والرعية عبيده عنده، لا يملكون من أمور أنفسهم شيئا، لذلك اعترض على إيمانهم، كأنه صاحب الحق الأوحد، والمتصرف في كل شيء من أمور الرعية.

٥- لقد قبل السحرة التحدي من فرعون، ورفضوا الانصياع له،

والاستجابة لأمره، ولم يتراجعوا عن موقفهم الواضح الثابت، رغم تهديد فرعون لهم، وهو قادر على تنفيذه، واستشعروا هذه النهاية المريرة في الدنيا بالقطع والصلب، ونظروا إلى ما هو أبعد من ذلك.

لقد نظروا إلى الآخرة الباقية، وما أعده الله فيها للمؤمنين الثابتين على الإيمان، فكيف بالشهداء الذين قدموا أنفسهم وأرواحهم فداءً للدين، ونيل ما عند الله، والوصول إلى درجة عالية في الجنة.

٦- لقد مات فرعون، ومات السحرة، وجاء القرآن الكريم يخبرنا عن عذاب فرعون في الدنيا قبل الآخرة. قَالَ تَعَالَى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ٤٦﴾ سورة غافر: ٤٦. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ٩٩﴾ سورة هود: ٩٨ - ٩٩.

أما سحرة فرعون، فقد خلدوا أنفسهم بأن ذكرهم الله في القرآن الكريم في أكثر من موضع، وأثنى عليهم، وبين حقيقة الإيمان الذي قذفه الله في قلوبهم، ففاض على ألسنتهم بالفصاحة والبلاغة والبيان، فقالوا لفرعون:

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ٧٢﴾ إِنَّمَا آمَنَ بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ٧٣﴾ سورة طه: ٧٢ - ٧٣. نَسَأَلُ اللَّهَ فَكَيْفَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ:

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا

الْأَلْبَابِ ١٨﴾ سورة الزمر الآية (١٨).



(١١) قصة قوم سبأ دروس وعبر.

١- تاريخ قوم سبأ وحياتهم.

٢- قوم سبأ بين النعمة والعذاب.

٣- دروس وعبر من قصة قوم سبأ.



١- تاريخ قوم سبأ وحياتهم:

في القرآن الكريم سورة تسمى سبأ، وقوم سبأ أولاد سبأ بن يشجب، بن يعرب بن قحطان، وهم ملوك اليمن وأهلها، وقوم تبع منهم، وبلقيس التي عاصرت سليمان عليه السلام، وآمنت برسالته منهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشتهم، واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ سورة سبأ: ١٥.

بعث الله ﷻ إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، ويشكروه على نعمه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك فترة طويلة من الزمن، ثم عرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل المدمر، والتفرق في البلاد، والتشتت، وأصبحوا شذر مذر.

وسمي سبأ بهذا الاسم لأنه أول من سبأ في العرب، وكان يقال له الرائش، لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه، فسمي الرائش، والعرب تسمى المال ريشا ورياشا.

وكان من العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل، من سلالة سام بن نوح، وفي الحديث: (أن رسول الله ﷺ مرَّ بنفر من أسلم ينتضلون، فقال ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا، فأسلم قبيلة من الأنصار، والأوس والخزرج من غسان، من عرب اليمن من سبأ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ بالبلاد، حيث بعث الله عليهم سيل العرم).

ومن نسل سبأ العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل، من عرب اليمن، وكان من أمر السدّ أنه كان الماء يأتيهم بين جبلين، وتجمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم الأقدام، فبنو بينهما سدا عظما محكما حتى ارتفع الماء، وتم التحكم في المياه من أعلى الجبلين، فغرسوا الأشجار، واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن.



٢- قوم سبأ بين النعمة والعذاب:

كانت المرأة تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل، وهو الذي يجمع فيه الثمار، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه، من غير ما يحتاج إلى كلفة

ولا قطاف، وذلك لكثرتة ونضجه واستوائه، وكان هذا السد بمأرب ويعرف بسد مأرب.

وكانت هذه المدينة تعرف باعتدال الهواء، وصحة المزاج، وخلوها من الأمراض المعدية، والحشرات الضارة، وذلك لنعم الله عليهم فيها، من أجل أن يوحده ويعدوه، وفي الحديث أن أحد الصحابة قال: "أتيت النبي ﷺ فذكر الحديث، فقال رجل من القوم: يا رسول الله، أخبرنا عن سبأ ما هو أرض أم امرأة؟ فقال: ليس بأرض ولا امرأة، ولكنّه رجلٌ ولدَ عشرةً [من العرب] فتيامن سبأ وتشاءم أربعة". أبو داود (٣٩٨٨) حسن صحيح، عن فروة بن مسيك رضي الله عنه.

لقد كان لسبأ في مسكنهم آية، والآية هي الجنتان عن اليمين والشمال، أي من ناحية الجبلين والبلدة بينهما، وهي حدائق مبهرة في الجمال، ولو أنهم شكروا الله تعالى على هذه النعم لاستمرت، فالمنعم هو الله تعالى ومن شكره على نعمه أدامها بأن يكون موحداً، متوجهاً لله في عبادته، شاكر للنعم بالقلب، واللسان، واليد، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ ۗ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ سورة سبأ: ١٥.

لكنهم عدلوا عن التوحيد إلى عبادة الشمس، كما قال الهدهد: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ ۗ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَنِي يَاقِينَ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ

لِلشَّمْسِ مِنْ دُونَ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ سورة

النمل: ٢٢- ٢٤.

كانوا ثلاثة عشرة قرية، فبعث الله إليهم ثلاثة عشر نبيا، فكذبوا الرسل، ولم يقرؤا بنعم الله ﷻ وأعرضوا عن الحق، فأرسل الله عليهم سيل العرم، أي الماء الغزير، والسيل الشديد المغرق الذي لا يطاق.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِمَحَنَّتِهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ سورة سبأ: ١٦.

ولما أراد الله ﷻ عقوبتهم بإرسال السيل عليهم، بعث على السد دابة من الأرض، يقال لها الجرذ، وكانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجرذ، فكانوا يرصدون عنده السنانير برهة من الزمان، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير، وولجت إلى السد فنقبتة، فانهار عليهم.

حيث صدم الماء البناء فسقط، فانساب الماء في أسفل الوادي، وخرب ما بين يديه، من الأبنية والأشجار وغير ذلك، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين، عن يمين وشمال، فبيست وتحطمت، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة بأشجار أخرى، وهو الأراك والسمّر. والأثل هو الطرفاء، وهو نوع من الشجر، وشيء من سدر قليل، وهو النبا، وهو شجر معروف عند العرب، ولا يزال موجودا حتى الآن، وله ثمر صغير يؤكل، وقد ذكره القرآن الكريم في قوله قَالَ تَعَالَى: ﴿ فِي

سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ سورة الواقعة: ٢٨. أي نزع منه الشوك، وكان هذا هو أجود الأشجار
المبدلة.

فبعد الثمار النضيجة، والطرفاء والصدور، الذي به شوك كثير وثمر قليل،
وهذا كله من الاستبدال بسبب كفرهم بالله وشركهم به، وتكذيبهم الحق، وعدو
لهم عنه إلى الباطل، ولذلك قَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَلِكُمْ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِمْ وَهُمْ يُكْفِرُونَ إِلَّا الْكُفُورَ
سورة سبأ: ١٧. ﴿١٧﴾

فعاقبهم الله ﷻ بكفرهم، ولا يعاقب إلا الكفور، فالكفر يولد الضيق في
المعيشة، وزوال النعم، وحلول النوازل والكوارث التي لا تبقى على شيء.

ومن قصة قوم سبأ، أن القرى التي كانوا يعيشون فيها كانت قرى متواصلة
مقاربة، بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن
مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد أو ماء، فحيثما نزل وجد مساءً وثماراً، ويقل في قرية،
ويبيت في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم.

فالقرى الظاهرة هي التي ينظر بعضها إلى بعض، وكانوا يسرون آمنين من
مخاوف السفر، من طعام أو شراب أو حيوانات مفترسة، فكانوا يسرون أربعة
أشهر في أمان، فبطروا النعمة وملوها كما ملَّ بنو إسرائيل المن والسلوى.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا
السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ سورة سبأ: ١٨-١٩.

فملّوا من النعم وكفروا بها، ودعوا على أنفسهم، وطلبوا الصعوبات، فقالوا لو كانت جناتنا أبعد من ذلك، كان أجدر أن يشتهي جناها، وسألوا الله ﷻ أن يباعد بين أسفارهم، فأحبّوا المفاوز، والسفر الطويل الذي يحتاجون معه إلى الزاد والرواحل، والسير في الحرور والمخاوف، فجعلهم الله ﷻ أحاديث للناس من بعدهم، ومسمرا يتحدثون به عن خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة، والعيش الهنيء، فتفرقوا في البلاد، وأصبحوا مضرب المثل، يقال: (تفرقوا أيدي سبأ) (وأيادي سبأ) (وشذر مدر).

فالله لما أغرق مكانهم، وأذهب جنتيهم، تبددوا في البلاد، إن فيما فعل بهم من شتات لآيات وعبر، لكل صبار عن المعاصي والذنوب، شكور لنعم الله ﷻ في السراء والضراء، وفي الحديث: (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَصَابَتُهُ سَرَّاءُ شَكَرٍ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ). مسلم (٢٩٩٩) عن صهيب بن سنان. فإذا أعطى شكر، وإذا ابتلى صبر.

ولقد صدق حدث إبليس فيهم، حينما قال الله، قَالَ تَعَالَى: ﴿

إِبْلِيسُ ظَنَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ سورة سبأ: ٢٠.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿

شَكَرِينَ ﴿١٧﴾ سورة الأعراف: ١٧.

فإبليس ظن بهم أنهم يتبعونه إذا أغواهم، فوجدهم كذلك، فحقق فيهم بما فعل بهم، إلا فريقاً من المؤمنين، الذين ثبتوا على طاعة الله ﷻ ومعصية إبليس. وإبليس ليس له عليهم سلطة، إلا أنه دعاهم إلى الأمان والغرور، فسلطة الله ﷻ عليهم؛ ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها، والحساب والجزاء فيها، فيحسن عبادة ربه، فمن هو منها في شك، ومع إرسال رسل الله للناس، ضل من ضل من أتباع إبليس، وبحفظ الله ﷻ ورعايته، سلم من سلم من المؤمنين من مكائد إبليس، وربك على كل شيء حفيظ من الشك ومن المهالك، ويحفظ أوليائه ويجرسهم من مكائد الشيطان ووساوسه.



٣- دروس وعبر من قصة قوم سبأ:

١- قص الله علينا في القرآن الكريم أخبار الهالكين من السابقين، من الأمم المجاورة للعرب، الذين يعرف قصتهم وتاريخهم ونهايتهم، الذين تركوا آثاراً تدل على ما كانوا عليه من نعم، فلما أعرضوا عن منهج الله ﷻ غير الله حالهم إلى أسوأ حال.

وذلك لأخذ العظة والعبرة منهم، حتى لا تزول عنهم النعم، وتكون نهايتهم كنهايتهم، وهذا أدعى إلى التصديق، وأقرب للموعظة والتأثير، لمن طلب الهداية والرشاد.

٢- أن الله يغمر الناس بنعمه التي لا تعد ولا تحصى، ثم يختبرهم فيها، فمن أطاع وشكر أدامها، وزادها عليه، ومن عصى وكفر أزالها عنه، وحلت به العقوبة، وبالشكر تدوم النعم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ سورة إبراهيم: ٧.

٣- أن قوم سبأ ألفوا النعم، وملوا الراحة، فحباهم الله مياه دون جهد أو عناء، وجنان بجوار المياه، وثمار نضيجة من شدة استوائها ونضوجها تملأ المکتل دون أي جهد يُبذل، ومزارع على جانبي الطريق، ومسافات قصيرة بين المدن، لا تحتاج إلى زاد أو وقت طويل، فملوا هذه النعم، وطلبوا عكسها، فأزالها الله ﷻ عنهم، وفرقهم في البلاد بعد مجاورتهم لهذه النعم الكثيرة، بالإضافة إلى حسن الهواء، وقلة الوحوم، وسعة الرزق، ورغد العيش، حتى إن الله ﷻ قال عنها: ﴿ بَلَدٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴾ سورة سبأ: ١٥. كما رزقهم الله نعمة الأمن والأمان في السفر، وعدم الخوف من قطاع الطرق، أو الحيوانات المفترسة، وسهولة التنقل بدون زاد أو زواد.

٤- من أكبر المصائب أن يدعوا الإنسان على نفسه، أو يتمنى زوال نعم الله ﷻ عليه، والبلاء موكل بالمنطق، والإنسان يجازى على نيته وقوله وعمله، وعاقبة البطر وخيمة وشديدة، وأصعب الظلم ظلم الإنسان لنفسه، بكفره لله ونعمه، والجزاء من جنس العمل، فكما أن النعم كانت سببا في طغيانهم وتمردهم، وكفرهم

واعتوهم، أزالها الله عنهم، ودمرت مزارعهم ومساكنهم، وفرقهم الله وشتتهم في البلاد، بعد نعم كثيرة، تكاسلوا عن شكرها، وسعوا في زوالها.

٥- إن الله عَلِيمٌ لا يعاقب أحداً إلا بذنب، قال الامام علي: (ما نزلت مصيبة إلا بذنب، وما رفعت إلا بتوبة).

فالله عاقب قوم سباً بسبب كفرهم، وإعراضهم عن منهج الله وعدم الإيمان بالرسول، فبدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح، وبدلوا النعم بالجحود، قال تعالى

قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا كَفَرُوا وَهُمْ أَجْرُهُمْ إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ سورة سبأ: ١٧.

٦- العاقل من اتعظ بغيره، ولا يسلك طريق المعاقبين، وإذا ضل الطريق فليجتهد في البحث عن الطريق الصحيح، قبل أن تزداد المسافة، ويبعد عن الهدف، والطاعة تحتاج إلى صبر عليها، والمعصية تحتاج إلى صبر بالبعد عنها، والعاقل من تعلم ممن سبقه ومن حوله، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ سورة سبأ: ١٩. صبار على المكاره والشدائد، شكور لنعم الله عَلِيمٌ التي تغمره صباحاً ومساءً.

٧- تجربة قوم سباً صورة واقعية حقيقية، لتصديق الشيطان على ما يفعله بالإنسان، وهو ظن وتحمين، حوَّله لحقيقة بالاستمرار والتكرار، والوقت الطويل والنسيان، والغواية، فاستجابوا له واتبعوه، إلا فريقاً من المؤمنين، الذين لم يدخلوا تحت ظن ابليس، فعلم الصادق من الكاذب، ومن كان إيمانه صحيحاً، ومن ترك

إيمانه واتبع هواه، وظهر الخبيث من الطيب، والحياة كلها تقدم على الامتحان والتمحيص والاختبار.

٨- حتمية العودة واللجوء إلى الله تعالى، فمن لم يعد إليه طوعاً عاد إليه قسراً وكرهاً، فمن لم يعد إلى الله ﷻ على جناح من الشوق، عاد إليه بسوط من العذاب.

وفي قوم سباً عظه وعبرة، حيث خسروا النعم التي كانوا يعيشون فيها في الحياة الدنيا، وخسروا الآخرة التي فيها المرجع والحساب والجزاء، والإنسان لا يسلم من المهالك إلا بحفظ الله ﷻ ورعايته، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾
﴿٢١﴾ سورة سبأ: ٢١.

فيحفظ العباد في صحتهم، وأهليهم، ويحفظ عليهم أعمالهم، ويحفظ جزاءها وثوابها، ويوفيهم إياها كاملة يوم القيامة.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من:

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ وَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْأَوْلَىٰ﴾

الألب ١٨ ﴿سورة الزمر الآية (١٨).﴾



(١٢) قصة أصحاب الأخدود دروس وعبر.

١- قصة أصحاب الأخدود، قصة الإيمان والصمود.

٢- أحداث القصة في القرآن الكريم.

٣- أحداث القصة في السنة النبوية.

٤- دروس وعبر من قصة أصحاب الأخدود.



١- قصة أصحاب الأخدود، قصة الإيمان والصمود:

قصة أصحاب الأخدود هي قصة الإيمان، أمام الكفر والشرك، قصة التضحية والصبر والثبات، أمام الاضطهاد والتعذيب والقتل، وهم أناس كانوا من نصارى اليمن مؤمنين موحدين بالله، قبل مبعث النبي ﷺ بأربعين سنة، وكان عددهم اثني عشر ألفاً، وقيل أكثر من ذلك، تعرضوا للفتنة والابتلاء في دينهم، فسجل الله لنا قصتهم للتربية والتعليم.

وأنزل الله ﷻ في شأنهم سورة تسمى سورة البروج، سجلت المشهد العام

للقصة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ قِيلَ أَصْحَابُ

الْأَخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾

سورة البروج: ١ - ٧. والأخدود: شق يشق في الأرض، والقتل يعني: اللعن والطرده



والإبعاد والقتل.

٢- أحداث القصة في القرآن الكريم:

كان الملك وأصحابه جلوسا على الكراسي عند الأخاديد، ليحضروا هذا المشهد الأخير، من تراجع عن دينه تركوه، ومن ثبت على دينه وإيمانه بالله الواحد الأحد قذفوه في هذا الأحدود، الذي أضرمت فيه النار، فماتوا محترقين، وصبروا جميعا على ما أصابهم، ولم يرجعوا عن دينهم وإيمانهم، الذي هو سبب النعمة عليهم، والبلاء الذي نزل بهم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾ سورة البروج: ٨-٩.

والله شاهد على ما صنعوا، ولم يخف عليه شيء، وهؤلاء الذين أحرقوهم وعذبوهم، فتح الله لهم باب التوبة، من شركهم ومن جرمهم مع المؤمنين، فإذا لم يتوبوا فلهم عذاب الحريق في جهنم يوم القيامة، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ إِمَّا لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَهُمْ فِيهَا فِي عَذَابٍ مُّتَسَاوِينَ ﴿١٠﴾﴾ سورة البروج: ١٠.

وأما المؤمنون الذين ماتوا على الإيمان موحدين، فهلم جنات تجري من تحتها الأنهار، ذلك الفوز الكبير، إنهم فازوا بالجنة، بمجرد ثباتهم على الإيمان وموتهم عليه. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿١١﴾﴾ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ سورة البروج: ١١.

ويختم الله ﷻ القصة والآيات بوعيده الشديد، في الانتقام والبطش ممن خالفوا أمره، وساروا حسب أهوائهم، وقتلوا الأبرياء المؤمنين الموحدين، دون ذنب أو جريرة اقترفوها، بل ما كان عنهم من مزية، هو سبب قتلهم وحرقتهم.

فالله ﷻ سوف ينتقم من الظلمة والجبايرة بالهلاك والعذاب في الدنيا والآخرة، أخذاً شديداً، يناسب قوته وشدته وانتقامه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيَعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْعَاقِبُ الْأَوْدُدُ ﴿١٤﴾ ذُو

الْعَرْشِ الْمَجِيدِ ﴿١٥﴾ فَعَالَ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ سورة البروج: ١٢-١٦.

وبعد قصة أصحاب الأخدود، ذكر الله ﷻ حديث الجنود، الذين تجنوا على أولياء الله ﷻ ثم بين أنها فرعون وثمود، وذكر أن مشر-كي قريش في تكذيب بالقرآن، حيث لم يتعظوا ويعتبروا بما كانوا قبلهم، والله ﷻ محيط بكل شيء، لا تخفى عليه خافية، ولا شيء في الأرض ولا في السماء.

قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنذِرَكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ ﴿١٩﴾

وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ سورة البروج: ١٧-٢٢.



٣- أحداث القصة في السنة النبوية:

أما تفاصيل القصة فقد جاءت في كتب السنة، ومنها ما أخرجه الإمام مسلم عن صهيب بن سنان أن رسول الله ﷺ قال: (كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَأَبْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أَعْلَمُهُ السَّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ، إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرًّا بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ.

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرَ أَفْضَلَ أَمْ الرَّاهِبَ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجْرًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَفَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ.

فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيُّ بَنِي أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسُ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَاتَاهُ بِهِدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَأَمَّنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ.

فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ.

فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيُّ بَنِيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِي الأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ.

فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنِ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمُشَارِ، فَوَضَعَ الْمُشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنِ دِينِكَ، فَأَبَى فَوَضَعَ الْمُشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنِ دِينِكَ، فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ.

فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنِ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرُحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ.

فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَأَحْمِلُوهُ فِي قُرُقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنِ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْدِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَأَنْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَعَرَقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ.

فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِدْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ صَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي.

فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِدْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ.

فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأَتَى الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذْرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكِّكِ، فَخُدَّتْ وَأُضْرِمَ النَّيِّرَانَ.

وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنِ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّةَ، اضْبِرِّي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ). مسلم (٣٠٠٥) عن صهيب بن سنان رضي الله عنه.



٤- دروس وعبر من قصة أصحاب الأخدود:

١- إن قصة أصحاب الأخدود تمثل قصة الصراع بين الإيمان والكفر، والحق والباطل، والتوحيد والشرك، وهي قصة الحياة كلها، وهي قصة مكرورة أحداثها بصور مختلفة عبر التاريخ، فهي تتشابه مع قصص الأنبياء مع أقوامهم، وقد

ساقها الله ﷻ عبرة وعظة لأهل مكة، حتى لا تكون نهايتهم مثل نهاية أصحاب الأخدود.

وقد تتكرر أحداث القصة في البلاد التي يحكمها غير المسلمين، وبها أقلية مسلمة مضطهدة، كما وقع في الاتحاد السوفيتي، والبوسنة والمهرسك، وغيرها من البلاد التي كان المسلمون يقتلون فيها على الهوية.

٢- إن الملك في تشبته لحكمه يحتاج إلى أعوان ومساعدين وحاشية، وإذا ما انتهى دورهم، جاء من يكمل الدور بعدهم، فهذا الساحر لما كبرت سنه، وله دور كبير في تثبيت حكم الملك، طلب منه الملك أن يصنع تلميذا له، فكان هذا الغلام، الذي خطط الملك والساحر له، وأراد الله ﷻ أن يكون شيئا آخر، على غير ما يريد الملك تماما، فالأمور تمشي بمقادير الله وقدره ﷻ.

٣- إن الله ﷻ أيد هذا الغلام بكرامة بينت له الحقيقة، أن الراهب على صواب، وأن الساحر على باطل، وأن الراهب أخبره بأن البلاء قادم، لأن الإنسان يختبر في إيمانه بالله، هل هو صادق أم كاذب، وقد استخدم الغلام ما أعطاه الله ﷻ من علم ودعاء مقبول ليكون سببا في شفاء الناس، كما أنه يخبرهم أن الشافي هو الله ﷻ وما الغلام إلا سبب فقط.

ولقد بلغت شهرة الغلام مبلغا كبيرا حتى وصلت إلى جليس الملك، فكان سببا في شفائه، بعد ما آمن بالله ﷻ وشهرة الغلام هذه سوف تنفعه في إيمان الناس،

لأن قضيته وموضوعه سوف يكون قضية عامة، وحديث الناس، وسيكون لها أثر في إيمان الناس الحاضرين للمشهد الأخير.

٤- إن الباطل حينما يفشل في الحوار مع الحق، يلجأ إلى استخدام العنف، فالملك في حوار مع جليسه فشل في أن يثبت له صحة معتقده، وفشل في أن يبطل حجة خصمه، فلجأ إلى التعذيب ليرده عن الحق والصواب، ويعترف على من دله على هذا الطريق. وهكذا استخدم نفس الأسلوب مع الغلام، ومع الراهب، فالحق أبلج، والباطل لجلج، والحق واضح، والباطل غامض، والباطل ساعة، والحق إلى قيام الساعة.

٥- يؤتى الباطل من حيث لا يحتسب، لقد حاول الملك قتل الغلام عدة مرات، كل مرة بطريقة مختلفة، حتى يتخلص من الغلام، ولا يشيع أمره بين الناس، ولا يؤمنون به، وكل مرة كانت تبوء بالفشل، إلى أن أرشده الغلام إلى الطريقة التي يقتل بها.

لقد لجأ الملك إليها دون تفكير، ووقع بسببها ما كان يحذره الملك، وهو إيمان الناس، وخرج الموقف عن سيطرة الملك، فلجأ إلى شق الأخدود، وأضرم فيه النيران وألقى أهل الإيمان فيه، فظن الباطل أنه ربح وكسب الجولة، وفي الحقيقة إنه كسب قليلا وخسر كثيرا، وذلك هو الخسران المبين.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ

هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ سورة الزمر الآية (١٨).

(١٣) قصة مؤمن آل يس دروس وعبر.

١- تذكر المدعوين بالرسل الثلاث.

٢- إيجابية مؤمن آل يس في تقديم النصيحة وتحمل تبعاتها.

٣- دروس وعبر من القصة.



١- تذكر المدعوين بالرسل الثلاث:

ذكر الله ﷻ قصة أهل القرية التي أرسل إليها مؤمن آل يس مثلاً لقريش، لعلمهم يتعظوا ويتعلموا من أصحاب القرية، وأهلها مما أصابهم من عذاب، فقال الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ في القرآن الكريم، هذه القصة ليبلغها لمشركي قريش، لعلمهم يتعظوا ويعتبروا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ

اثنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ سورة يس: ١٣ - ١٤.

اذكر يا محمد لمشركي قريش قصة أصحاب القرية، إذا أرسلنا إليهم اثنين من الرسل، وهما صادق ومصدق، ثم أرسل الله إليهم ثالث، وهو شمعون، وكانوا موحدين يدعون القرية إلى عبادة الله ﷻ وتوحيده.

فرد عليهم أصحاب القرية، ما أنتم إلا بشر مثلنا، وما لكم علينا من فضل تتفضلون به، وما أنزل الرحمن من شيء من الكتب، وما أرسل أحدا من الرسل، فما أنتم إلا تكذبون في ادعائكم الرسالة، فبادروهم بالتكذيب مباشرة، ولم يفتحوا مجالا للحوار والنقاش، والنظر فيما معهم من أدلة وبيانات.

وإنما عاداتهم مثل عادات السابقين عليهم، حجة واهية لا تقوى على النقاش، فقالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا، وهم يريدون الرسل ملائكة، ولو كانت ملائكة لجعلها الله ﷻ في صورة بشر أيضا، وأنكروا نزول أي شيء من عند الله ﷻ والتاريخ يشهد أنه كانت هناك رسل سابقين، ومعهم كتب منزلة لهداية الناس إلى منهج الله ﷻ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ سورة يس: ١٥.

قالت الرسل لقومهم: إن الله ﷻ هو الذي أرسلنا إليكم، وهو يعلم أننا مرسلون من عنده فيما دعوناكم إليه، وما علينا نحوكم إلا أن نبلغكم الرسالة، بلاغا واضحا يقيم عليكم الحجة، ولا تستطيعون إنكاره. قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ ١٦ ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾ ١٧ ﴿ سورة يس: ١٦-١٧.

لقد حبس الله عن القرية المطر، فقالوا لرسولهم لقد تشاء منا بكم، حيث لم يصبنا ذلك من قبل، وإنما أصابنا هذا بسببكم، فلم نر على وجوهكم خيرا في عيشنا، وما أصبنا من شر فإنما هو من أجلكم وبسببكم، فإن لم تسكتوا عنا لنقتلنكم

رجما بالحجارة، وليصبنكم منا عذاب أليم، وعقوبة شديدة. قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا إِنَّا

نَطِيرُنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ سورة يس: ١٨.

فرد عليهم الرسل، إنما شؤمكم معكم بسبب كفركم، وهو مردود عليكم،
فأنتم قوم مغرورون في التشاؤم، وفي عدم السماع لنا بتبليغ الرسالة، ورفضكم لعبادة

الله ﷻ وتوحيده. قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا طَئِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ

﴿١٩﴾ سورة يس: ١٩.



٢- إيجابية مؤمن آل يس في تقديم النصيحة وتحمل تبعاتها:

وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى، اسمه حبيب النجار، وكان مجذوما،
وكان قد آمن بالرسول لما وردوا القرية، وكان منزله عند أقصى- باب من أبواب
القرية، فلما بلغه أن قومه قد كذبوا الرسول، وهموا بقتلهم جاء يسعى، لينصرهم من
قومه.

وقدم كلمة أقصى المدينة لأن بيته كان بعيدا، فتحرك منه سريعا لينذر القرية،
ويعلمهم بخطورة الموقف، فحرض قومه على الإيمان بالرسول واتباعهم فيما دعوا
إليه، فهم رسل من قبل الله ﷻ لا يسألون الناس أجرا على دعوتهم وتعليمهم، وهم
مهتدون فيما يدعونكم إليه.

فأخذوه ورفعوا إلى الملك، وسأله هل أنت تتبعهم فقال مجيبا بلسان الواثق بوعد الله بالحق المبين، قال نعم، وما يمنعني عن عبادة الله الذي خلقني، وحده لا شريك له، فأى شيء أعبد إذا لم أعبد الله ﷻ الواحد الأحد، وإليه مرجعكم، فهو الذي يبعثكم من قبوركم، ويجازيكم على أعمالكم، فخاطبهم بلسان العقل السليم، والفتوة السوية، حتى يجد معهم طريقا إلى الإيثار بالرسول.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)﴾ سورة يس: ٢٠-٢٢.

ثم خاطبهم بمنطق العقل، هل هذه الآلهة التي يعبدونها من دون الله يملكون من الأمر شيئا؟ فإن الله ﷻ لو أرادني بسوء، فهل هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله ﷻ تملك دفع ذلك أو منعه؟ ولا ينقذني مما أنا فيه؟ هل تملك لي شفاعة؟ هل تخلصني من المكروه الذي أصابني؟ وهو بذلك يلزمهم الحجة، ويقدم عليهم الدليل، بأسلوب عقلي منطقي سهل ويسير.

ولو أني اتخذت آلهة من دون الله ﷻ بعد وضوح الأمر السابق فإني حينئذ في ضلال واضح مبين، خاصة بعد علمي بضلالتها وبطلانها.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرَدِّنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنْ إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤)﴾ سورة يس: ٢٣-٢٤.

إني آمنت بربكم الذي كفرتم به، فاسمعوا لقولي، واشهدوا لي بذلك. وقيل من المحتمل أن يكون خطابه للرسول أنه آمن بالذي أرسلهم، فاشهدوا لي بذلك عنده. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ ﴿٢٥﴾ سورة يس: ٢٥.

كان من موقف القرية أنهم تجمعوا عليه، ووطئوه بأرجلهم حتى قتلوه، فلقي الله ﷻ فأصبح شهيدا، ووجبت له الجنة، ورأى فيها ثواب عمله، وما أعده الله ﷻ له فيها، بما هو أفضل مما تركه من حطام الدنيا الزائل.

فلما رأى الجنة وما فيها من نعيم، تمنى أن قومه يعلمون ما عاين من كرامة الله ﷻ فلو أنهم أطلعوا على ما حصل من الثواب والجزاء، والنعيم المقيم، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، فكان حريصا على هداية قومه حتى بعد موته ورحيله. قَالَ تَعَالَى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ سورة يس: ٢٦-٢٧.

لقد انتقم الله ﷻ من قومه بعد قتلهم إياه، غضبا من الله عليهم، لأنهم كذبوا رسله، وقتلوا وليه، فلا يحتاجون بعد ذلك إلى رسل جدد، أو رسالة أخرى بعد موقفهم السابق، ولم يمهلهم الله على ما فعلوا، بل عاجلاهم الله ﷻ بالعقاب، فأرسل الله ﷻ عليهم جبريل، فصاح بهم صيحة واحدة، فإذا هم خامدون عن آخرهم، فماتوا جميعا بالصيحة، ولم تبق بهم روح تتردد في جسدهم، ولم يسمع لهم حس، وأصبحوا خامدين ساكتين كهيئة الرماد الخامد الذي لا يتحرك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ (٢٨)

إِنْ كَانَتْ إِلَّا الصَّيْحَةَ وَوَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِدُونَ ﴿٢٩﴾ سورة يس: ٢٨-٢٩.

يا ويل العباد، ويا حسرتهم على أنفسهم، وعلى ما ضيعوا من أمر الله، وفرطوا في جنبه، فالحسرة والندامة تستولى عليهم، حينما يعاينوا بالعذاب يوم القيامة، كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمره، فقد كانوا في الدنيا يكذبون الرسل، ويستهزئون بهم، ويحسدون ما أرسل الله ﷻ من الحق، فالحسرة تركب الإنسان من شدة الندم إلى ما لا نهاية، وحتى يبقى قلبه حسيرا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ سورة يس: ٣٠-٣٢.

وتنتهي القصة من أجل الغرض التي سيقت من أجله، وهو التحذير والتخويف لكفار مكة، ومشركي قريش، ليتعظوا بما حل بمن كان قبلهم من المكذبين للرسل، كيف لم تكن لهم في هذه الدنيا كره أو رجعة؟ ولم يكن الأمر كما زعم كثير من عتاة الكفر والإجرام، كما حكى القرآن الكريم عنهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٣٤) سورة الجاثية: ٢٤.

فهم كانوا يعتقدون أنهم لا يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها من قبل، فقال

الله ﷻ لهم: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُنتُمْ لَمَّا

جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ سورة يس: ٣١-٣٢.

فجميع الأمم الماضية والآتية مستحضرة للحساب يوم القيامة، بين يدي الله ﷻ فيجازيهم بأعمالهم كلها، خيرها وشرها، وكل الناس جميعا عند الله ﷻ يوم القيامة محضرون، لا يستطيع أحد أن يمتنع، لأن الأمر ليس بيده، وإنما آلت الأمور إلى الخالق الواحد الأحد القهار، الذي يملك المرجع والحساب والثواب والعقاب.



٣- دروس وعبر من القصة:

١- إن الله تعالى يضرب المثل بقصة كاملة، من أجل أن يسوق منها درسا لمشركي قريش، حيث كذبوا الرسل، وقتلوا الرجل الصالح، الذي آمن بالرسول، وأمرهم باتباعهم، ورأى ثواب إيمانه، فتمنى لو آمن أهل القرية، ولكنهم كذبوا، ونزل العذاب بأهل القرية جميعا، فهل قريش سوف تتعظ من هذا المشهد؟ ومن تلك القصة التي ظهر آثارها سريعا في فوز المؤمن، وخسران الكافر؟.

٢- إن الرسول الواحد حينما يواجه قومه كلهم فيشعر بصعوبة المهمة، وثقل التبعة، وشدة الموقف، فقد يؤيده الله برسول آخر، وقد يعززه الله برسول ثالث، ويوجد من بين المدعوين من يؤمن بهم ويناصرهم، ولو فرد واحد. وفي الحديث قال ابن عباس (خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ: عُرِضَتْ عَلَيَّ

الْأُمَّمُ، فَجَعَلَ يَمْرُ النَّبِيِّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ،
وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ). البخاري (٥٧٥٢) عن ابن عباس رضي الله عنه.

فقد كلف الله هارون مع موسى، وشاركه في الرسالة عند مواجهة فرعون وقومه، وقد جعل الله يحيى نبيا مع عيسى عليه السلام في وقت واحد، فكان تمهيدا لقدمه ومعززا ومقويا له، وهما ابنا خالة، وقد بعث الله عليه السلام لوطا عليه السلام في عصر إبراهيم عليه السلام وجعل الله عليه السلام لداود سليمان ولده نبيا في عصر واحد، وهذا كله لحكم سامية يعلمها الله، ويعرف أسرارها بعض أهل العلم.

٣- من شبهات الخصوم في رفض الدعوة، عبر قصص الأنبياء وأتباعهم، قولهم بأن الرسل بشر مثلهم، وهم يريدونهم ملائكة، ولو أرسل الله عليه السلام الملائكة رسلا للبشر لجعلهم في صورة بشر، لكن الخصومة واللدن في العناد، هي التي جعلت الناس يفترون ويختلقون الأوهام، كحجة واهية من أسباب الرفض.

وقد فعلوا ذلك مع عدد من الأنبياء، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصَدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتُونَا بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ سورة إبراهيم: ١٠.

ورد الله عليهم في آية أخرى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا

وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَّا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾﴾ سورة الأنعام: ٩.

٤- وظيفة الرسل وأتباعهم هو البلاغ الواضح المبين، وإقامة الحججة على الناس، سواء أمنوا أو لم يؤمنوا، فليس مسئولاً عن نتائج التبليغ، فهو مسئول عن البلاغ، وكل إنسان مسئول على نتيجة اختياره،

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بِنَجْعِ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا

﴿ ٦ ﴾ سورة الكهف: ٦.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ ﴿ ٢٣ ﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا

فِيهَا نَذِيرٌ ﴿ ٢٤ ﴾ سورة فاطر: ٢٣- ٢٤.

٥- التشاؤم والتطير ليس من الإسلام، لا يقره، ولا يعترف به، بل نهى عنه في الحديث: (لا عدوى، ولا طيرة، وأحبُّ الفألِ الصَّالِحِ) مسلم (٢٢٢٣) عن أبي هريرة. فأهل القرية تشاءموا من الرسل حيث منع المطر في تلك الفترة، فربطوا ذلك بهم، وقالوا إنا تشاءمنا بسبب وجودكم بيننا، وهذا خلط للأمر، وتدليس على الناس.

فمنع المطر له أسباب، منها الذنوب والمعاصي، فلو تابوا وأنابوا، ودخلوا في التوحيد والعبادة لكشف الله ﷻ عنهم هذه الشدة، كما حكم القرآن الكريم في سورة نوح: قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ ﴿ ١٠ ﴾ سورة نوح: ١٠.

أما وهم على ضلال ويريدون كشف الشدة، فهذا شيء صعب المنال، لذلك لجأوا إلى التشاؤم ليعلقوا أخطاءهم على غيرهم.

٦- إيجابية مؤمن آل يسن في أعلى صورها وأحسنها، حيث جاء من أقصى- المدينة، ويمشى بسرعة، وينصح قومه باتباع المرسلين، ويبين اخلاص الأنبياء وتجردهم فهم لا يطلبون منهم مالا أو أجره على دعوة الناس، ثم يبرر سبب إيمانه واتباعه لهم، وتحمل نتيجة هذا الايمان بالقتل، وأنه رأى الثواب مباشرة بدخول الجنة والتمتع بما فيها، وأنه تمني أن تصل رسالته إلا ليعلموا حاله الذي هو فيه من النعيم المقيم.

٧- من سنن الله في الأمم السابقة عند الإعراض والتكذيب، وعدم الايمان، نزول العذاب عليهم، فأماهم الله جميعا بصيحة واحدة فإذا هم ساكتون ساكنون خامدون لا حراك لهم، فخرسوا الدنيا والآخرة.

فليتعض أهل مكة، ولتتعظ جميع الأمم والشعوب المكذبة للدعوة الإسلامية، فقد يتليهم الله ﷻ بالنوازل والزلازل والبراكين والعواصف، لعلمهم يرجعون، وإذا سلموا من عذاب الدنيا فلن يسلموا من عذاب الله يوم القيامة.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من:

﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا

الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ سورة الزمر الآية (١٨).



(١٤) مؤمن آل فرعون دروس وعبر.

١- رسالة موسى لفرعون وحاشيته.

٢- مؤمن آل فرعون يصدع بالنصيحة والموعظة البليغة.

٢- دروس وعبر من القصة.



١- رسالة موسى لفرعون وحاشيته:

مؤمن آل فرعون قصة من قصص القرآن الكريم، جاءت مفصلة في سورة غافر من (٣٣-٤٦) وجاء عنها إشارة سريعة في سورة القصص (٢٠) وفي صورة نصيحة سريعة لموسى، بأن يعجل بالخروج السريع من مصر، لما يدبر له في بيت فرعون من القتل، بسبب القتل الخطأ الذي وقع فيه موسى.

وتبدأ القصة بتكليف الله لموسى بالرسالة مؤيداً بالمعجزات والأدلة والحجج والبراهين، وفرعون هو حاكم مصر في العصر الذي بعث فيه موسى، وهو يمثل القوى الحاكمة الأولى في البلاد، وهامان هو وزير فرعون، ويمثل القوى المفكرة والمدبرة، وقارون هو القوى المالية، فكان أكثر الناس مالا وتجارة وغنى في عصره وزمانه. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٣) إِلَى

فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ سورة غافر: ٢٣-٢٤.

فلما جاءهم موسى عليه السلام بالأدلة والبراهين على صدق نبوته، وصحة رسالته، بدأ فرعون هنا باستخدام القوى المفرطة، عقوبة لبني إسرائيل، أمر بقتل ذكور بني إسرائيل، وهذا هو القتل الثاني.

أما الأول فعند ميلاد موسى، ولإذلال الشعب، وتقليل عددهم، وعلّة القتل في الأمر الثاني لإهانة بني إسرائيل، ويتشاءمون بموسى، ولهذا قالوا: قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ سورة الأعراف: ١٢٩.

ومكر فرعون وجنده هذا في هلاك وضلال واضح مبين. قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴾ سورة غافر: ٢٥.

عزم فرعون على قتل موسى، فجعل ذلك في صورة تفويض من شعبه، وهو لا يحتاج إلى ذلك، لأنه خاف أن يعترض عليه بعض الحاشية والملاّ مما سيقدم عليه، ولا يبالي بما يفعل موسى حتى ولو دعا ربه، ففرعون في غاية الجحود والعناد والتصميم، وليمنعه ربه الذي أرسله ويخشى فرعون من موسى على الناس في أن يغير معتقداتهم.

لقد أصبح فرعون واعظاً مذكراً خائفاً على الناس من موسى، فإذا لم يغير معتقدات الناس، فسوف يظهر في الأرض الفساد، بتغيير الأحكام السائدة في عرف

وعصر فرعون. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ﴿٢٦﴾ سورة غافر: ٢٦.

فكان رد موسى ﷺ قال: استجرت بالله، واستعدت به من شره وشر أمثاله، من المتكبرين على الحق، وهذا تعريض بفرعون، وهو أفضل من التصريح في هذا المقام، ليعطيه فرصة في مراجعة النفس، وتصحيح المسار، لو فكر فيما يسمع ويقال.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ﴿٢٧﴾ سورة غافر: ٢٧. وفي الحديث عند الخوف من فرد أو جماعة أن يقول الإنسان: (اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ).



٢- مؤمن آل فرعون يصدع بالنصيحة والموعظة البليغة:

وهنا يظهر دور هذا الرجل المؤمن الذي يكتفم إبهانه، وهو قبطي من آل فرعون، والله ﷻ هو الذي صنع هذا الموقف ليكون مؤيدا لموقف موسى، ومحذرا لموقف فرعون قبل نهايته، ويكون جهة محايدة أمام فرعون، عله يسمع إلى صوت العقل، وهو نفسه الذي ذكره الله ﷻ في سورة القصص في قوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى ابْنُ الْمَلَأِ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ

وقيل إنه كان ابن عم فرعون، وكان يكتُم إيمانه عن قومه القبط، ولم يظهر إيمانه إلا في هذا اليوم، حيث غضب الله، وجهر بكلمة الحق فقال،

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴾ سورة غافر: ٢٨.

كيف تقتلون رجلا لكونه يقول ربي الله، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق، وهذا استفهام إنكاري بما يدل على صدقه، ثم تنزل معهم في المخاطبة، فقال إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به، فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه، فإن يك كاذبا فالله سيحاسبه على كذبه، فلا يضر-كم في شيء، وإن يك صادقا فينبغي أن لا تتعرضا له، فاتركوه وقومه يدعوهم ويتبعوا له.

وهذه تسمى المواعدة، أن يخلوا بينه وبين قومه، كما طلبها رسول الله ﷺ من قريش، فالله لا يوفق للصواب من أسرف على نفسه بالشرك والكفر، ويكذب على الله ﷻ بقول الباطل، وهذا تعريض بفرعون أيضا، فقد أسرف بمجاوزته للحدود كلها، وكذب على الله ﷻ وعلى الناس، ومن كان هذا شأنه كيف يهديه الله ﷻ ولم يسلك سلك الهداية وطلب الحق.

قال مؤمن آل فرعون محذرا فرعون وقومه من زوال نعم الله ﷻ عنهم، ومحذراهم من نزول نقمه وعذابه وانتقامه، إن الله ﷻ قد أنعم عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض النافذة، والجاه العريض، فراعوا هذه النعم بشكر الله ﷻ

وتصديق رسوله، واحذروا نقمته إن كذبتهم، فكل ما تملكون من جنود وعساكر وقوى لا ترد عنكم شيئاً من بأس الله إذا نزل بكم.

فما كان رد فرعون إلا قولاً سيئاً يعبر عن شخصية المتكبرة، ما أقوله لكم وأشير به عليكم إلا الصواب، وهذا كذب وافتراء منه، وهو من داخله يعرف الحقيقة التي سوف تسلبه هيئته، وتكبره، فغشهم وما نصحهم، وأضلهم وما هداهم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَقَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَهَرْنَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ سورة غافر: ٢٩. وما أهداكم إلا سبيل الرشاد، طريق الحق والصدق والرشد، وهو يكذب عليهم ومع ذلك يتبعونه: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ سورة هود: ٩٧. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ سورة طه: ٧٩.

قال مؤمن آل فرعون محذراً قومه من سوء العاقبة، ومن بأس الله وعذابه، إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب، الذين كذبوا رسل قومهم من قبل، مثل قوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة السابقة، وما حل بهم من العذاب، وما استطاع أحد أن يدفعه، أو يرده عنهم، أو يصدده صاد، وما الله يريد ظلماً لعباده بعدا بهم إلا بسبب ذنوبهم ومخالفتهم أمره.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَقَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَهَرْنَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ

إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ سورة غافر: ٢٩-٣١.

ثم حذرهم من عذاب الله يوم القيامة، حيث ينادي بعضهم بعضاً، والجميع يولون ظهورهم ذاهبين وهارين، بما يمنعكم من بأس الله وعذابه مانع، ومن يضل الله فما له من هاد، فمن أضله الله فلا يهديه أحد من البشر- أجمعين، لأن الهادي والموفق هو الله سبحانه وحده.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ سورة غافر: ٣٢-٣٣.

ثم ذكر مؤمن آل فرعون أهل مصر، فقد بعث الله ﷺ فيهم رسولا قبل موسى ﷺ وهو يوسف ﷺ كان عزيز أهل مصر، وكان رسولا من عند الله ﷻ إلى بني إسرائيل، فأطاعوه من أجل مصالحتهم، وقد دعاهم إلى التوحيد فقال

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَصْحَبِي السَّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ ءِإِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ سورة يوسف: ٣٩-٤٠.

فما زلتم في شك من عبادة الله وحده حتى إذا مات قلتم: لن يبعث الله من بعده رسولا، وذلك بسبب كفرهم وتكذيبهم وشكهم فحالهم كحالكم الآن،

كذلك يضل الله من هو مسرف في أقواله وأعماله، مرتاب في قلبه، وهذا تعريض بحال فرعون وحاشيته.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ سورة غافر: ٣٤.

والمسرفون والمرتابون هم الذين يجادلون في آيات الله، بتكذيبها، وإبطالها بغير حجة أو دليل، فإن الله يمقتهم على ذلك أشد المقت، وكذلك أهل الإيمان يمقتونهم، فالله يطبع على قلوبهم فلا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا، كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار، متكبر من عبادة الله وتوحيده، وجبار متعال عن اتباع الحق.

قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ سورة غافر: ٣٥.

بعد هذه الموعظة البليغة من مؤمن آل فرعون لفرعون، وزجره عما يفكر فيه من قتل موسى عليه السلام طلب فرعون من هامان أن يبني له قصرًا عاليًا مرتفعًا، يصعد فرعون فوقه، لعله يبلغ طرق السماوات، فيرى إله موسى، وهذا من كفر فرعون وتمرده وطغيانه، وفرعون يظن أن موسى عليه السلام كاذبًا في أن في السماء إلهًا، وبهذا العمل والصنيع أوهم نفسه ورعيته أنه يعمل شيئًا يتوصل به إلى إله موسى عليه السلام وما يفعله فرعون من كيد وحيل ما هو إلا في خسران وبطلان.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صِرَاحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زُينَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ سورة غافر: ٣٦-٣٧.

ويكرر موعظته مرة أخرى لمن تمرد وطغى، وأثر الحياة الدنيا من قومه، اتبعوا نصيحتي وما أقوله لكم من حق وصدق، أرشدكم وأدلكم على الطريق الذي يوصلكم إلى الجنة، وليس ما يقوله فرعون.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَتَّبِعُونَ آهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ سورة غافر: ٣٨.

ولقد بلغت موعظته مبلغا عظيما في مضمونها ومحتواها، فأراد أن يهديهم في الدنيا التي أثاروها على الآخرة، وصدتهم عن التصديق برسالة موسى عليه السلام فقال لهم: يا قوم هذه الحياة الدنيا قليلة زائلة فانية، سوف تذهب عن قريب وتضمحل، وأن الحياة الحقيقية التي لا زوال لها، ولا انتقال منها، هي الآخرة، والحياة فيها نعيم مقيم لمن آمن وكتب الله تعالى له حسن العمل والخاتمة، وأما الآخرة فهي دار الحساب والجزاء على ما قدم الإنسان في الدنيا، السيئة فيها بسيئة، والعمل الصالح من الذكر أو الأثني إنما جزاؤه الجنة، يوفى فيها أجره ورزقه، ثوابا كثيرا لا انقضاء ولا نفاذ له، فيصيب عليهم الرزق صبا بغير حساب، وبغير تقدير.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَعٌ وَإِنَّ الْأَخْرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾
 مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
 فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ سورة غافر: ٣٩ - ٤٠.

ثم وجه الخطاب إلى قومه فقال: ما لكم أخبروني كيف هذه الحال أَدْعُوكم إلى النجاة من النار بالإيمان، وتدعوني إلى الشرك الذي يوجب النار، أنتم تدعونني إلى الكفر بالله، وأن أأخذ معه شريكا لا أعلمه، ولا أنتم أيضا تعلمونه، بينما أنا أَدْعُوكم إلى عبادة الله العزيز في انتقامه من كفر به، وهو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه، فهو غفار لمن تاب إليه، فيعفوا عنه، ولا يضره شيء من عفوه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي
 لِأَكْفُرُ بِاللَّهِ وَأَشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ سورة
 غافر: ٤١ - ٤٢.

حقا لا كذب، إن الذي تدعونني إليه من الأصناف والأنداد ليس بشيء، لا ينفع ولا يضر، ولا يجيب داعية لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأن مرجعنا في النهاية إلى الله ﷻ فيجازي كلا بعمله، وأن الذين أسرفوا على أنفسهم بالشرك هم أصحاب النار، خالدين فيها بسبب إسرافهم ومجاوزتهم للحد في عبادتهم لغير الله.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا جُرْمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا
 إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ سورة غافر: ٤٣.

سوف تعلمون صدق ما نصحتكم به، ووضحت لكم، سوف تتذكرونه وتندمون عليه حيث لا ينفع الندم، وأفوض أمري إلى الله بأن أتوكل عليه وأستعينه، فهو الكافي لما تدبرونه من مكر، وما تتوعدونني به، فهو بصير بأوليائه وأعدائه، ثم خرج من بينهم وانضم إلى موسى عليه السلام ونجا معه في عبور البحر من ملاحقة فرعون وجيشه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ ٤٤ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَّرُوا وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ سورة غافر: ٤٤ - ٤٥.

فانقذه الله تعالى مما أرادوا به من الشر في الدنيا، وأنزل الله العذاب بفرعون على النار صباحا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، (ويوم تقوم الساعة) فعذاب القيامة أشد الماء، وأنكى عذابا، وفي ختام القصة، فتكون الآية دليلا على عذاب القبر أو البرزخ للروح، وفي السنة النبوية المطهرة من الأحاديث ما يبين ذلك ويؤكد.



٣- دروس وعبر من القصة:

١- التركيز في الدعوة على الرؤوس الكبيرة من المدعويين، فإذا قبلوا الدعوة فلهم تأثير قوي على من ورائهم من الأتباع، فيتبعونهم في معتقداتهم القديمة والجديدة، لذلك ذكر الله ﷻ إرسال موسى ﷺ إلى رؤوس القوم فرعون، وهامان، وقارون.

وبالرغم من أن دعوته موسى ﷺ الأصلية كانت لبني إسرائيل، لكن فرعون إذا آمن بموسى خلى بينه وبين بني إسرائيل، في بقائهم بمصر، أو خروجهم مع موسى، حسبما يأتيه من وحي من الله ﷻ.

والنبي ﷺ كان يركز في دعوته على رؤوس القوم من مكة، والقرى والقبائل التي حولها، ومصعب ركن في المدينة على الرؤوس، مثل أسعد بن زرارة، وسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وبإسلامهم أسلم من ورائهم من قبائلهم وعشائرتهم.

٢- حينما يفشل صاحب السلطة في الحوار والنقاش والإقناع، لضعف حجته، يلجأ إلى الغشم في استخدام القوة المفرطة، دون مراعاة لأي جوانب أخلاقية أو إنسانية، فلجأ فرعون إلى قتل الأبناء الذكور، كنوع من الإذلال، والتشاؤم بموسى ﷺ ودعوته، وتقليل نسلهم حتى لا يتكاثروا أمام أهل البلد من المواطنين سكان البلد.

٣- التضييل الفكري، والتزييف للحقائق، يلجأ إلى ذلك المستبد من الحكام حينما يشعر أن ملكه بدأ يتهاوى، وأن حكمه في خطر، ولا بد من حمايته بأي صورة، فطلب فرعون تعويضا من أتباعه بقتل موسى عليه السلام لأنه سوف يُبدل دين القوم، وأنه سوف يظهر الفساد في البلاد، رغم أن موسى نبي مرسل، ومؤيد بالمعجزات، وهم يعرفون أصله وتاريخه، وهم على يقين بصدقه، ومع ذلك يقفون هذا الموقف المضاد، خوفا على نفوذهم وسلطانهم.

٤- التعريض من موسى عليه السلام ومؤمن آل فرعون بفرعون في عدة آيات منها: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٢٧) سورة غافر: ٢٧.

وقال مؤمن آل فرعون: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ (٢٨) سورة غافر: ٢٨. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ (٣٤) سورة غافر: ٣٤. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (٣٥) سورة غافر: ٣٥.

فمن غير فرعون هو المقصود بهذه الآيات، إنه هو المقصود، لكن الآيات تأتي بصورة التعريض لا التصريح، وهذا من فقه الدعوة في مخاطبة المدعويين.

٥- ومن فقه الدعوة في قصة مؤمن آل فرعون، أنه كان يكتنم إيمانه في وسط مجتمع يمجج بالشرك والكفر، وتأليه البشر، وهو من الدوائر العليا المقربة في صناعة

القرار، وعند الحاجة الملحة جهر بكلمة الحق، وصدع بها في مواجهة الحاكم الظالم المستبد.

إنه أنكر عليهم قتل موسى دون جريمة أو ذنب فعله، وإنما بسبب قوله ربي الله، وأن معه الأدلة والبيّنات الواضحة من المعجزات، التي لا يقوى على فعلها البشر، وأنه قدم كذبه على صدقه ليدفع عن نفسه الشبهة في التعاطف معه، ولو فرضنا كونه كاذبا فسوف يعود كذبه على نفسه، ولو فرضنا صدقه فسوف يصبكم من منافعه، ثم ذكرهم بالاعتدال في النظر إلى الأمور وعدم الإسراف والكذب، حتى يحصل الإنسان على الهداية من الله.

٦- التذكير بالنظر في عواقب الأمور، والتحذير من آثارها السيئة، إذا أخذ الإنسان الطريق الخطأ، فذكرهم بأن الملك معهم اليوم، وأنهم أصحاب الحل والعقد في أمور العوام والرعية، وإذا لم يؤمنوا وجاءهم عذاب الله فماذا هم فاعلون، وحذرهم من أن تكون نهايتهم مثل نهاية الأمم السابقة المكذبة، وحذرهم من العقاب الوخيمة يوم التناد، حينما يحاولون أن يهربوا من عذاب الله، وليس لهم من عاصم غير الله ﷻ فماذا هم فاعلون؟.

٧- التذكير بنبوة يوسف عليه السلام ودعوته إلى التوحيد بين أهل مصر، فالتاريخ يذكره، وهم يذكرونه، حيث وضع خطة خمس عشرية أنقذت البلاد من مجاعة كانت ستأكل الأخضر واليابس، فالذي أرسل يوسف عليه السلام هو الذي أرسل موسى عليه السلام وآمن أهل مصر بيوسف عليه السلام فلماذا لا يؤمنوا بموسى عليه السلام ويوسف عليه السلام كان

وزيراً للزراعة والتخطيط، فشهرته معلومة في مجلس الحكم من قبل، وموسى عليه السلام تربى في بيت فرعون، ويعرفون تاريخه وأنه صادق، فإذا قبلوا يوسف عليه السلام نبياً من عند الله، فلماذا لا يقبلوا موسى عليه السلام كذلك؟.

٨- النظرة المادية من فرعون للأمر، واتباعه الهوى، فطلب من هامان أن يبني له صرحاً، حتى يصل إلى السماء أو يقترب منها؛ ليرى إله موسى عليه السلام وغاب عنه أن الذات الإلهية لا ترى في الدنيا، وأن الإيمان بها غيب، وقدم الحكم قبل مباشرة السبب فقال: وإني لأظنه كاذباً، دون دليل أو برهان، وصدق نفسه فيما زعم، وأخطر شيء أن يكون الإنسان على خطأ، ويظن أنه على صواب، أو أن يكون عمله سيئاً، بينما هو يراه حسناً، وفي نهاية الأمر وما كيد فرعون إلا في هلاك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ سورة فاطر: ٨.

٩- كلما كانت النصيحة مشفوعة بالدليل، كانت أقوى في الإقناع، وأدعى للقبول، فحينما نصحهم باتباعه، لأنه يدهم إلى سبيل الرشاد، بين أن الحياة الدنيا مدتها قصيرة وفانية، وأن الآخرة هي الباقية الدائمة، وأن الإنسان سوف يحاسب على عمله، وأن الجنة للمؤمنين الصادقين فقط.

فحجته قوية، وكلامه مقنع، لمن تجرد من الهوى، وابتعد عن المؤثرات، وأن المسؤول أو الناصح لا يعطي أوامراً للناس، ويحملهم على التطبيق، وإنما لابد من الإقناع والاستمالة، حتى تبلغ النصيحة موقعها.

١٠- المقارنة والمقابلة في خطاب ونصيحة مؤمن آل فرعون لتكشف حقيقة الأمر، فهو يدعوهم للنجاة، وهم يدعونه للنار، وهو يدعوهم للتوحيد، وهم يدعونه إلى الكفر والشرك، إن الشركاء ليس لهم ولاية ولا سلطة في الدنيا والآخرة، بينما الله ﷻ هو الذي يملك أمورهم، والمرد إليه وحده لا غيره.

١١- ذكرهم أنهم سوف يحتاجون لكلامه، وهو كان صادقاً معهم في نصيحته وموعظته لأقصى درجة، وأنه مفوض أمره إلى الله ﷻ فهو القادر على حمايته مما يمكرون ويكيدون، وأن الله بصير بعباده، فلا تخفى عليه خافية من الأمور، التي يدبرونها في الظلام.

لقد انضم إلى فريق المؤمنين بموسى ﷺ وهذه مفاصلة بعد النصيحة الصادقة، فنجوا معهم من الغرق بينما هم ماتوا على الكفر، وأغرقهم الله في الدنيا، وسوف يحاسبهم على أعمالهم يوم القيامة.

١٢- أخذ العظة والعبر من فرعون وآله، فجعلهم الله ﷻ لهم عذاباً بعد الغرق في القبر أو البرزخ لأرواحهم، فهم يعرضون عليها في الصباح والمساء، وفي يوم القيامة يدخلون النار؛ ليدوقوا أشد العذاب، فليحذر كل من سلك مسلك فرعون وآله من ذلك المصير الأليم، والعاقل من اتعظ بغيره.

وليعلم كل مؤمن وداعية يسلك مسلك مؤمن آل فرعون أن الله ﷻ حافظه ومنجيّه من المهالك، ولن يصيبه إلا ما كتبه الله له، وعند مكر الخصوم به فليلجأ إلى

دعاء مؤمن آل فرعون: قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَسَتَذَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ

إِنَّ اللَّهَ بِصِيرِ الْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ سورة غافر: ٤٤.

ومن فوض أمره إلى الله فإن الله لن يضيعه أبدا، خاصة في وقت الشدة

والابتلاء.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من:

﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا

الْأَنْبِيَاءِ ﴿١٨﴾ سورة الزمر الآية (١٨).



(١٥) قصة يوسف عليه السلام دروس وعبر.

١- يوسف عليه السلام ورؤياه وحواره مع أبيه.

٢- ابتلاءات يوسف عليه السلام والتمكين له.

٣- دروس وعبر من القصة.



قصة يوسف عليه السلام هي القصة الوحيدة في القرآن الكريم التي جاءت في سورة كاملة، وتسمى باسم صاحبها، ووصفها القرآن الكريم بأنها أحسن القصص. قَالَ تَعَالَى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنَّ الْعَاقِلِينَ ﴿٣﴾ سورة يوسف: ٣. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلْسَّالِبِينَ ﴿٧﴾ سورة يوسف: ٧.

وهي تحكي قصة يوسف عليه السلام منذ صغره، ورؤياه وشبابه، والابتلاء الشديد الذي تعرضه له، ودخوله السجن مظلوما ثم تأويله لرؤيا العزيز، وتبوءه لوزارة الزراعة والتموين، ومقابلته لإخوته، والحوار المتبادل بينه وبينهم، وجمع الله ﷻ له مع أبيه في مصر، وتحقيق الرؤيا التي رآها، وطلبه من الله ﷻ أن يميته على الإسلام، وأن يدخله في الصالحين. وصف الله ﷻ القصة بأنها أحسن القصص؛ لأنها جمعت أشياء كثيرة من الأشخاص، والحوارات، والابتلاء والفق، وكثيرا من العجائب والمفاجئات.



١- يوسف عليه السلام ورؤياه وحواره مع أبيه:

رأى يوسف عليه السلام وهو ابن سبع سنين رؤيا، أن أبويه وإخوته ساجدين له، فكنى عن ذكرهم بالشمس والقمر وأحد عشر كوكبا، ونصحه أبوه بأن لا يقصص رؤياه على إخوته، منعا للحسد والغيرة والكيد، ولأن ذلك مدخل من مداخل الشيطان للإنسان.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَئُ لَّا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ سورة يوسف: ٤ - ٥.

بشره أبوه بالاجتباء والاصطفاء والنبوة، وتعليمه تأويل الرؤيا وتعبيرها، وأن ذلك من كمال النعمة وتمامها على آل يعقوب، كما أتمها على آل إبراهيم واسحاق من قبل.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ سورة يوسف: ٦.

وتعد هذه القصة عظة وعبرة في كل أحداثها، تحدث إخوته عن عاطفة الحب التي بين أبيهم وبين إخوتهم من أب، يوسف وأخيه، فهم يرون أن أباهم بعيد عن الصواب في توزيع الحب بين الجميع، الأشقاء وغيرهم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ ﴿٨﴾ سورة يوسف: ٨.

لقد تشاوروا في أمر يوسف عليه السلام فأشار بعضهم بالقتل، وبعضهم قال: ضعه في غيابات الجبن أي في ظلامه، وهو بأرض الأردن، يأخذه بعض من يسير من القوافل التي تمر بالمكان.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَقْنَلُوا يُوسُفَ أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخُلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا

صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْنَلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْمَ فِي غِيبَتِ الْجَبِّ يَلْبَسُوهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ

كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ سورة يوسف: ٩-١٠.

طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم يوسف عليه السلام يلهو ويلعب، وهم سوف يحافظون عليه من كل سوء يلحقه، كما يحافظون على أنفسهم، فقال أبوهم إنه يجزني فراقه في ذاهبه معكم فلا أراه، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم مشغولون عنه، فيصيبه مكروه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمُرُنَا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا

عَدَا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ

الذَّئْبُ وَانْتُمْ عَنْهُ عَافُونَ ﴿١٣﴾ سورة يوسف: ١١-١٣.

قالوا كيف يأكله الذئب ونحن جماعة نستطيع أن نرد الذئب عنه، إنا إذا

لعاجزون عن حمايته والدفاع عنه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ سورة

يوسف: ١٤.

أرسله أبوه معهم، وعزموا على أن يلقوه في البئر، وأوحى الله إلى يوسف عليه السلام أن يخبر إخوته بما صنعوا في المستقبل، وهم لا يعرفونه حينئذ لطول الزمان، وتغير الحال.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ

بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ سورة يوسف: ١٥.

جاءوا في وقت العتمة ليعتذروا إلى أبيهم كذبا بأن يوسف عليه السلام أكله الذئب، حينما ذهبوا للسباق والرمي، وتركوا يوسف عليه السلام عند أمتعتهم وثيابهم، ويقولوا لأبيهم إنك لن تصدقنا فيما نقوله لك من أمر يوسف عليه السلام وإمعانا في الكذب ذبحوا جدياً وغمسوا ثوب يوسف عليه السلام فيه، بدون قطع أو خدش من الذئب، وانتبه أبوهم لذلك، فقال بل زينت لكم أنفسكم شيئا غير ما تصنعون، وغير ما تقولون.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَاءَ آبَاَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا بَنَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا

يُوسُفَ عِنْدَ مَتَلَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّبُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَهُ عَلَى

فَمِصْرِهِ يَدْمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ

﴿ ١٨ ﴾ سورة يوسف: ١٦-١٨.

فصبر أبوهم نفسه على فراق ولده، واستعان بالله على كذب أولاده

ومكرهم.

ومرَّ بالبئر قوم يسيرون، فأرسلوا واحدا يستقي لهم الماء، فأرسل دلوه، فوجد غلاما فأسّر أمره، واعتبره بضاعة لهم، والله يعلم تفاصيل كل شيء يعملونها.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ. قَالَ يَبُشْرَى هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بِضْعَةَ وَاثَلَّةٍ عَلَيْهِمْ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ سورة يوسف: ١٩ - ٢٠.

وباعه من أخرجه من البئر بثمان قليل سواء كان وإخوته أو غيرهم، وكانوا من الزاهدين فيه، والذي اشتراه من مصر بعشرين دينارا، وزوجي نعل، وثوبين أبيضين، وقال لامرأته أحسني معاملته ربما نبيعه ونربح فيه، أو نتبناه ولدا لنا، وكان عزيز مصر لا ينجب.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَهُ، وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ، مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ سورة يوسف: ٢١.

فالذي أنجاه من البئر ومن كيد إخوته إنما هو الله ﷻ وأعطى الله يوسف التفسير البشري بملك مصر، فجعله على جزائنها قبل أن يدخل في المحنة والابتلاء، وعلمه الله تأويل الأحلام، والله غالب في قضائه، ولا أحد يعلم ماذا سيصنع الله بيوسف ﷻ وإليه تصير الأمور في المستقبل.

وحينما بلغ قوة الشباب أعطاه الله الفقه والعقل، والله سيعطي كل من كان

محسناً في عمله مثل يوسف ﷻ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

سورة يوسف: ٢٢.

ولقد طلبت منه زوجة العزيز أن يواقعها، وزينت نفسها له، فاستعاذ بالله من ذلك، وأثنى على صاحب الدار خيرا، فقد أحسن معاملته، فلا يجوز له أن يخونه في أهله، فأما زليخا فدعته بصريح العبارة.

وأما همه ففيه خلاف لكنه يفسر بما يناسب مقام يوسف النبي ﷺ، وقد أراه الله برهانا ليصرف عنه السوء والفحشاء، إنه من عباد الله المخلصين في دينهم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَعَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۗ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجَا بُرْهَانَ رَبِّهِ ۗ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

سورة يوسف: ٢٣-٢٤.

واستبق يوسف ﷺ مع امرأة العزيز إلى الباب، كل واحد يريد أن يسبق الآخر، يوسف ﷺ يريد فتح الباب ليخرج، وامرأة العزيز تريد إمساك الباب لئلا يخرج، فأدركته وأمسكت بقميصه من خلفه فقطعته، فهو كان الهارب، وهي الطالبة له، فصادفا زوجها عند الباب، فكادت ليوسف ﷺ كاذبة وسبقته في الكلام، وقالت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءا، إما السجن وإما الضرب بالسياط.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ۖ وَأَلْفَيَْا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ۗ قَالَتْ مَا

جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

سورة يوسف: ٢٥.

فغضب يوسف عليه السلام ودافع عن نفسه، وقال هي راودتني عن نفسي، وقال ابن عم لها وكان حكيماً: ننظر إلى ثوبه، إن كان شق من قدامه فهي صادقة، وإن كان شق من دبره، فهو صادق، وهي كاذبة، وكانت هذه الشهادة أبلغ في تبرئة يوسف عليه السلام، فلما رأوا الدليل لصالح يوسف عليه السلام قال زوجها هذا الذي صنعتيه وقتليه من كيدكن، إن عملكن في دفع الاتهام عن نفسها عمل عظيم الكيد.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي ۖ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ سورة يوسف: ٢٦-٢٧.

قال زوجها ليوسف عليه السلام أكتم هذا الأمر ولا تذكره لأحد، وقال لزوجته توبي من ذنبك فقد أثمت وكنت من المذنبين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ سورة يوسف: ٢٨-٢٩.

شاع هذا الحديث في مصر، حتى تحدث فيه النساء، فقال أربع نسوة ممن يترددون على بيت الملك، فقالوا طعنا فيها، وتحقياً لبراءة يوسف عليه السلام: إن هذا الفتى قد بلغ شفاف قلب امرأة العزيز في الحب والهيام، فهي بعيدة عن طريق الرشد والصواب.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۗ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۗ إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ سورة يوسف: ٣٠.

كانت امرأة العزيز قد أطلعت النسوة على أمرها، واستكتمتهن، فمكرن وأفشين سرها، فجهزت لهن مجلسا عليه طعام وشراب حديث.

وقد فعلت ذلك حتى تريهم يوسف عليه السلام، وكانت أعطت كل واحدة منهم سكيئا من أجل الطعام، فلما رأين يوسف عليه السلام أعظمه، وحززن أيديهن، وكن يحسبن أنهن يقطعن طعاما، وقلن: معاذ الله أن يكون بشرا ممن يريد السوء والفحشاء، فهو ملك كريم في شكله وكماله.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا ۖ وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ سورة يوسف: ٣١.

اعترفت امرأة العزيز أمامهن فقالت هذا الذي لمتني في حبه، ولقد راوته عن نفسه فامتنع، وإذا لم يفعل ما أريد فسوف يكون من أصحاب العقوبة المهنية.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ۖ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيَسْجَنَ ۖ وَليَكُونَ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴾ سورة يوسف: ٣٢.

طلبت امرأة العزيز من النسوة أن يرضن يوسف عليه السلام مرة أخرى تحت التهديد بالسجن، فاختر السجن على الوقوع في الحرام والفاحشة، وطلب من الله

أن يعصمه ويصرف عنه الكيد، فاستجاب الله له، وصرف عنه كيدهن، وعصمه وحماه فامتنع أشد الامتناع.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ سورة يوسف: ٣٣ - ٣٤.

ثم ظهر لهم بالقول والفعل والفكر سجنه إلى حين، قد يقصر - أو يطول، فوصل إلى سبع سنين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ بَدَأ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لِيَسْجُنَنَّهُ فَحَتَّىٰ حِينٍ ﴾ سورة يوسف: ٣٥.

وحينما أدخلوه السجن كان معه فتیان، كان ملك مصر - معمرًا في السن، ومله الناس، فدسوا له السم مع الخباز، وساقى الخمر، فحبسها حتى ينظر في أمرهما، فكل واحد رأى في منامه شيئًا فقصاها على يوسف عليه السلام، فقال الساقى للخمر إني أراني أعصر خمرا، وقال الخباز رأيت كأن فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه، وطلبا من يوسف عليه السلام التفسير، حيث كان صاحب أدب أخلاق عالية.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٦) سورة يوسف: ٣٦.

وقبل تفسير الرؤيا كان يخبرهما بالطعام قبل أن يأتي إليهما، وهذا مما أطلع به الله عليه، فليس بساحر ولا عراف، وليس من أصحاب النجوم، فهو قد برئ من ملة الكفر ممن لا يؤمن بالله ولا يقر بوحدانيته، ولا يقر بالمعاد والبعث، وأنه قد اتبع دين آبائه على التوحيد الخاص إبراهيم واسحاق ويعقوب، فقد عصمهم الله من الشرك، ودلهم الله على دينه بتوفيق منه، وجعلهم أنبياء وبعثهم إلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون نعم الله ﷻ فيوحدونه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَ تَكْمَا بِتَأْوِيلِهِ ۗ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا ۗ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۗ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ۖ ابْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۗ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۗ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ سورة يوسف: ٣٧-٣٨.

قال لأصدقاء السجن: هل الأرباب المتفرقة من الأصنام خير وأعظم صنعة في المدح، أم الأحق بالألوهية الكاملة من الأصنام إنما هو الله الواحد المنقطع القرين؟ المعدوم الشريك والنظير، الذي قهر الجبارة من عتاة خلقه بالعقوبة، وقهر الخلق كلهم بالموت؟.

ما تعبدون من دون الله من الأرباب والآلهة، فهي أسماء فارغة لا تصح معانيها، ليس هناك حجة أو دليل على عبادتها، فالقضاء والأمر والنهي لله، وهذا هو دين التوحيد، وأكثر الناس لا يعلمون ثواب الطائعين، وعقوبة العصيين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَصْحَبِي السِّجْنِ ۖ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۗ﴾ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَلِكَ الَّذِي يُقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾
سورة يوسف: ٣٩ - ٤٠.

ثم عبر لهم الرؤيا، فقال للساقى بعد ثلاثة أيام من الآن: يبعث إليك الملك فيردك إلى عملك، فتكون أحسن ما كنت فيه، وقال للخباز بعد ثلاثة أيام يأمر الملك بقتلك وصلبك، وتأكل الطير من رأسك، فقالا ما رأينا شيئا، فقال سيقع بكما ذلك صدقتما أو كذبتما.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَصْحَبِي السِّجْنِ ۖ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۚ فَضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ۗ﴾ (٤١) سورة يوسف: ٤١.

قال للساقى اذكرني عند صاحبك وهو الملك، فأنسى الشيطان ذكر يوسف عليه السلام لربه أي عند سيده الملك، فلبث في السجن بضع سنين، عقوبة له على تعلقه بمخلوق.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ۗ﴾ (٤٢) سورة يوسف: ٤٢.

لقد رأى ملك مصر في منامه سبع بقرات سما، خرجن من البحر، في آثارهن سبع عجاف شديدة الضعف، فأقبلت العجاف على السمان فأكلتهن، ولم يزد في العجاف شيء، ورأى سبع سنبلات خضر، وقد أقبل عليهن سبع يابسات

فأكلتهن، حتى أتين عليهن، ولم يزد في الياسات شيء، فدعا أشراف قومه فقصها عليهم، فقالوا أضغاث أحلام، وذلك عندما قال: يا أيها الملأ أفتوني في رؤيائي إن كنتم للرؤيا تعبرون، فليس عندهم تأويل معلوم محدود.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ سورة يوسف: ٤٣ - ٤٤.

حيث تذكر الساقى شأن يوسف عليه السلام وما وصاه به، فطلب من الملك أن يرسله إلى يوسف عليه السلام ليعبر لهم الرؤيا، فقال لعلهم يعلمون بمكانك، فيكون سبب خلاصك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّتِهِ أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ (٤٥) سورة يوسف: ٤٥.

فقال يوسف عليه السلام: هذه سبع سنين مخصبات، ومن بعدها سبع سنين شداد، إلا أن يحتال هن، فانطلق الرسول إلى الملك فأخبره كيف يصنع؟ فقال تزرعون سبع سنين متوالية على عادتكم، وما يخرج من الزرع فأبقوه في سنبله، فإنه أبقى له وأبعد من الفساد، ثم يأتي سبع شداد مجدبات تشد على الناس، يذهبن ما قدمتم هن من السنين المخصبات، إلا قليلا مما تدخرونه في السنابل والمخازن، وهذه خطة بعون الله أحصن وأبقى لسنابلكم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ
وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ
سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ
يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ سورة يوسف: ٤٦ - ٤٨.

ثم زاد يوسف عليه السلام علم عام أطلعه الله عز وجل عليه، يصيب الناس الغيث،
فيكون الخصب، ويكثر فيه عصر العنب والزيت والثمرات، ويكثر العطاء والخير
من الله عز وجل.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴿٤٩﴾ سورة
يوسف: ٤٩.

فلما أخبر الساقى بالتأويل فقال اتئوني به فرفض أن يخرج حتى تستبين
براءته مما اتهم به، وطلب منه أن يسأل الملك عن شأن النسوة حتى تبين براءته، فكره
أن يراه الملك بعين مشكوك في أمره، أو متهم بفاحشة، وقال إن ربي يعلم براءتي مما
اتهموني به.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ اتُّوْنِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَأْسُ
الَّذِي قَطَعَنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ سورة يوسف: ٥٠.

فسأل الملك النسوة عن شأنهن وقصتهن، فشهدن ببراءة يوسف عليه السلام من
السوء، فاعترفت امرأة العزيز، وقالت الحق، وتابت إلى الله عز وجل ولما وصل خبر براءة

يوسف عليه السلام إليه قال ذلك ليعلم الملك أني لم أخنه في زوجته حينما غاب عنها، وأن الله لا يرشد من خان أمانته، ويفضحه في عاقبته.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتُنِّي يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ ۗ قُلْتُ خَشِيَ اللَّهُ مَا عُلِّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۗ قَالَتْ أُمْرَأَتُ الْعَزِيزِ إِنَّهُنَّ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ۗ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ ۗ وَانَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ سورة يوسف: ٥١-٥٢.

أمام هذه الحقيقة الواضحة، التي قامت على اعتراف الشهود، أعلنت امرأة العزيز اعترافها بخطئها، وأنه من ضعف نفسها أمام رغباتها وهواها، فما تم من خطأ إنما هو من النفس الأمارة بالسوء، والله غفور رحيم لمن عاد إليه تائباً، وطلب منه العفو والمغفرة والرحمة، والصفح الجميل.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ۗ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۗ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ سورة يوسف: ٥٣.

فلما تبين للملك عذر يوسف عليه السلام وعلم أمانته، قال اتنوني به اجعله خالصاً لي، فأنت اليوم الوجيه والأمين والحافظ، ثم طلب منه أن يجعله على خزائن الأموال، فهو حفيظ للأمانة، عليم بالمجاعة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ اتنوني بي ۖ اسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۗ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ۗ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۗ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ﴿٥٥﴾ سورة يوسف: ٥٤-٥٥.

إن كل ما وقع ليوسف عليه السلام من بلاء ثم تمكين، إنما هو بتقدير الله، فكان ينزل بأرض مصر حيث أراد، وهذا من اختصاص الله عز وجل له بالنبوة والإحسان في الدنيا، وما أعده الله عز وجل له في الآخرة خير مما أعطاه في الدنيا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْأَلَاءَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ سورة يوسف: ٥٦-٥٧.

تلطف يوسف عليه السلام للناس، ودعاهم للإسلام فآمنوا وأحبوه، فلما أصاب القحط الناس، أرسل يعقوب من أرض كنعان ولده للميرة، فقد انتشر عدله ورحمته ورأفته، فدخلوا على يوسف عليه السلام وانتسبوا له فعرفهم، وهم له منكرون لا يعرفونه، بسبب زيه وحليته ومكانته.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ سورة يوسف: ٥٨.

فهياً لكل رجل منهم بعيراً وأتمه، وأحسن ضيافتهم، ثم طلب منهم الاتيان بأخيهم، والا فلا كيل فيما بعد، ولا تقربوا بلادي ولا تأكلوا من خيراتها.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِي ﴿٦٠﴾ ﴾ سورة يوسف: ٥٩-٦٠.

قالوا سنطلبه من أبيه، ونجتهد في ذلك، وإنا لآتوك به، وضامنون لك المجيء، وقال لغلمايه اجعلوا بضاعتهم التي اشتروا الطعام في رحالهم لعلهم يعرفونها فيرجعون مرة أخرى، فجعل دراهمهم في رحالهم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا سَتَرُوا مِنْهُ آبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْنَيْنِهِ أَجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ سورة يوسف: ٦١-٦٢.

فلما عادوا إلى أبيهم قالوا قدمنا على خير رجل أنزلنا، وحكم علينا بمنع الكيل بعد هذا الوقت، فإن أرسلت أخانا معنا اكتلنا، وإلا فقد منعنا الكيل، وإن له لحافظون من أيناله مكروه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ سورة يوسف: ٦٣.

قال لا آمنكم عليه إلا كأمني على يوسف عليه السلام، إذ لم ينفعني وعدكم لي في شيء، فالله خير حافظ له منكم، وهو يرحم ولدي ولا يضيعه، وسوف يحفظه ويرده على.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَأَلَّهِ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ سورة يوسف: ٦٤.

ولما فتحوا أوعية الطعام، وجدوا بضاعتهم التي حملوها ثمنًا للطعام أعيدت بذاتها، فلنسنا نطلب منك دراهم نرجع بها إليه، فأرادوا تطيب قلبه ليأذن لهم

بالعودة، ونجلب دفعة جديدة من الطعام، ونحفظ أخانا الذي ترسله معنا، ونزداد حملا جديد نصيب أخينا، لأن يوسف عليه السلام كان يعطي الفرد حمل بعير واحد فقط، ذلك كيل سريع لا حبس فيه، فإذا جاء معنا عجل الملك بالكيل.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَنَاتَنَا مَا بَنَيْ هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾
سورة يوسف: ٦٥.

قال لن أرسله معكم حتى تعطوني عهدا، فتحلفوا لي بالله لتردنه إلي إلا أن يهلك جميعكم، فحلفوا له، فقال الله كفيلا بالوفاء إن ختمت عهدكم لي، وكذبتهم على بإيمانكم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾
سورة يوسف: ٦٦.

ولما تجهزوا للرحيل، قال لهم أبوهم، لا تدخلوا من باب واحد فقد خاف عليهم من العين والحسد، فكانوا أصحاب جمال وقوة، ولن أستطيع أن أدفع عنكم شيئا من قضاء الله، فإنه إن شاء أهلككم متفرقين، فالله يحكم في خلقه بما يشاء، فينفذ فيهم حكمه، وإلى الله أفوض أموركم، فأنا واثق به ومتوكل عليه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَمْتُمْ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾
سورة يوسف: ٦٧.

ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم من أبواب متفرقة، فهذا لا يغني عنهم من قضاء الله شيء، لكن حاجة في نفس يعقوب أباها وتكلم بها، وهو يعلم أن أمر الله لا يغني عن وقوعه شيء، ولكن كثيرا من الناس لا يعلمون ما يعلمه الله.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٨) سورة يوسف: ٦٨.

ولما دخل إخوة يوسف عليه السلام عليه، ضم أخاه الشقيق إليه، وحبسهم بالباب، وأخبر أخاه بأنه يوسف عليه السلام، واعتنقه، وقال لا تحزن ولا تستكن، من حسدهم، وحرصهم على صرف وجه أينا عنا، فليس لهم ذلك من الآن.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَأْوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٩) سورة يوسف: ٦٩.

فلما أوفى لهم الكيل، وجعل لأخيه بغيرا مثل الجميع، جعل السقاية في رحل أجيء، ولما ارتحلوا أرسل في طلبهم، فأدركوا وحبسوا، وأعلمهم أنهم سارقون.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ (٧٠) سورة يوسف: ٧٠.

قالوا وأقبلوا على المعلم وأصحابه: ما الذي ضل عنكم؟ فقالوا نفقد إناء الملك، ومن يأتي به فله حمل من الطعام، وأنا كفيل لمن رده بالحمل.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا وَقَبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ
وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ سورة يوسف: ٧١-٧٢.

قالوا أي والله أنتم تعلمون ما جئنا لنظلم أحدا، وما كنا نسرق شيئا. قال
المنادي فما جزاء من سرق صواع الملك إن كنتم كاذبين في قولكم؟ قالوا يستعبد
بذلك، وهذه كانت سنة آل يعقوب.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾
قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ
نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ سورة يوسف: ٧٣-٧٥.

فبدأ بتفتيش أمتعتهم لإزالة التهمة، حتى وصل إلى وعاء أخيه، قال ما أظن
أن هذا أخذ شيئا، فقالوا لا نبرح حتى ننظر في رحله فهو أطيب لنفسك، فلما فتحوا
متاعه وجدوا الصواع، فقالوا لأخيهم أي شيء صنعت فضحتنا وأزريت بأبيك؟.

فقال وضع هذا في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالكم، وهذا من تدبير
الله ﷻ ليوسف ﷺ ألهمه الله إياه، ما كان ليأخذ أخاه في قضاء الملك، حتى اظفره
الله بمراذه، فالله يرفع درجات من يشاء بصنوف العطاء، وفوق كل ذي علم رفعه
الله من هو أعلم منه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ
كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ
وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ سورة يوسف: ٧٦.

قالوا إخوة يوسف عليه السلام عن أخيهم إن سرق فقد سرق أخوه من قبل،
يقصدون يوسف عليه السلام فأسر يوسف عليه السلام هذه الكلمة في نفسه، ولم يجبهم عليها،
فقال أنتم شر صنيعا من يوسف عليه السلام، لما قدمتم عليه من ظلم أخيكم وعقوق
أبيكم، والله أعلم أسرق له أم لا؟

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي
نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ سورة
يوسف: ٧٧.

قالوا إن له أبا شيخا كبيرا في سنه وقدره، فخذ أحدا منا تسترقه بدلا منه، إنا
نراك من المحسنين في تعاملك معنا، من إكرامك لنا بالعطاء والمنح، قال أعود بالله
أن نأخذ بريئا بسقيم، إنا إذا لظالمون إن فعلنا ذلك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا
نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعِنَا بِهِ إِنَّا إِذَا
لَطَلِمُوا لَطَلِمُوا ﴾ سورة يوسف: ٧٨ - ٧٩.

فلما أيسوا من يوسف عليه السلام أن يخلي سبيل أخيهم، اعتزلوا الناس ليتشاوروا
فيما بينهم، قال كبيرهم في العقل: ألا تذكرون أن أباكم أخذ عليكم موثقا في حفظ
أخيكم ورده إليه؟ وتذكروا تفريطكم في يوسف؟ فلن أخرج من أرض مصر، حتى
يرسل إلي أن آتية، أو يرد أخي علي، وهو خير الحاكمين أي أعدلهم وأفضلهم
مطلقا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ
 أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ
 لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ سورة يوسف: ٨٠.

ارجعوا إلى أبيكم فقولوا له إن ابنك أخذ ما لا يحل له، وما شهدنا عليه
 بالسرقة إلا بما علمنا، لأننا رأينا المسروق في رحله، ولم نعلم ما صنع بالليل، فلو
 رأيناه لاستدركنا عليه فعله وصنيعه.

قولوا له سل أهل القرية التي كنا فيها بمصر، وأهل العير الذين كانوا معنا،
 وإنا لصادقون فيما أخبرناك من خبره.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَرْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا
 عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا
 لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ سورة يوسف: ٨١-٨٢.

قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا غير ما تصفون، فهو ما سرق، فشان
 صبر لا جزع ولا ضجر فيه، عسى الله أن يأتيني بهؤلاء الثلاثة، إنه العليم بشدة
 حزني، الحكيم فيما حكم علي، فأعرض عن أولاده، وطال معهم الخطب، وانفرد
 بحزنه، وحرك عليه حزن يوسف عليه السلام، وقال يا شدة حزني على يوسف عليه السلام،
 وذهب بصره من البكاء، وهو ممسك به فلا يظهره.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْضَتَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ سورة يوسف: ٨٣ - ٨٤.

قالوا لا تزال تذكر يوسف عليه السلام، حتى تكون من المرضى أو الموتى، قال إنما أشكو حزني إلى الله لا إليكم، وأعلم أن رؤيا يوسف عليه السلام صادقة، وأنا سنسجد له كما قال في رؤياه، يا أولادي تحسسوا خبر يوسف عليه السلام وأخيه، ولا تياسوا من رحمة الله وفرجه، فالمؤمن يرجو الله في الشدائد والمحن، كما يرجوه في الرخاء.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذَكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَبْنِي أَدْهَبُوا فَتَحَسَبُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ زَوْجِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ زَوْجِ اللَّهِ إِلَّا الْفَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ سورة يوسف: ٨٥ - ٨٧.

فدخلوا على يوسف عليه السلام وقالوا مسنا وأهلنا الفقر والحاجة، وجئنا بدراهم قليلة، فأوف لنا الكيل، أتمه لنا ولا تنقصه لرداءة بضاعتنا، فتصدق علينا بشيء وسط بين الجيد والردئ، إن الله يجزيك إن تصدقت علينا، لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن بعد.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُرَجَّةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ سورة يوسف: ٨٨.

فسألهم يوسف عليه السلام عما فعلوا به من بيعه كرقيق، وأخرج لهم كتاب الرق فاعترفوا، فهددهم بالعقوبة ثم رق لهم، فكشف لهم عن حقيقة نفسه، وعظم ما اقترفوا من ذنب، فشبّهه بيوسف عليه السلام لقرب الشبه، فأظهر لهم اسمه؛ لأنه هو المظلوم منهم، وهذا أخي وهم يعرفونه، أي المظلوم كظلمي، قد من الله علينا بخير الدنيا والآخرة، إنه من يتق الله ويصبر على المصاب، فإن الله عز وجل لا يضيع أجر من كان هذا حاله من المحسنين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ (٨٩) قَالُوا أَيْ تَأْتِكِ لِأَنْتِ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٩٠) سورة يوسف: ٨٩-٩٠.

قالوا تالله لقد اختارك الله علينا، وفضلك بالصبر والإحسان والملك، وإن كنا لمذنبين وآثمين في أمرك، فقد أخذتنا الغيرة منك كل مأخذ، حتى فعلنا فعلتنا. قال لا تثريب عليكم اليوم، فلا أعيركم بذلك، فعفا عنهم، ودعا الله لهم بمغفرة ذنوبهم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ أَلْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٩٢) سورة يوسف: ٩١-٩٢.

أمرهم أن يأخذوا قميصه ويعودوا به إلى أبيهم فيلقوه على وجهه فيعود مبصرا، وأتوني بأهلكم أجمعين، وكانوا نحوا من سبعين إنسانا، من أولاد يعقوب وذريته.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٩٣﴾ سورة يوسف: ٩٣.

ولما خرجت القافلة من مصر متوجه إلى أرض كنعان، قال أبوهم يعقوب عليه السلام لمن حضر من أولاده وقرابته: إني أشم ريح يوسف عليه السلام لولا أن تجهلون وتسفهمون وتغلظون على القول، فقال بعض أحفاده إنك تعيش في خطئك القديم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ سورة يوسف: ٩٤-٩٥.

فلما حضر من يحمل القميص ألقاه على وجه يعقوب عليه السلام فرجع بصيرا كما كان من قبل، فقال لهم ألم أقل لكم إني أعلم من رحمة الله وقدرته ما لا تعلمون، فسألوه أن يستغفر لهم ما أتوا لأنه نبي مجاب الدعوة، وهم اعترفوا بذنوبهم وظهر تقصيرهم، فأخبرهم حين وقت إجابة الدعاء، وقال سوف استغفر لكم ربي إنه هو الساتر على ذنوب التائبين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَنَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَأَرْتَدَّ بُصِيرًا قَالِ الْمَ أَقْلَ لَكُمْ
إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ
أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ سورة يوسف: ٩٦ - ٩٨ .

فلما دخل يعقوب وولده أرض مصر، قال لهم يوسف عليه السلام ادخلوا مصر -
مستوطنين آمنين، وأوى إليه أبويه، وأجلسهما على سرير المملكة، وخرّ الجميع له
سجدا، أي كهيئة الركوع كما يفعل الأعاجم مع ملوكهم، فأراه الله تعالى رؤياه يقظة،
وقيل مدة ما بينهما أربعون سنة، وقيل اثنان وعشرون سنة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ
اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ
قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴿١٠٠﴾ سورة يوسف: ٩٩ - ١٠٠ .

وقد أحسن الله إلى إذ أخرجني من السجن، حينما كنت فيه مظلوما، وجاء
بكم من البادية، فكانوا قوما أهل ماشية ورعي، من بعد أن أفسد الشيطان بيننا،
وربي لطيف عالم بدقائق الأمور، لطيف بار بعباده من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم
مصالحهم من حيث لا يحتسبون، ثم تاق يوسف عليه السلام إلى الجنة وعلم أن الدنيا لا
تدوم فسأل ربه حسن الخاتمة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ
الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ سورة يوسف:

يشكر يوسف عليه السلام الله على نعمه الكثيرة منها ملك مصر، وعلمه تعبير الرؤيا، وأثنى على الله بما هو أهله، بأنه خالق السماوات والأرض، أنت الذي تتولى أمري في الدنيا والآخرة، وطلب من الله أن يميتة على الإسلام، ويلحقه بدرجات الصالحين في الجنة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ سورة يوسف: ١٠١.

هذه القصة كانت من الغيب على النبي محمد عليه السلام وأنزلها الله عليه السلام على نبيه محمد عليه السلام دليل على نبوته، لأنه لم يشاهد هذه القصة ولم يحضر أحداثها، ولم يقرأها في كتاب من قبل، وهذا دليل على أنها من الوحي المنزل على نبيه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ سورة يوسف: ١٠٢.

ولقد سألت قريش النبي محمد عليه السلام عن طريق اليهود عن قصة يوسف عليه السلام فأخبرهم بها مفصلة، وهو يؤمل أن تكون سببا لإسلامهم، فخالفوا ظنه فحزن رسول الله فعزاه الله بقوله:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ سورة يوسف: ١٠٣-١٠٤.

وختم الله السورة والقصة بقوله، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ

بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ سورة يوسف: ١٠٨.

وقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ

وَلَكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

سورة يوسف: ١١١.

ففي خبر يوسف عليه السلام وإخوته عظة لذوي العقول السليمة، فالذي جرى له

من الله في الابتلاء ثم التمكين هو سنة الله، مع الأنبياء وفي الدعوات، ووجه الشبه،

قوي بين ما وقع ليوسف عليه السلام وما وقع لخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم.



٣- دروس وعبر من قصة يوسف عليه السلام.

١- الابتلاء قبل التمكين.

٢- يوسف عليه السلام الداعية السجين.

٣- يوسف عليه السلام وزير التخطيط والزراعة.



١- الابتلاء قبل التمكين:

من سنن الله ﷻ في الدعوات الابتلاء قبل التمكين، وهذه من سنن الله ﷻ الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل، قَالَ تَعَالَى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (سورة الفتح الآية (٢٣)).

سأل رجل الإمام الشافعي -رحمه الله- فقال: (يا أبا عبد الله، أيما أفضل للرجل، أن يمكن أو يبتلي؟ فقال الشافعي -رحمه الله-: لا يمكن حتى يبتلي، فإن الله ابتلي نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- فلما صبروا مكنهم، فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم البتة، وهذا أصل عظيم، فينبغي للعاقل أن يعرفه، وهذا يحصل لكل أحد) الفوائد لابن القيم ص ٢٠٨.

ويوسف عليه السلام واحد من هؤلاء الدعاة السابقين، تعرض لفتنة عاصفة في أمر دينه، حيث أغرته امرأة العزيز، بما تملك من زينة وجمال.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ. وَعَلَّقَتْ الْأَتُوبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ^ع

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ سورة يوسف الآية (٢٣).

لقد حفظه الله ﷻ من الوقوع في الحرام والفاحشة، رغم أنه شاب في عنفوان الشباب، والعزيزة الجنسية عمياء لا ترى، صماء لا تسمع، بكماء لا تتكلم، تلح على صاحبها أن يجد مصرفاً لها، ورغم أنه بعيد عن أعين البشر، إلا أنه اعتصم بالله فعصمه، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِّي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ

يَفْعَلْ مَاءَ امْرَأَتِهِ لَيُسْجَنَنَّ وَيَكُونَ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ سورة يوسف الآية (٣٢).

وسبب العصمة، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ سورة يوسف الآية

(٢٤).

فمن عرف الله في الرخاء عرفه الله في الشدة. لقد تعرض يوسف ﷻ لفتنة في دينه وفتنة في دنياه، فاختار يوسف ﷻ فتنة الدنيا على فتنة الدين، فقبل أن يدخل السجن مظلوماً، على أن يخسر جزءاً من دينه، بوقوعه في الحرام والفاحشة.

فمر يوسف ﷻ بالابتلاء الشديد، ونجح فيه، فكانت الثمرة التمكين في الأرض، ولقد كان الابتلاء شديداً، فدخل السجن مظلوماً بتهمة لم يرتكبها، وقبل ذلك بنفس راضية مسلمة، وأوكل أمره إلى الله ﷻ لأنه لا يقع في كون الله إلا ما أَرَادَهُ اللَّهُ ﷻ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ

أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٤﴾

تُغَرِّبَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ سورة يوسف الآية (٣٣-٣٥).



٢- يوسف عليه السلام الداعية السجين:

بالرغم من أن سجن يوسف عليه السلام كان ظلماً وعدواناً، لكن لم يمنعه ذلك من مواصلة طريق الدعوة، وتقديم النصيحة، وهو في السجن، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَثَنَا بِنَاؤِهِ وَإِنَّا نُرْزَقُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ سورة يوسف من الآية (٣٦).

لقد توسل فيهِ الصلاح والتقوى، بسبب أخلاقه العالية، فقال له كما حكى القرآن الكريم: ﴿إِنَّا نُرْزَقُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ سورة يوسف الآية (٣٦).

فالداعية له سمته الدائم، من العقيدة الصحيحة، والعبادة السليمة، وحسن الخلق، ويظهر ذلك عليه في كل وقت وحين، حتى في الأوقات الحالكة من السجن، وما فيه من ضيق وصعوبات.

لقد قدم لهم يوسف عليه السلام الدليل المادي على صدقه، قبل تأويل الرؤيا، حيث كان ينبئهم بنوع الطعام قبل أن يأتي، وهذا إخبار بالغيب لهم، كما أنه يرفع يوسف عليه السلام عندهم درجة من الصلاح إلى النبوة، حيث لا يعلم الغيب إلا الله، أو من أطلعه الله عليه من الرسل والأنبياء، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ أَرْزَقْنِي مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ سورة الجن الآية (٢٧).

لقد ظهر تواضع يوسف عليه السلام مع أقرانه في السجن، حينما نسب هذا العلم، وتلك المعرفة إلى صاحبها الحقيقي، وهو الله عز وجل قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمُ طَعَامٌ

تُرْزِقَانِهِ ۖ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِيَوْمِهِ ۗ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ سورة يوسف من الآية (٣٧).

فهى دعوة لهم إلى الإيمان بالله وتوحيده، فهو القادر على كل شىء، وهو العالم بكل شىء، وهو الذي يعطي كل شىء، وهو الذي يمنع من أي شىء.

ومن مظاهر التوحيد التى يجب أن يتحلى بها كل مسلم، الولاء والبراء، ومفارقة ما عليه القوم من شرك ووثنية، فقد أعلن ذلك يوسف عليه السلام صراحة وهو يعرفهم بالله فقال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ سورة يوسف الآية (٣٧).

كما أنه متبع لأبائه السابقين من الأنبياء والمرسلين، فليس بدعا في الرسالة، ولا مبتدعا في الدين، وإنما هو متبع كل الاتباع، قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ سورة يوسف من الآية (٣٨).

ثم ينسب يوسف عليه السلام النعمة إلى الله وحده، فيقول: ﴿وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا مِن شِرْكِ اللَّهِ مَا كَانَ لِلَّهِ شَرِكٌ ۚ قَبْلَ ذَٰلِكَ ۚ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ سورة يوسف الآية (٣٨).

ثم يخاطب يوسف عليه السلام عقل أصدقائه في السجن، حيث وضح لهم أيهما أفضل، آلهة متعددة متفرقة باطلة، أم إله واحد حق قادر على كل شىء، له طلاقة المشيئة الإلهية؟.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَصْلِحْ فِي السِّجْنِ ۚ أَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ

وإذا كان الله هو الإله الحق، فإن ما يدعون من دونه الباطل، آلهة صنعوها بأيديهم، وسموها من عندهم، لا تملك لنفسها النفع والضرر، فكيف مع غيرها؟
ثم يقدم يوسف عليه السلام لهم أبرز قضية في توحيد الله، وهى قضية الحكم، فيجب أن يكون لله وحده، لا لغيره من الآلهة الباطلة، أو المخلوقين من البشر، ومن ثم فتجب له وحده العبادة، والسمع والطاعة.



٣- يوسف عليه السلام وزير التخطيط والزراعة:

وتبدأ قصة يوسف عليه السلام كوزير للتخطيط والزراعة، في تأويله لرؤيا الملك، فهو متخصص في تعبير الرؤيا، بتأييد من الله عز وجل ويعيش مظلوما في سجن، ويستفتى من خصومه في تخصصه، ومع ذلك يقدم لهم التعبير الصحيح، والنصيحة الصادقة، دون مقابل مادي أو معنوي.

لقد وضع يوسف عليه السلام خطة خمس عشرية، لإنقاذ البلاد من مجاعة، كانت ستأكل الأخضر واليابس، إذا لم يكن لديهم الخطة الصحيحة للخروج من الأزمة، قال تعالى: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴾ سورة يوسف الآية (٤٧).

فالأكل على قدر الحاجة فقط، والزيادة يخزن لفترة الجذب، والجفاف، والأزمة، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَاقِيَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴾ سورة يوسف الآية (٤٨).

ففي وقت المجاعة والشدة، تعتمد الأمة على المخزون الاستراتيجي، فإذا لم يكن لديها ما يكفيها، فماذا تصنع في هذه الظروف الصعبة؟ بلا شك أنها سوف تضطر إلى أن تمد يدها إلى غيرها بالدين، والدين هم بالليل، ومذلة بالنهار.

وبعد الشدة يأتي الفرج، وبعد الظلام الدامس، يأتي نور الفجر الصادق، ومن ثم يأتي العام الخامس عشر، الذي ينزل فيه الماء، وتخصر- فيه الأرض، ويثمر فيه الزروع، وتجنى فيه الثمار، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُعَاتُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ

﴿٤٩﴾ سورة يوسف الآية (٤٩).

لقد عرض على يوسف عليه السلام أن يذهب لمقابلة الملك فرفض الخروج، حتى تثبت براءته بالدليل والبرهان، وفتح ملف القضية من جديد، فظهرت براءة يوسف عليه السلام ساطعة كالشمس، مضيئة كالقمر، واضحة كفلج الصبح، واعترفت امرأة العزيز بالحقيقة كاملة، التي ظهر فيها التدبير الخفي من نفسها الأمارة، وشهادة النسوة اللاتي كن معها، وخرج يوسف عليه السلام من السجن بريئاً مكرماً إلى قصر الملك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَأَوْنِي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ سورة يوسف الآية (٥١).

يوسف عليه السلام من السجن إلى الوزارة، ولا شك أن الأصل في الإنسان أن لا يزكى نفسه، ولا يشهد لها، ولا يطلب الولاية لنفسه أيضاً، لكن إذا غابت الكفايات فيجب أن يكون في مقدمة الصفوف، كما أنه نبي مؤيد بالوحي، فلا يخشى عليه من

العجب والكبر، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ٥٥ ﴾ سورة يوسف الآية (٥٥).

فلأمانة تقدم على التخصص، في مجال القيادة والوزارة، وذلك لأن خزائن الأرض تحت يديه، هو الذى يوزعها دون رقيب أو حسيب من البشر، فلا بد أن يكون يكون أميناً، كما أن خبرته العلمية هى التى أهلتها لهذا المنصب الكبير، من أجل ذلك قدم الأمانة على العلم في الآية السابقة فقال: ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ٥٥ ﴾. كما نلمح في الآية الكريمة أنه قال: (خزائن الأرض) أى أن نتاج أرض مصر يكفي لأهل الأرض كلها، إذا وجدت القيادة الراشدة، التى توظف الإمكانيات، وتفجر الطاقات، وتصنع البطولات.

ويختتم هذا المشهد بتمكين الله له في الأرض، فلا يقع في كون الله إلا ما أَرَادَهُ اللهُ وَعَجَّلَ وهذا توفيق من الله ﷻ له أولاً وأخيراً، ودور يوسف ﷺ هو الأخذ بالأسباب، وإتقان العمل، والأجر والثوبة من الله ﷻ وحده.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ٥٦ ﴾ سورة يوسف الآية (٥٦).

وينسب يوسف ﷺ ما هو فيه من نعم وتمكين إلى الله ﷻ ويختتم رسالته بالدعاء إلى الله، بطلب الوفاة على الإسلام، واللحوق بالصالحين، فهى أعظم أمنية يتمناها كل نبي ورسول، قَالَ تَعَالَى: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَِّّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّقِي بِالصَّالِحِينَ ١٠١ ﴾ سورة يوسف الآية (١٠١).

إن أعظم نعمة للعبد أن يختم الله له حياته بالوفاء على الإسلام وتلك نعمة كبرى

لا تقدر بالدنيا وما فيها، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا مُمُوتَنَّ إِلَّا

وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ سورة آل عمران الآية (١٠٢).

إن طريق يوسف عليه السلام في دعوته، هو نفسه طريق الأنبياء والمرسلين، والدعاة

والمصلحين، طريق الدعوة إلى الله على علم وهدى وبصيرة، وفقه في فهم الدين،

والعمل به وتطبيقه، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي

وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ سورة يوسف الآية (١٠٨).

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من المخلصين، وأن يحفظنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وأن يختم لنا بالوفاء على الإسلام، وأن يلحقنا بالصالحين على خير وطاعة، آمين.



(١٦) قصة داود عليه السلام دروس وعبر.

١- داود عليه السلام وقصته في قتل جالوت.

٢- عطايات الله لداود عليه السلام ومواهبه.

-دروس وعبر من القصة.



-وردت قصة داود عليه السلام في سورة البقرة والأنبياء، وسبأ، وص.

ففي سورة البقرة ورد اسمه في قصة طالوت وجالوت، حيث كان شاباً صغير السن، جندياً في جيش طالوت، ووضع الحجر في المقلع وأداره، وانطلق الحجر في جبهة جالوت، فوقع فمات، ثم هجم الجيش وكتب الله لهم النصر- على الأعداء، ثم منح الله داود عليه السلام النبوة، وآتاه الملك الذي كان بيد طالوت، وعلمه مما يشاء الله من العلم الذي اختصه به، وفضله به على كثير من العالمين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ سورة البقرة: ٢٥١.

وفي سورة (ص) ذكر الله فيها أشياء مفصلة عن قصة داود عليه السلام فوصفه بأنه صاحب أيد، والمقصود بها: القوة في العلم والعمل، والطاعة في العمل والعبادة، والفقهاء في الدين. وكان أواباً أي رجاعاً إلى الله عز وجل في جميع أمور شؤونه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْخُرْنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ سورة ص: ١٧.

والنبي ﷺ ذكر عنه أنه كان يقوم ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر، وفي الحديث: (إِنَّ أَحَبَّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ، صِيَامُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَحَبَّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ، صَلَاةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ) كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا). مسلم (١١٥٩) عن عبد الله بن عمرو.

لقد سخر الله ﷻ الجبال لتسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيعه، إذا مرَّ به الطير وهو سابح في الهواء، فسمعه وهو يترنم بالزبور، لا تستطيع الذهاب، بل تقف في الهواء، وتسبح معه، وتحييه الجبال الشامخات، ترجع معه، وتسبح تبعاً له، والطير محبوسة في الهواء كل له مطيع يسبح تبعاً له.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ

﴿١٩﴾ سورة ص: ١٨-١٩.

وجعل الله ﷻ له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك، فكان أشد أهل الدنيا سلطاناً، وآتاه الله الحكمة وهي الفهم والعقل والفتنة والعدل والصواب، وكذلك فصل الخطاب أي الشهود والأيمان، فكان يحكم بشاهدين على المدعي، أو يمين المدعي عليه، وذلك فصل الخطاب، الذي فضل به الأنبياء والرسل، والمؤمنون والصالحون، وهو قضاء الأمة الإسلامية إلى يوم القيامة، الفصل في الكلام وفي الحكم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَنزَلْنَا الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ (٢٠) سورة ص: ٢٠.

وأما ما كان من نبأ الخصمين كان ذلك في محراب داود عليه السلام، وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد في ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب، احاطا به يسألانه عن شأنهما.

وقيل: كانا ملكين هما جبريل وميكائيل عليهما السلام أتياه لينبهانه على التوبة، فأتيا على غير صفة مجيء الخصوم، وفي غير وقت الحكومة، ودخلا وتسورا في غير إذن.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سُورُوا الْمِحْرَابَ﴾ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ (٢٢) سورة ص: ٢١-٢٢.

فقال: قد اختلفنا فاحكم بيننا بما أراك الله، والحق ها هنا أي: احكم بالعدل، ولا تجر ولا تباعد، واهدنا إلى قصد الطريق، أي احملنا على الحق، فقال داود عليه السلام: تكلمها، فقال الأول: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة، كنى عن المرأة بالنعجة، ولي نعجة واحدة، فقال اكفليها، أي ضمها إلي واجعلني كافلها، وعزني في الخطاب، أي غلبني في القول.

فحكم داود عليه السلام فقال: لقد ظلمك بسؤاله نعجتك ليضمها إلى نعاجه، وإن كثيرا من الشركاء يظلم بعضهم بعضا، إلا الذين آمنوا لا يظلمون أحدا، وقيل هم الصالحون الذين لا يظلمون، حينئذ أيقن وعلم داود عليه السلام، أنها فتناه واختبرنا

وابتليناه بما جرى له، فاستغفر ربه لما فطن داود عليه السلام بذنبه، وخر ساجدا، ورجع من ذنبه تائباً إلى الله. وإن له يوم القيامة لقربى، لقربه من الله، وحسن مرجع، وهي الدرجات العالية في الجنة لتوبته وعدله التام في ملكه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۝٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخَالِطَاءِ يُبَغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۝٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ۗ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ۝٢٥﴾ سورة ص: ٢٣-٢٥.

وأما عن وصية الله لداود عليه السلام في حكمه بالعدل، فهذه وصية من الله لولاة الأمور، أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله، وقد توعد الله من ضل عن سبيله، وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد، والعذاب الشديد، لأنهم تركوا أن يعملوا ليوم الحساب بما أمرهم الله تعالى به.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يُضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ۝٢٦﴾ سورة ص: ٢٦.

وفي سورة سبأ ذكر الله آيتين تتحدثان عن مشهد من قصة داود عليه السلام، فأخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه السلام مما أتاه من الفضل المبين، وجمع له بين نعم كثيرة، منها الجنود ذوي العدد والعدد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم،

الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات، والصم الشاخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾

﴿سورة سبأ: ١٠﴾

فسخر الله مع داود عليه السلام الجبال، وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، الذي أنزله الله عليه. وسمع النبي ﷺ صوت أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته ثم قال: (يا أبا موسى لقد أوتيت مزمارة من مزامير آل داود) البخاري (٥٠٤٨) عن أبي موسى الأشعري.

وآلان الله له الحديد، فكان لا يحتاج إلى أن يدخله النار، ولا يضر به بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط، ولهذا قال الله له: قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْ أَعْمَلُ سَبِغَتٍ وَقَدِيرٍ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ سورة سبأ: ١١.

أي دروعا وهو أول من عملها من الخلق، وكانت قبل ذلك صفائح، ومعنى قدر في السرد، لا تُدق المسمار فيعلق في الحلقة، ولا تغلظه فيفصمها، واجعله بقدر، وتسمى دروع مسرودة أي مسمورة الخلق. واعملوا صالحا في الذي أعطاكم الله ﷻ من النعم، إني مراقب لكم، بصير بأعمالكم وأقوالكم.

وأما ما ورد في سورة الأنبياء عن داود عليه السلام ونفث الغنم وهو الرعي بالليل والهمل بالنهار، وهو كرم قد انبتت عناقيده فأفسدته الغنم، ففرض داود عليه السلام بالغنم لصاحب الكرم، وقال سليمان عليه السلام غير هذا، وكان حكم سليمان عليه السلام هو الصواب.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَثَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَايَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ سورة الأنبياء: ٧٨ - ٨٠.

وعلمناه صنعة لبوس، كانت الدروع قبله صفائح، وهو أول من سردها حلقا، ولهذا قال (لتحصنكم من بأسكم). يعني في القتال، فهل أنتم شاكرون نعم الله عليكم، لما ألهم به عبده داود عليه السلام، فعلمه ذلك من أجلكم.



٣- دروس وعبر من قصة داود عليه السلام.

إن المتأمل في القرآن الكريم وفي قصة داود عليه السلام يتعرف على صفات الحاكم المؤمن، الذي مكن الله له في الأرض، وهي تحقق للقائد المصلح كمال السعادة في الدنيا والآخرة.

ومن أهم هذه الصفات ما يأتي:

- ١- العبودية الصادقة لله، فقد وصفه ربه بقوله عبدنا، وعبر عن نفسه بصيغة الجمع للتعظيم، والوصف بالعبودية لله غاية التشريف، كوصف محمد صلى الله عليه وسلم بها ليلة

المعراج، قَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ

الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ سورة الإسراء الآية (١).

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْخُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ سورة ص الآية

(١٧).

وكان النبي ﷺ إذا ذكر داوود عليه السلام وحدث عنه بين فضله واجتهاده في

العبادة، فقال: أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ

يَوْمًا، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ،

وَيَنَامُ سُدُسَهُ) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٣٤٢٠) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

وأمر الله نبيه أن يقتدي به وبالأنبياء السابقين من قبله، قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ

الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيمَهْدِيهِمْ أَقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرًا

لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ (سورة الأنعام الآية (٩٠)).

٢- الصبر على البلاء بجميع صورته وأشكاله وألوانه، فقد أمر الله ﷻ نبينا

محمد ﷺ على جلالته قدره بأن يقتدي به في الصبر على تكاليف الدعوة وإيذاء

المدعوين. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْخُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ سورة ص

الآيات (١٧-٢٠).

٣- القوة في أداء الطاعة، والاحتراز عن المعاصي، والرجوع إلى الله في أموره

كلها، وقوله ﷻ: إنه أواب، وصف بالقوة على طاعة الله، وبأنه أواب، دليل على

كمال معرفته بالله التي جعلته يجتهد في العبادة على نهج رباني صحيح. قَالَ تَعَالَى:

﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْخُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ سورة ص الآية (١٧).

٤- تسبيح الجبال والطيور معه، فكان موصولاً بالله ليلاً ونهاراً ومتناسقاً ومنسجم مع الكون كله بكل ما فيه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝١٨ ﴾ سورة ص الآيتان (١٨-١٩).

أي أنه ﷻ سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس، وآخر النهار كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوِيٌّ مَعَهُ، وَالطَّيْرُ ^ط وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ ۝١٠ ﴾ سورة سبأ الآية (١٠).

قال ابن كثير - رحمه الله -: (وكذلك الطير تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيعه إذا مر به الطير، وهو سابح في الهواء، فسمعه، وهو يترنم بقراءة الزبور، لا يستطيع الذهاب، بل يقف في الهواء ويسبح معه وتجيئه الشاخات، ترجع معه، وتسبح تبعاً له)

٥- قوة الملك ورسوخه، والحكمة والفصل في الخصومات بين المتخاصمين، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ، وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخَطَابِ ۝٢٠ ﴾ سورة ص الآية (٢٠).

أي قوينا ملكه بالجنود أو الحرس، وجعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك.

٦- الحكمة وهي وضع الشيء في موضعه، فالله أعطاه الفهم والعقل والفتنة، والعلم، والعدل، واتفان العمل، والحكم بالصواب، وحسن الفصل في الخصومات، بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإيجاز البيان، يجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل.

كما أن العلم والحكمة والنبو منحة وهبة وتوفيق وتفضيل من الله وليست من كسب العبد فالله هو الذي أعطاه هذه النعم كلها فتستحق الشكر الدائم حتى الوفاة، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۗ وَكُلًّا ءَايَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۗ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۗ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ۗ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ سورة الأنبياء الآيتان (٧٩-٨٠).

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَايَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ اللَّهُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ سورة النمل الآية (١٥).

٧- إقامة العدل في الأرض، ونشر منهج الله وقانونه والبعد عن الهوى ونزغات النفس، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ سورة ص الآية (٢٦).

٨- الأدب في التعامل مع الناس بالعلم الموصول بالله، وتوفيق الله له بتسديد ضربته في القتال فكان النصر والتوفيق الإلهي، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ يَدِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ۖ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ۗ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ سورة البقرة الآية (٢٥١).

٩- إقامة منهج الله وقانونه في الأرض، من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن به قوام الحياة، وصحة مسيرتها، وسيرها على المنهج الصحيح، قَالَ

تَعَالَى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ سورة المائدة الآية (٧٨).

١٠- الاحتراف والكسب من عمل اليد، وتحصيل الرزق من، كد اليمين، عرق الجبين، وكدح السنين، نعمة كبرى لا يعرف قيمتها إلا الصالحون المصلحون، المتعففون الشاكرون لنعم الله، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَنْجِيهِ أُوْبَىٰ مَعَهُ وَالظَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَفِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ سورة سبأ الآيتان (١٠-١١).

وقَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا أَل دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾ سورة سبأ الآية (١٣).

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من:

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أَزْوَاجٌ

الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ سورة الزمر الآية (١٨).



(١٧) قصة سليمان عليه السلام دروس وعبر.

١- سليمان عليه السلام ونعم الله عليه في التمكين لملكه.

٢- سليمان عليه السلام وحواره مع بلقيس.

٣- دروس وعبر من قصة سليمان عليه السلام.



-وردت قصة سليمان عليه السلام في أربع سور في القرآن الكريم، (الأنبياء، والنمل، وسبأ، وص).

وسليمان عليه السلام هو ابن داود عليه السلام، ورثه في الملك والنبوة، فأنعم الله عليهما بنعم جزيلة، ومواهب جليلة، فجمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والملك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في الدين، ولهذا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَىٰهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴿١٦﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ سورة النمل: ١٥-١٦.

وأي نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان، وورث سليمان داود عليه السلام ليس في المال، لأن الأنبياء لا تورث أموالهم، كما في الحديث: (لا تُورث ما تركنا صدقةً). مسلم (١٧٦١).

لقد سخر الله لسليمان عليه السلام الإنس والجن والطيور، وكان يعرف لغة الطيور والحيوانات، ولم يعطه أحد من البشر قبله، فقد أفهم الله سليمان عليه السلام ما تتخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها، وهذا مما يحتاج إليه ملك سليمان عليه السلام فهو فضل ظاهر من الله عليه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَحِشْرَ لَسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ سورة

النمل: ١٧.

وجمع لسليمان عليه السلام جنوده من الجن والإنس والطيور، ركب فيهم في أبهة وعظيمة كبيرة في الإنس، وكانوا هم الذين يلونه، والجن بعدهم في المنزلة، والطيور فوق رأسه، فإن كان حراً أظلمته بأجنحتها، فهم يوزعون، أي يكف أولهم على آخرهم، لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له، ولئلا يتقدموا عليه في المسير، حتى إذا مرَّ سليمان عليه السلام ومن معه من جنوده على وادي النمل، خافت عليهم نملة أن تحطمهم الخيول بحوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم، ففهم ذلك سليمان عليه السلام وتبسم ضاحكا من قولها فقال يا رب ألهمني الشكر على نعمتك التي مننت بها عليّ، من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك، والإيمان بك، وأن أعمل عملا تجبه وترضاه، وإذا توفيتني ألحقني بالصالحين من عبادك ومع أوليائك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا

يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ سورة النمل: ١٨

فَنَبَسَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ

نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ سورة النمل: ١٨-١٩.

وتفقد الطير التي في مملكته، وكان الهدهد وظيفته يدل سليمان عليه السلام على موضع الماء، إذا كان بأرض فلاة، فنظر له الماء في تخوم الأرض، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض، فإذا دلّهم عليه، أمر سليمان عليه السلام الجن فحفروا له ذلك المكان، حتى يستنبط الماء من قراره، فنزل سليمان عليه السلام يوما بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَأَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾
سورة النمل: ٢٠.

لقد توعد سليمان عليه السلام بالعذاب على حسب جرمه، يعني نتف ريشه، أو يقتله، أو يأتي بعذر واضح بين، فغاب الهدهد زمانا يسيرا، ثم جاء فقال لسليمان عليه السلام: أحطت بما لم تحط به، أي اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك، وجئتك من سبأ بخر صدق، وحق ويقين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي رَسُولًا مِّن مِّمَّنْ ﴿٢١﴾
فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِط بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ سورة
النمل: ٢١-٢٢.

فقد وجد بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ، عندها من متاع الدنيا ما يحتاج إليه الملك المتمكن، ولها سرير تجلس عليه عظيم هائل، مزخرف بالذهب، وأنواع

الجواهر واللائي، قال علماء التاريخ: كان هذا السرير في قصر عظيم مشيد، رفيع البناء محكم، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، تغرب في مقابلتها، فيسجدون لها صباحا ومساء، فهم بعيدون عن طريق الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده، دون ما خلق من شيء من الكواكب وغيرها.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ سورة النمل: ٢٣ - ٢٤.

هلا سجدوا لله الذي يعلم كل خبيثة في السماء والأرض من الأرزاق، مثل المطر من السماء، والنبات من الأرض، ويعلم ما يخفيه العباد، وما يعلنون من الأقوال والأفعال، فالله هو الذي ليس في المخلوقات أعظم منه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهَ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ سورة النمل: ٢٥ - ٢٦.

والهدهد كان داعية للخير، ودعا إلى عبادة الله وحده، والسجود له، فنهى النبي ﷺ عن قتله، وفي الحديث: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوَابِّ: النَّمْلَةَ، وَالنَّحْلَةَ، وَالْهُدْهُدَ، وَالصُّرْدَ). صحيح الترغيب والترهيب (٢٠٠٩) عن عبد الله بن عباس.

قال سليمان عليه السلام للهدهد: سننظر أصدقت في أخبارك هذه فتخلص من الوعيد الذي أوعدتك؟ كان سليمان عليه السلام قد كتب كتابا إلى بلقيس وقومها، وأعطاه

لذلك الهدهد، فحملة وذهب إلى قصر بلقيس، في المكان الذي تختلي فيه بنفسها، وألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها، ثم تولى إلى ناحية فتحيرت مما رأت، وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ففتحت ختمه وقرأته فإذا فيه نص الرسالة

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢٧) أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿ ٢٨ ﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنَّيَأُلْقِي إِلَيْكَ كِتَابًا كَرِيمًا ﴿ ٢٩ ﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ ٣٠ ﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿ ٣١ ﴾ ﴿ سورة النمل: ٢٧-٣١.

فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها، وكبراء دولتها ومملكتها، ثم قالت لهم عن الرسالة التي وصلتها، وما رأته من عجب أمرها، فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام، وأنه لا قبل لهم به، وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة، والفصاحة، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها، ولم يكتب أحد قبل سليمان عليه السلام البسمة ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ سورة النمل: ٣٠.

لقد استشارتهم الملكة في أمرها، وما قد نزل بها، فمناوا عليها بعددهم وقوتهم، ثم فوضوا بعد ذلك إليها الأمر، فليس عندهم عائق، ولا ينقصهم بأس، فإن شئت تقصديه وتحاربيه، فنحن رهن أمرك نمثله ونطيعه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوأ قُوَّةٍ وَأَوْلُوأ بِأَسِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿ ٣٣ ﴾ ﴿ سورة النمل: ٣٢-٣٣.

فكانت هي أحزم منهم رأيا، وأعلم بأمر سليمان عليه السلام، وأنها لا قبل لها بجنوده، وما سخر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدد أمرا عجيبا بديعا، وهي تخشى أن تحاربه، فيقصدتهم بجنده، ويهلكهم جميعا، ويقوم بتدميرهم، ولهذا قالت: إن الملوك إذا دخلوا بلدا عنوة أفسدوه وخربوه، وقصدوا من فيها من الولاة والجنود فأهانوهم غاية الهوان، بالقتل أو الأسر، فعدلت إلى المهادنة والمصالحة والمسالمة، والمخادعة والمصانعة، وسوف تبعث إليه بهدية تليق به، وسننظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك ويكف عنا، أو يضرب إلينا خراجا نحمله إليه في كل عام، ويترك قتالنا ومحاربتنا، فما أعقلها في قرارها حيث علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس، فإن قبلها فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٢٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ سورة النمل: ٣٤-٣٥.

لقد كانت الهدايا عظيمة، من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك، ولم ينظر سليمان عليه السلام إلى هداياها، وما اعتنى بها، وأعرض عنها، وقال منكرا عليهم ذلك أتصنعونني بهذا المال لأترككم وشركم، فالذي أعطاني الله عز وجل من المال والملك والجنود، خير مما أنتم فيه، فأنا لا أقبل إلا الإسلام أو السيف.

ارجع إليهم بهديتهم، فلنأتينهم بجنود لا طاقة لهم بقتالهم، ولنخرجنهم من بلدكم مهانون مدحورون، فلما رجعت إليها رسلها بهداياها، وبما قال سليمان عليه السلام

سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة، معظمة لسليمان عليه السلام ناوية متابعة في الإسلام، ولما تحقق سليمان عليه السلام من قدومهم عليه، ووفودهم إليه، فرح بذلك وسره هذا الصنيع.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتَمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَاءَ اتْنَيْنِ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿ سورة النمل: ٣٦-٣٧. ﴾

لما ذكروا لسليمان عليه السلام أنها قادمة، وحدثوه عن عرشها فأعجبه، فكره أن يأخذه بعد إسلامها فمتى أسلموا حرم دماؤهم وأموالهم، فطلب من ملئه من يأتيه بعرشها قبل قدومها، قال مارء من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلسك ومقعدك، وأنا قوي على حمله، أمين على ما فيه من الجواهر.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عَفْرِيُّ مِنْ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾

﴿ سورة النمل: ٣٨-٣٩. ﴾

قال سليمان عليه السلام أريد أعجل من ذلك؟ فهو يريد وصول العرش قبل قدومها ودخولها عليه، فهذا أمر خارق عظيم، قال الذي عنده علم من الكتاب وهو آصف كاتب سليمان عليه السلام. قال أنا آتيك به قبل أن ترفع بصرك وتمده مما تقدر عليه، فلا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ سورة النمل: ٤٠.

فلم يشعر سليمان عليه السلام إلا وعرشها يحمل بين يديه، فلما عاين سليمان عليه السلام وملؤه ذلك، وراه مستقرا عنده، قال هذا من نعم الله علي ليختبرني أشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فالله غني عن العباد وعبادتهم، كريم في نفسه، وإن لم يعبده أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد.

لما جيء سليمان عليه السلام بعرش بلقيس قبل قدومها، أمر أن يغير بعض صفاته، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل ستعرف أنه عرشها أم أنه ليس هو؟ فنزع عنه فصوصه ومرافقه، وغير بعض معاملة، فلما جاء قيل أهكذا عرشك، وقد غير ونكر، وزيد فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لب ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعده مسافته عنها، ولا أنه غيره، لما رأت من آثارها وصفاته، وإن غير وبدل ونكر، فقالت: كأنه هو، أي يشبهه ويقاربه، وهذا غاية في الذكاء والحزم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَن هُنْدَى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوَيْبِنَا أَلْعَلُّمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ سورة النمل: ٤١-٤٢.

وهي كانت قد صدها أي منعها عن عبادة الله وحده، أنها كانت من قوم كافرين، فأظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ سورة النمل: ٤٣.

وأمر سليمان عليه السلام الشياطين أن يبنيوا لها قصرا عظيما من قوارير أي من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن يحال بين الماشي وبينه بالزجاج، فلما دخلت وكشفت عن ساقها، فلم تشك أنه ماء تخوضه، فقيل لها إنه قصر مبني بناءً محكما أملسا، ليربها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما أتاه الله عز وجل وما هو فيه من نعم، وتبصرت في أمره، انقادت لأمر الله عز وجل

قَالَ تَعَالَى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾
سورة النمل: ٤٤.

لقد تيقنت أنه نبي كريم، وملك عظيم، فأسلمت لله، وقالت (ربي إني ظلمت نفسي) بما سلف من كفر وشرك، وعبادة قومها للشمس من دون الله (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) متابعة لدين سليمان عليه السلام في عبادته لله وحده لا شريك له، الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا.

وقد أضافت سورة الأنبياء مشهدا جديدا في قصة حياة سليمان عليه السلام وقضائه بين الناس، حيث رعت غنم في غير مرعى صاحبها، فتحاكموا إلى داود عليه السلام فقضى بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان عليه السلام غير هذا يا نبي الله، قال وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا كان الكرم كما كان، دُفعت الكرم إلى صاحبه، ودُفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي

الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا
ءَاتَيْنَاهَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ سورة
الأنبياء: ٧٨-٧٩.

فهنا نجد أن سليمان عليه السلام أصاب، وأن داود عليه السلام اجتهد فبعد عن
الصواب، فأثنى الله عز وجل على سليمان عليه السلام ولم يذم داود عليه السلام والأنبياء معصومون
ومؤيدون من الله تعالى.

وقريب من القصة السابقة ما جاء في السنة، ففي الحديث (كَانَتْ امْرَأَتَانِ
مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذُّبُّ فَذَهَبَ بَابِنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ صَاحِبَتُهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بَابِنِكَ،
وَقَالَتِ الْأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بَابِنِكَ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ عليه السلام، فَقَضَى - بِهِ لِلْكُبْرَى،
فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عليه السلام فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: اتُّنُونِي بِالسَّكِينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا،
فَقَالَتِ الصُّغْرَى: لَا تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللَّهُ، هُوَ ابْنُهَا، فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:
وَاللَّهِ إِنْ سَمِعْتُ بِالسَّكِينِ إِلَّا يَوْمَئِذٍ، وَمَا كُنَّا نَقُولُ إِلَّا: الْمُدِيَّةُ) البخاري (٣٤٢٧) عن أبي
هريرة.

وسخر الله لسليمان عليه السلام الريح العاصفة في أرض الشام. قَالَ تَعَالَى:

وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ سورة
الأنبياء: ٨١.

وسخر الله له الشياطين يغوصون في الماء يستخرجون اللآلئ وغير ذلك،
وكان الله يجرسه منهم أن يناله أحد منهم بسوء، بل كل في قبضته وتحت قهره، لا

يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه، والقرب منه، بل هو محكم فيهم، إن شاء أطلق منهم، وإن شاء حبس منهم من يشاء. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يَغْوُصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ۗ وَكُنَّا لَهُم حَفِظِينَ﴾ ﴿٨٢﴾ سورة الأنبياء: ٨٢.

وفي سورة ص نقلت مشهدا آخر من قصة سليمان عليه السلام حيث وهب الله لداود سليمان عليه السلام نبيا، وورثه في العلم والنبوة دون غيره من إخوته، وقد أثنى الله عليه بكثرة الطاعة والعبادة والإنابة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿٣٠﴾ سورة ص: ٣٠.

وعرض على سليمان عليه السلام في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات، وهي التي تقف على ثلاث، وطرف حافر الرابعة، والجياد السريع، واشتغل سليمان عليه السلام بعرض الخيل حتى فات وقت صلاة العصر، وقد تركها نسيانا، فطلب منهم أن يردوها عليه؛ لأنها شغلته عن العبادة فعقرها، فضرب أعناقها وعراقبها بالسيوف.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّفِيَنَتُ الْجِيَادُ﴾ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ سورة ص: ٣١-٣٣.

واختبر الله سليمان عليه السلام بأن سلبه الملك مرة، وألقى على كرسیه جسدا، وكان قد طلب من الله تعالى أن يعطيه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، واستجاب الله تعالى له.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ سورة ص: ٣٤-٣٥.

ولما عقر سليمان عليه السلام الخيل عوضه الله خيرا منها، وهو سخر له الريح، غدوها شهر ورواحها شهر، حيث أراد من البلاد، والشياطين مسخرون له في البناء، والأعمال الشاقة، والغوص في البحار، يستخرجون الجواهر النفيسة، ومنهم من هم موثوقون في الأغلال والأكبال من المتمردين العصاة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَتَاءٍ وَعَوَاصٍ

۝٣٧ ۝ وَأَخْرَجْنَا مَقَرَيْنِ فِي الْأَصْفَادِ ۝٣٨ ﴾ سورة ص: ٣٦-٣٨.

وهذا الذي أعطه الله تعالى سليمان عليه السلام من الملك التام والسلطان الكامل، له حرية التصرف فيه في العطاء والمنع، فهو ذو حظ عظيم في الدنيا والآخرة،

قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّكَابٍ ۝٤٠

﴿ سورة ص: ٣٩-٤٠.

وقد ذكر الله في سور سبأ قصة الريح وتسخيرها لسليمان عليه السلام، وكذلك تسخير الجن وأعمالهم الشاقة، وشكر سليمان عليه السلام لنعم الله تعالى عليه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

۝١١ ۝ وَسَلِّمَنَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوْاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَظْرِ ۝ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ

يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۝ وَمَن يَبْزِغْ مِنْهُم عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝١٢ ۝ يَعْمَلُونَ لَهُ، مَا يَشَاءُ مِنْ

مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ ۝ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ

الشُّكُورِ ۝١٣ ﴾ سورة سبأ: ١١-١٣.

وذكر الله قصة نهايته وموته، حيث عمى موته على الجن المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكتاً على عصاة، مدة طويلة نحواً من سنة، فلما أكلتها دابة الأرض، وهي الأرضة، ضعفت وسقطت إلى الأرض، فعلموا أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة، تبينت الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب، كما كانوا يتوهمون ويوعمون الناس بذلك، فأنقذهم الله ﷻ من العذاب المهين، الذي كانوا فيه من قبل. قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ سورة سبأ: ١٤.



٣- دروس وعبر من قصة سليمان ﷺ التي أقام عليها مملكته:

- ١- العلم والقوة.
- ٢- أن الدولة لها رسالة وغاية.
- ٣- القائد البصير بشئون الرعية.
- ٤- قيام الأفراد بواجباتهم نحو تلك الغاية.



قصة سيدنا سليمان ﷺ مليئة بالمواقف التربوية والدعوية، التي ذكرها الله ﷻ في القرآن الكريم، وسنستعرض بعضها من أحداث القصة، وما قابل سيدنا سليمان ﷺ في مسيرته الدعوية مع المملكة وشئون الحكم فيها.

الأسس التي أقام عليها سليمان ﷺ مملكته:

- ١- العلم والقوة:

إن دولة تريد أن تنهض لا بد أن تقوم على العلم الواسع من علوم الدنيا والدين، وأول العلم: العلم بالله ومعرفته وتوحيده، والتوكل عليه، واستمداد العون والتوفيق منه، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (١٩) سورة محمد الآية (١٩). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (١٢) سورة الطلاق الآية (١٢).

وأما علوم الدنيا فهي مهمة في حياة البشر، حيث إن الله فطر الكون على سنن ربانية، وقوانين إلهية، لا تتبدل ولا تتغير، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (٥٠) سورة طه الآية (٥٠).

وعلوم الدنيا تقوم على التجربة، والتخطيط، لعمارة الكون، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (٦١) سورة هود الآية (٦١).

١- فيوسف عليه السلام وضع خطة خمس عشرية، أنقذ البلاد من مجاعة كانت ستأكل الأخضر واليابس، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُعَاتُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (٤٩) سورة يوسف الآيات (٤٧-٤٩).

٢- وذو القرنين، صنع سدا قويا من الحديد والنحاس، ليحمي المستضعفين من ظلم يأجوج ومأجوج، قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ (٩٣) قَالُوا يَا بَشَرُ إِنَّا نُاجِجُكَ وَمَاجِجُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ (٩٥) ءَاتُونِي زُبَرَ

الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴿ سورة الكهف الآيات (٩٣-٩٧).

٣- وطالوت عليه السلام اختاره الله ملكا على بنى إسرائيل، لما يتمتع به من بسطة العلم والجسم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴿ سورة البقرة الآية (٢٤٧).

ومن بين العلوم المهمة العلم باللغات، لأن الأمة مكلفة بدعوة العالم إلى الإسلام، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴿ سورة آل عمران الآية (١٠٤). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴿ سورة إبراهيم الآية (٤).

والعلوم كلها هبه وفتح من الله أولا وأخيراً، إذا صدقت النية، وصحت العزيمة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴿ سورة النمل الآية (١٥). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَاءْتِيهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مِنْ طَيْرٍ وَأَوْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّا هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴿ سورة النمل الآية (١٦).

وأما القوة، فقد تمثلت في ذلك الجيش القوي المدرب، الذي يحمي الحق ويدافع عنه، فلا بد للحق من قوة تحميه، وتدافع عنه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَحِشْرَ لَسِيْمَنَ جُنُوْدُهُ مِنْ

الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ سورة النمل الآية (١٧).

إن الإسلام أمرنا بامتلاك القوة، حتى ولو لم نستخدمها، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِءٍ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ سورة الأنفال الآية (٦٠). وفي الحديث قال ﷺ: "ألا إن القوة الرمي"
الحديث أخرجه الإمام مسلم (١٩١٧) عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه.



٢- إن الدولة لها رسالة وغاية:

إن أي أمة تعيش بلا رسالة، وبلا غاية، فهي إلى زوال لا محالة، أين التتار؟ أين الفراعنة؟ أين الحضارات القديمة؟ لقد ذهبت مع موت أصحابها، ولم يبق منها إلا التاريخ والآثار فقط.

أما أمة الإسلام، فهي باقية إلى قيام الساعة، لأن لها رسالة، تتمثل في هداية البشرية إلى الإسلام، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وتعبيد الناس إلى الله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، وإقامة العدل في الحياة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ سورة ص الآية (٢٦).

إن الأمم التي أهدافها وضيعة، ورسالتها أرضية، وغايتها استعباد الآخرين لها، فهي أمم إلى زوال لا محالة، أين الأمم السابقة وغيرهم الآن؟ لقد سقطوا من داخلهم، وذهبوا إلى طي النسيان.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ سورة العنكبوت الآية (٤٠).



٣- القائد البصير بشئون الرعية:

سخر الله ﷻ الطيور والحيوانات لسليمان ﷺ وخدمته، فكان الهدهد ينفذ ما يأمره به سليمان ﷻ، وإذا عصى أو امره يعاقبه على ذلك. منح الله هدهد سليمان ﷻ القدرة على رؤية الماء من تحت الأرض، حيث ينظر فيرى مكان الماء، ثم يخبر سليمان ﷻ بمكانه ويأمر سليمان ﷻ الجن فيحفرون ويخرجون الماء من العيون.

ذات يوم بينما كان جيش سليمان ﷻ يسير في الصحراء، إذ أصابهم العطش فسأل سليمان ﷻ عن الهدهد حتى يبحث عن الماء وإذا بالهدهد مختفي!.

إن سليمان ﷻ كان في غاية اليقظة والانتباه، حتى إنه استطاع أن يكتشف خلايا بسيطاً في المملكة، وهو غياب جندي صغير، دون إذن من القائد، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ سورة النمل الآية

إن القائد البصير يضع العقوبة على قدر الخطأ، فلا يظلم أحداً، ولا يطبق الحكم إلا بعد أن يسمع حجة المتهم، فهو برئ حتى تثبت إدانته، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ سورة النمل الآية (٢١).

أحيانا يكون في الجندي ما ليس في القائد، وفي الطالب ما ليس في المدرس، وفي الابن ما ليس في أبيه، وفي الهدهد ما ليس في سليمان عليه السلام قال تعالى على لسان الهدهد مخاطبا سليمان عليه السلام: ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ مَحْطُ بِهِ وَحِجَّتُكَ مِنْ سَيِّئِ بَنِي بَعِينَ﴾ سورة النمل الآية (٢٢).



٤- قيام الأفراد بواجباتهم:

إن دولة سليمان عليه السلام لا تعرف البطالة، ولا الكسل، ولا أن يكون الإنسان عالية على الآخرين، وهو بصحة جيدة، فهذا الهدهد الصغير، كان له دور مهم في الجيش، وهو تامين المياه، وهو يقوم بدوره هذا اكتشف خللا في حياة الناس، يتعارض مع رسالة الدولة وغايتها، فرفعه سريعا إلى القائد الأعلى ليعالجه بسلطانه.

لقد ركز الهدهد على القضايا المهمة التي رآها، وماذا فعل سليمان عليه السلام فيها؟.

١- امرأة تدير مملكة، ومعها قوة وجيش وسلطان، وهي وقومها يعبدون غير الله، لقد شخص سبب الانحراف في تزيين الشيطان، ثم تحسر وتأسف على عدم عبادتهم لله عز وجل الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض، ويعلم ظواهر الناس وبواطنهم وخفياهم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ
 وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ
 السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ سورة النمل الآيتان (٢٣-٢٤).

٢- أراد سليمان عليه السلام أن يتأكد من صدق الخبر، قبل أن يأخذ قرار القوي في
 القضية، فحملة رسالة إلى بلقيس، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ
 عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ سورة النمل الآية (٢٨).

٣- تلقت بلقيس الرسالة فأثنت عليها، لأنه ابتدأها بالبسملة قَالَ تَعَالَى:
 ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾
 سورة النمل الآيتان (٢٩-٣٠).

٤- شاورت بلقيس رجالها ووزراءها في قضية مصيرية، لا تريد أن تستبد برأيها
 فيها، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾
 سورة النمل الآية (٣٢).

٥- رد الوزراء الأمر إليها، لأنهم قوم عقيدتهم مضطربة، فليس لهم رأي حازم،
 كما حكى القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي
 مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ سورة النمل الآية (٢٣).

٦- أرادت أن تختبر سليمان عليه السلام هل هو نبي مرسل، أم حاكم يريد توسيع
 مملكته، فأرسلت له الهدايا: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمِ رَجْعِ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ سورة
 النمل الآية (٣٥).

٧- سليمان عليه السلام كان يفهم رسالته جيدا، ولا يريد أن يجيد عنها، ولا يقبل المساومة على مبادئه مهما كانت الإغراءات المادية، فهو على يقظة وبصيرة من هدفه ورسالته وغايته، ولذلك أنكر عليهم صنيعهم، وتوعدهم بالحرب الضروس، لأنه لا يبحث عن مال أو جاه أو دنيا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَاءَ تِنٍ ۚ

اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ فَرِحُونَ ﴿٣٦﴾ سورة النمل الآية (٣٦).

٨- رد سليمان عليه السلام الهدايا لأنه لا يريد دنيا، وعنده ما يكفيه، وتوعدهم إذا لم يسلموا، فقال كما حكى القرآن الكريم: ﴿ أَرْجِعِ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِنَهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ سورة النمل الآية (٣٧).

٩- علم سليمان عليه السلام أنها قادمة مع قومها فأراد أن يختبر ذكاءها وفطنتها للأمر، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِينَ ۚ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ سورة النمل الآية (٤١).

١٠- الذي حمل الكرسي أو عرش بلقيس إلى سليمان عليه السلام كان رجلا صالحا، يعرف اسم الله الأعظم، وكان أفضل من الجن، حيث خصه الله عز وجل بهذه المعرفة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ

طَرْفُكَ ﴿٤٠﴾ سورة النمل الآية (٤٠).

١١- تواضع سليمان عليه السلام أمام ما أعطاه الله من نعم وفضل، فلم يستكبر ويغتر، مثلما فعل قارون، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ۚ أَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرُ ۚ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ سورة النمل الآية (٤٠).

١٢- نكر سليمان عليه السلام لها العرش، ليختبر ذكاءها، فكانت موفقة في إجابتها، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوَيْدِنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ سورة النمل الآية (٤٢).

١٣- علم سليمان عليه السلام أنها ستدخل في الإسلام، فأراها آية من عطاءات الله له عند دخولها الصرح، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ سورة النمل الآية (٤٤).

١٤- الذي منع بلقيس أن تكون مسلمة قبل ذلك، أنها ورثت الحكم عن أبيها الكافر، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ سورة النمل الآية (٤٣).

١٥- حينما أسلمت بلقيس، كان إسلامها إسلام ملوك وأمراء، فأسلمت مع سليمان عليه السلام وليست لسليمان عليه السلام، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ سورة النمل الآية (٤٤).

فهذه القصة فيها من الدروس والعبر التربوية والدعوية، التي يحتاج إليها المسلمون، خاصة في ذلك العصر الذي يبحث عن من يحمل هم الإسلام ولوائه، ويقوم بنشره في كل مكان من أرض الله الواسعة، كما فعل سليمان عليه السلام.
نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من المؤمنين الأقوياء الأنقياء الأتقياء الأخفياء.

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ

هَدَيْنَاهُمْ لِلَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْوَالُونَ الْأَلْبَابِ ﴾ سورة الزمر الآية (١٨).



(١٨) قصة زكريا عليه السلام ويحيى عليه السلام دروس وعبر.

- ١- عطاءات الله لزكريا عليه السلام بلا حدود.
- ٢- كفالة زكريا عليه السلام لمريم -عليها السلام- وتعلمه منها.
- ٣- دروس وعبر من قصة زكريا عليه السلام ويحيى عليه السلام.



وردت قصة زكريا ويحيى -عليهما السلام- في سورة آل عمران، ومريم، والأنبياء، وهي ذكر لرحمة الله ﷻ بعبده زكريا عليه السلام وكان نبيا عظيما من أنبياء بني إسرائيل، وكان يعمل نجارا، ويأكل من عمل يده، ودعا الله ﷻ دعاء في الخفاء، لأن الله يحب الدعاء الخفي، فالله يعلم القلب التقي، ويسمع الصوت الخفي، فرفع حاله إلى ربه وهو أعلم به، فقد ضعفت وخارت قوته، وكثر اللون الأبيض من شعره، في رأسه ولحيته، وهذا دليل على ضعف الكبر.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَكَرْ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤)﴾ سورة مريم: ٢-٤.

وزكريا عليه السلام لم يعهد من الله ﷻ إلا الإجابة في الدعاء، فلم يردده الله قط في دعائه، وقد كثرت العصبية من أقاربه، فسأل الله أن يرزقه ولدا يكون نبيا من بعده؛ ليسوسهم بنبوته في ما يوحيه الله إليه، فيورثه في النبوة، وليس في المال، حيث كان

زاهدا في الدنيا، وكذلك الأنبياء لا يورثون، فيرث سلالة النبوة من آل يعقوب، حيث كانت فيهم النبوة مستمرة حتى آخرهم نبي الله عيسى عليه السلام.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۗ (٥) يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۚ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا ۗ (٦) ﴾ سورة مريم: ٥-٦.

ودعا ربه أن يجعله مرضيا عنده وعند خلقه، فيحبه الله عليه السلام يحبه الناس، في دينه خلقه وعبادته.



١- عطاءات الله لزكريا عليه السلام بلا حدود:

لقد استجاب الله تعالى له ما سأل في دعائه، فبشره الله بغلام اسمه يحيى، لم يسم أحد قبله بهذا الاسم على الإطلاق. قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَنْزَكِرِيَا إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۗ (٧) ﴾ سورة مريم: ٧.

وهذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لا يولد له، وكانت امرأته عاقرا من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة عليهما السلام، فإنهما تعجبا من البشارة بإسحاق؛ لكبرهما لا لعقرهما، فتعجب زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل، وبشر- بالولد، وفرح فرحا شديدا، وسأل عن كيفية ما يولد له، مع أن امرأته كانت عاقرا، لم تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبرت سنه، ونحل جسده، ولم يبق فيه لقاح ولا جماع.

﴿ قَالَ تَعَالَى: قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَأَنَّتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ

الْكِبَرِ عِتْيًا ﴿٨﴾ سورة مريم: ٨.

قال الملك مجيباً لذكرياء عليها السلام عما استعجب منه، إن إيجاد الولد منك ومن

زوجتك هذه أمر يسير سهل على الله عز وجل ثم ذكر له ما هو أعجب عما سأل عنه.

﴿ قَالَ تَعَالَى: قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ

شَيْئًا ﴿٩﴾ سورة مريم: ٩.

قال زكرياء عليه السلام مخاطباً ربه اجعل لي علامة ودليلاً عن وجود ما وعدتني،

لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني، قال علامتك أن يجبس لسانك عن الكلام

ثلاث ليالٍ، وأنت صحيح سوي من غير مرض ولا علة إلا بالإشارة، وفي اليوم

الذي بشر فيه بالولد أشار إشارة خفية سريعة، موافقة له، فيما أمر به في هذه الأيام

الثلاثة، زيادة على أعماله، شكراً لله على نعمة التي أولاه إياها.

﴿ قَالَ تَعَالَى: قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ

سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ سورة مريم:

١٠-١١.

لقد وجد زكرياء عليه السلام هذا الغلام المبشر - به، وهو يحيى، وأن الله عز وجل علمه

الكتاب وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم، يحكم بها النبيون الذين أسلموا

للذين هادوا والربانيون والأخبار، وقد كان سنه صغيراً.

ومما أنعم الله ﷻ عليه وعلى والديه، تعلم الكتاب بجد وحرص واجتهاد، وآتاه الله الفهم والعلم والجد والعزم، والاقبال على الخير، والإكباب عليه والاجتهاد فيه، وهو صغير حدث. قَالَ تَعَالَى: ﴿يَنحِي حُذَّ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ وَأَيُّنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ ﴿١٢﴾ سورة مريم: ١٢.

وأن الله ﷻ أعطاه حنانا من عنده لا يقدر عليه غيره، فالله أعطاه الحكم والحنان وزكاة، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل، كما تقول العرب حنت الناقة على ولدها، وحتت المرأة على زوجها، وحنَّ الرجل إلى وطنه، ومنه التعطف والرحمة، فالله أعطى يحيى الزكاة والطهارة من الدنس والأثام والذنوب، فكان ذا طهر وتقى فلم يقع في ذنب أو معصية. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَنَانًا مِن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ ﴿١٣﴾ سورة مريم: ١٣.

ولما ذكر الله ﷻ طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبته عقوقهما، قولاً وفعلاً، وأمراً ونهياً. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبِرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ ﴿١٤﴾ سورة مريم: ١٤.

ثم ذكر الله ﷻ بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك، السلام عليه في المولد وفي الموت ويوم البعث، أي له الأمان من الله ﷻ في هذه الحالات الثلاث، يوم المولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر. لم يره، فخص الله ﷻ يحيى ﷺ فيها بالكرامة والسلامة في المواطن الثلاثة. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾

ومدح الله ﷻ وزكريا عليه السلام وزوجته فقال: إنهم كانوا يسارعون في الخيرات، في عمل القربات، وفعل الطاعات، ورهباً مما عند الله من عذاب، وكانوا لنا خاشعين، أي مصدقين بما أنزل الله ﷻ أي مؤمنين حقاً، والخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبداً، فكانوا متذللين لله ﷻ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ، يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ، زَوْجَهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۗ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ (٩٠)

سورة الأنبياء: ٩٠.



٢- كفالة زكريا عليه السلام لمريم -عليها السلام- وتعلمه منها:

وتبدأ قصة زكريا عليه السلام في سورة آل عمران في كفالة زكريا عليه السلام لمريم -عليها السلام- من أجل سعادتها؛ لأنها كانت يتيمة، لتقتبس منه علماً جماً نافعاً، وعملاً صالحاً متقبلاً، وكان زوج خالتها، وقيل زوج أختها، وفي الحديث: (فَلَمَّا خَلَصَتْ فَأَذا يَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَهُمَا ابْنَا خَالَةٍ، قَالَ: هَذَا يَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ فَسَلِّمَ عَلَيْهِمَا، فَسَلِّمْتُ فَرَدًّا، ثُمَّ قَالَ: مَرَّحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ). البخاري (٣٤٣٠) عن مالك بن صعصعة الأنصاري.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٧)

سورة آل عمران: ٣٧.

وأما عن كرامات الله ﷻ لهما في محل عبادتها، أنه كلما دخل عليها زكريا عليه السلام المحراب وجد عندها رزقا، أي فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، وهذا من كرامات الله لها.

ولما رأى زكريا عليه السلام ذلك، طمع حينئذ في الولد، وكان شيخا كبيرا قد ضعف، ووهن منه العظم، واشتعل راسه شيئا، وكانت امرأته كبيرة وعاقرا، لكنه سأل ربه، وناداه نداء خفيا، وقال رب هب لي من لدنك ولدا صالحا، فخاطبته الملائمة شفاهة خطابا أسمعتة، وهو قائم يصلي في محراب عبادته، ومحل خلوته، ومجلس مناجاته وصلاته، أنه يولد لك غلام من صلبك اسمه يحيى، مصدقا بعيسى عليه السلام بن مريم، فكان يحيى نبيا مع عيسى عليه السلام ممهدا ومصدقا له.

وسيدا أي حكيما في العلم والعبادة، وكريما على الله، وحصورا أي لا يأتي النساء، وأغلب المفسرين على أن حصورا بمعنى: معصوما من الذنوب، فلا يأتيها لأنه كان حصورا عنها، ومانعا نفسه من الشهوات، فهي موجودة، لكنه يمنعها بمجاهدة النفس وكفاية الله، والبشارة الثانية أنه كان نبيا من الصالحين، وهي أعلى من الأولى.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ. قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ سورة آل عمران: ٣٨ - ٣٩.

فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر، فرد عليك الملك قائلا: كذلك الله يفعل ما يشاء، فهذا أمر عظيم، لا يعجزه شيء، ولا يتعاضمه أمر.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ ﴿٤٠﴾ سورة آل عمران: ٤٠.

فطلب من الله تعالى علامة يستدل بها على الولد، فقال إنك لا تستطيع النطق مع أنك سوى صحيح لمدة ثلاث ليال سويا، ثم أمره بكثرة الذكر والشكر والتسبيح في هذه الحالة، فعظم الله بالعشي- حين نزول الشمس إلى آخر النهار، والابكار ما بين طلوع الشمس إلى وقت الضحى، فكانه قال في كل وقت وحين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ ﴿٤١﴾ سورة آل عمران: ٤١.



٣- دروس وعبر من قصة زكريا عليه السلام ويحيى عليه السلام:

١- النبوة والصلاح والولاية من الله للإنسان، وليست مكتسبة، فالله هو الذي اصطفى الأنبياء، والصالحين، والأولياء من عبادة، وكذلك اصطفى ذرياتهم، فاصطفى آل عمران، واصطفى مريم-عليها السلام- واصطفى زكريا ويحيى-عليهما السلام-، وجعلهم أنبياء ومرسلين، فالله فضلهم في الأمور التي ميزهم بها على أهل زمانهم وعصرهم.

٢- كفالة زكريا عليه السلام لمريم -عليها السلام- كانت اختيارا من الله ﷻ فهو زوج خالتها، فهي تعيش في كفالة خالتها، وزوج خالتها يرعاها ويكفلها، وقد تجمع علماء بني إسرائيل فيمن يكفل مريم -عليها السلام- فألقوا أقلامهم في البحر، فأيم قلمه طفا فوق الماء فهو كفيل مريم -عليها السلام- فكانت من نصيب زوج خالتها زكريا عليه السلام فقام على رعايتها وتعليمها وخدمتها.

٣- إن الله ﷻ يعلم الإنسان من حيث لا يدري ولا يتوقع، فمريم -عليها السلام- تلميذة زكريا عليه السلام وهو معلمها ومربيها، لكنها سبقت في طريقها إلى الله ﷻ فخصها الله ببعض العطاءات والكرامات، أعطاها الله ﷻ فكهة الصيف في الشتاء، والعكس، فقد يكون في المفضل ما ليس في الفاضل، وقد يكون في التلميذ ما ليس في الأستاذ، وفي الطالب ما ليس في المدرس، وفي مريم -عليها السلام- ما ليس في زكريا عليه السلام.

فلما رأى هذه الكرامات تحركت نفسه نحو تحصيل الولد، فقد رأى مشاهدات عجيبة، أن عطاء الله ﷻ لا حدود له، ومشية الله لا تقف أمامها أسباب أو قوانين، فالذي أعطى مريم -عليها السلام- بدون حساب وسؤال، قادر على أن يعطي زكريا عليه السلام الولد، رغم كبر سنه، وزوجته عاقر، وكبرت سنها، فحسب موازين البشر لا تصلح للحمل والولادة، لكن موزين الله ﷻ لا تحدها حدود أو قيود.

٤- لقد حقق الله ﷻ طلب زكريا ﷺ في الحال، فاستجاب له الدعاء، وبشرته الملائكة بيبى ﷺ وبشره الله بالنبوة والعلم والسيادة والصلاح، وجعله بارا بوالديه، وجعله ذرية صالحة له، ومن شدة فرح زكريا ﷺ لقبول دعائه، وتحقيق سؤاله، اندهش أشد الاندهاش، وتعجب مما يعطيه الله إياه، الذي جاءه في نهاية عمره، وقرب أجله ونهايته، ووقوف الأسباب المادية أمامه، من كبر سنه، وعقارة زوجته، فكانت الإجابة القاطعة التي تذهب دهشته وتعجبه كذلك الله يفعل ما يشاء.

٥- عطاءات الله ﷻ لا تقف أمامها حدود أو حواجز، وهي مبهرة ومدهشة لأوليائه وأحبابه، فطلب زكريا ﷺ دليلا ماديا ليعلم أن زوجته حامل، وأن دعائه يتحقق أمامه، فأمسك الله لسانه عن الكلام مع الناس ثلاث أيام إلا رمزا، لكن لسانه كان طلقا في العبادة والذكر والاستغفار في الصباح والمساء، وهذه آية من آيات الله الباهرة، ونعمة من نعمه العظيمة على عبده زكريا ﷺ، الذي تعود منه الكرم والعطاء، بلا حساب وبلا حدود.

٦- إن الله تعالى يعد أنبياءه إعدادا خاصا، فأعد يحيى قبل أن يولد، وأمره أن يأخذ الكتاب أي التوراة بقوة، أي بجهد واجتهاد وصدق، وأعطاه الله ﷻ الفهم والعلم، فكان يقرأ التوراة على بني إسرائيل في سن صغيرة، قيل سبع سنوات، وآتاه الله الرحمة، وزكاه بالعمل الصالح، وجعله تقيا يتقى الله ﷻ ولا يخاف غيره، ولا يعدل معه أحد، مهما كانت قوته وسطوته ونفوذه.

٧- إن الله ﷻ جعل زكريا عليه السلام يرى ثمرة غرسه، ونتاج زرعه، ومهجة فؤاده، في بر يحيى ولده به، فكان هينا لينا بارا بوالديه، لطيفا معها بحسن المعاملة، خاصة في كبر السن والشيخوخة، ولم يكن جبار متسلطا على الناس، فطهره وباركه، وسلمه الله في المواطن التي يحتاج فيها إلى السلام والأمان.

٨- إن قصة زكريا عليه السلام وزوجته تفتح باب الأمل أمام كل إنسان لم يرزق الولد، فالعاقر لا يظل عاقرا مدى الحياة، والطريق إلى تحصيل ما عند الله ﷻ من نعم وعطاء هو الدعاء، والخشوع، والمسارة في فعل الخيرات، فالعبد عليه الدعاء، والله عليه القبول.

فكما أن عطاء الله لا يقف عند حد أو إنسان، فلم يقف عند مريم-عليها السلام- وزكريا عليه السلام، وإنما يمتد ليشمل كل عبد صالح، أخذ طريقه إلى الله بصدق وإخلاص، فليس عند الله شيء يسمى المستحيل، وإنما عطاءات الله ﷻ تتجدد وتستمر حتى قيام الساعة، لمن طرق بابه، ولاذ بجنابه، وعاش وقلبه معلق بالله ﷻ ومشيتته المطلقة، التي لا تقف أمامها حدود أو حواجز.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من:

﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا

الْأَنْبِيَاءِ ﴾ سورة الزمر الآية (١٨).



(١٩) قصة مريم - عليها السلام - دروس وعبر.

- ١- زوجة آل عمران ونذرها وحملها لمريم - عليها السلام - وكفالة وكريا لها.
- ٢- مريم - عليها السلام - الطاهرة وحملها للمسيح.
- ٣- دروس وعبر من قصة مريم - عليها السلام -.



وردت قصة مريم - عليها السلام - بصورة مفصلة في سورة آل عمران، وهو والدها، وفي سورة مريم وهي سورة تسمى باسمها، والسورة الوحيدة التي سميت باسم امرأة في القرآن الكريم، ثم وردت في آيات قليلة في سورة الأنبياء والمؤمنون.

١- زوجة آل عمران ونذرها وحملها لمريم - عليها السلام - وكفالة زكريا لها. وتبدأ القصة في أن الله ﷻ اصطفى بيت أبيها مع آدم ونوح وآل إبراهيم على العالمين وخص هؤلاء بالذكر لأن الأنبياء من نسلهم، وأن الله فضلهم في الأمور التي ميزهم بها على أهل زمانهم. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ سورة آل عمران: ٣٣.

وزوجة عمران اسمها حنة، وزوجها عمران بن ماتان، ومريم - عليها السلام - ليست أخت هارون في النسب، وإنما في العفة والطهارة والنقاء.

كما أنهم كانوا يسمون بأسماء الأنبياء، ومريم -عليها السلام- من سلالة داود عليه السلام ولذلك كانوا ينادون على عيسى يا بن داود، ونسبه في الإنجيل من جهة أمه، التي يقولون إنها كانت مخطوبة ليوסף النجار.

فالله اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، وعمران هو والد مريم بنت عمران، وأم عيسى بن مريم -عليها السلام- فعيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم من فرع إسحاق، فبعضهم من بعض في التناصر والدين. قَالَ تَعَالَى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سورة آل عمران: ٣٤.

وامرأة عمران كانت لا تحمل، فاشتتت الولد، فدعت الله أن يهبها ولدا، فاستجاب الله دعاها، فلما تحققت الحمل نذرت أن يكون محررا، أي خالصا مفرغا للعبادة، وخدمة بيت المقدس، وقد سمع الله دعاها، وهو العلم بنيتها، ولم تكن تعلم ما في بطنها أذكرا أم أنثى؟. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَتْ أُمَّرَأْتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ سورة آل عمران: ٣٥.

فلما وضعت ما في بطنها فوجئت بأنها أنثى، وكانت تتمنى أن يكون ذكرا، فهو أشد في القوة والجلد في العبادة، وخدمة المسجد الأقصى، وقد سمتها في يوم ميلادها بمريم -عليها السلام- وهي تعني العابدة والطاهرة، وقد عوذتها بالله من شر الشيطان، وعوذت ذريتها وهو ولدها عيسى عليه السلام، وفي الحديث: (مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمْسُهُ حِينَ يُوَلَّدُ، فَيَسْتَهْلُ صَارِحًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ، إِلَّا

مَرِيَمَ وَابْنَهَا، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَأُوا إِنَّ شِئْتُمْ: {وَإِنِّي أُعِيدُهَا بَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [آل عمران: ٣٦]. البخاري (٤٥٤٨) عن أبي هريرة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ سورة آل عمران: ٣٦

لقد تقبل الله ﷻ من أمها نذرها، وأنبتها نباتا حسنا، فجعل لها شكلا مليحا، ومنظرا بهيجا، ويسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده، تتعلم منهم العلم والخير والدين، من أجل ذلك كفلها زكريا عليه السلام فكن كافلا لها، لأنها كانت يتيمة، وقدر الله لها زكريا عليه السلام لسعادتها، لتقتبس منه علما نافعا، وعملا صالحا، وكان زوج خالتها، وقيل زوج أختها.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَنَقَلْنَاهَا رُبَّهَا بِقَبُولِ حَسَنِ وَأُنْبَتْنَاهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ سورة آل عمران: ٣٧.

وأما سيادتها وجلالتها في محل عبادتها، أن كفلها زكريا عليه السلام كلما دخل عليها المحراب وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، وهي كرامة أعطاها الله لها، فلما رأى زكريا عليه السلام هذا سأها عن مصدر الرزق.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ سورة آل عمران: ٣٧.

وقد جعل الله مريم -عليها السلام- وابنها آية للعالمين، ومريم اسم أعجمي وليس عربيا، والمسلمون من حبهم لها يسمون بناتهم باسمها، وهي المرأة الوحيدة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم باسمها صراحة، دون غيرها من النساء، ووصفها الله بالعفة والطهارة والنقاء.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٩١﴾ سورة الأنبياء: ٩١.

لقد خاطبت الملائكة مريم -عليها السلام- عن أمر الله لها، أن الله قد اصطفاهَا واختارها لكثرة عبادتها، وشرفها وطهرها من الأكدار والوساوس، واصطفاهَا مرة ثانية لجلالتها على نساء العالمين. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٢﴾ سورة آل عمران: ٤٢.

وفي الحديث: (خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ). مسلم (٢٤٣٠) عن علي بن أبي طالب.

وقال: (حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ) الترمذي (٣٨٧٨) صحيح عن أنس بن مالك.

وفي الحديث: (كَمَلَمِنْ الرِّجَالِ كَثِيرٍ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ) البخاري (٣٧٦٩) عن أبي موسى الأشعري.

لقد أخبر الله الملائكة أنهم أمروها بكثرة العبادة، والخشوع والخضوع، والسجود والركوع، والدؤوب في العمل، لما يريد الله بها من الأمر الذي قدره الله وقضاه، مما فيه منحة لها، ورفعة في الدارين، بما أظهر الله فيها من قدرته العظيمة، حيث خلق منها ولدا من غير أب، والقنوت هو الطاعة في خشوع. قَالَ تَعَالَى:

يَمْرِيْمُ أَفْتَىٰ لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِيْنَ ﴿٤٣﴾ سورة آل عمران: ٤٣.

لقد بشرتها الملائكة بأنه سيوجد منها ولد عظيم، له شأن كبير، يكون وجوده بكلمة من الله، كن فيكون، يكون مشهورا باسم المسيح عيسى ابن مريم عليها السلام في الدنيا، ويسمى بالمسيح عليه السلام لكثرة سياحته، أو لأنه مكان مسيح القدمين، أو لأنه كان إذا مسح أحدا من ذي العاهات برئ بإذن الله.

ونسب إلى أمه لأنه ولد بدون أب، وله وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا، بما يوحيه الله إليه من شريعة، وبما ينزله عليه من الكتاب، وأما في الآخرة فهو يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه فيقبل الله منه.

ورسالته هي الدعوة إلى عبادة الله، وحده لا شريك له، وهو في حال صغيره معجزة وآية، وكذلك في حال كهولته حين يوحى إليه، وهو من الصالحين، بقوله وعمله. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلٰٓئِكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيْحُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِيْنَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا وَمِنَ الصَّٰلِحِيْنَ ﴿٤٦﴾

سورة آل عمران: ٤٥ - ٤٦.

لما سمعت مريم عليها السلام -بشارة الملائكة لها بذلك، قالت في مناجاتها، كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج؟ ولا من عزمى أن أتزوج؟ ولست بغيا؟.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ سورة آل عمران: ٤٧.

فرد عليها الملك كذلك الله يخلق ما يشاء، فهذا أمر عظيم من الله ﷻ لا يعجزه شيء، فهو خلق بكلم الله، فلا يتأخر شيئاً، بل يوجد عقب الأمر مباشرة بلا مهلة. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ سورة القمر: ٥٠.

ومن تمام بشارة الملائكة لمريم عليها السلام -بابنها عيسى ﷺ أن الله يعلمه الكتاب والحكمة، أي الكتابة، والفهم في الدين، والتوراة كتاب موسى، والإنجيل كتاب عيسى ﷺ الذي سينزل عليه. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ سورة آل عمران: ٤٨.

وأن الله خصه بالرسالة إلى بني إسرائيل، وشفاء بعض الأمراض، ويخلق من الطين كهيئة الطير، ويحيى الموتى بإذن الله، ويخبر الناس بما أكل أحدهم في بيته، وما هو مدخر عنده لغد، وهذا كله أدلة وبراهين على صدقه، ومقرا للتوراة ومثبتا لها، وينسخ بعض الأحكام من شريعة موسى، وبين لهم ما كانوا يتنازعون فيه من أخطاء، وجاءهم بحجج ودلالات على صدقه، وهو في هذا كله لا يتعدى كونه عبدا من عباد الله سبحانه وتعالى.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِإِحْلَافِكُمْ بِبَعْضِ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عِوَابَةَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ سورة آل عمران: ٤٩ - ٥١.

وقد جاء في سورة مريم تفاصيل في قصة الحمل والولادة، وكيف واجهت قومها بهذا المولود الجديد.

عطف الله على قصة زكريا عليه السلام بذكر قصة مريم، في حملها لولدها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة، وتقارب في ما بينهما في المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمته وسلطانه، وأنه على ما يشاء قدير، وقصة مريم مربوطة بقصة زكريا عليه السلام ويحيى، فهي تمهيد لها، ففي إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن، ومن امرأة عجوز عاقر، لم تكن تلد في حال شبابها، ثم يذكر قصة مريم -عليها السلام- وهي أعجب، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر، والله يقول في سورة المؤمنون: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ سورة المؤمنون: ٥٠. والرَبْوَةُ المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات، ذات خصب وماء ظاهر، قيل: غوطة دمشق وما حولها، وقيل: هو بيت المقدس.



٢- مريم -عليها السلام- الطاهرة وحملها للمسيح ﷺ:

لقد اعتزلتهم مريم -عليها السلام- وتنحت عنهم، وذهبت إلى شرق المسجد المقدس، واستترت منهم وتوارت، فأرسل الله ﷻ إليها جبريل في صورة إنسان كامل، فلما تبدى لها الملك في صورة بشر، وهى في مكان منفرد، وبينها وبين قومها حجاب، خافته وظنت أنه يريد لها على نفسها، فقالت إن كنت تخاف الله فأنا استجير بالرحمن منك، فقال الملك ليزول عنها الخوف أنا لست مما تظنين، ولكني رسول ربك، بعثني إليك لأهب لك غلاما زكيا، فتعجبت مريم -عليها السلام- وقالت كيف يكون لي غلام، أي على أي صفة يوجد هذا الغلام مني، وليس لي زوج، ولا يتصور مني الفجور.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴿سورة مريم: ١٦-٢٠.﴾

فقال الملك: إن الله قال سيوجد منك غلامًا، وإن لم يكن لك بعل، ولا يوجد منك فاحشة، فإنه قادر على ما يشاء، وهو نفسه الغلام سيكون دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم، الذي نوع في خلقهم، فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وحواء من ذكر بلا أنثى، وباقي الذرية من ذكر وأنثى، وعيسى ﷺ من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية، الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه.

والله سبحانه يجعل هذا الغلام رحمة منه نبيا من الأنبياء، يدعو إلى عباد الله وتوحيده، في مهده وكهولته، وهذا أمر مقدر في علم الله ومشيئته، وأن الله عزم على هذا فليس منه بد. قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ٢١ ﴾ سورة مريم: ٢١.

لقد استسلمت مريم-عليها السلام-لقضاء الله تعالى، ونفخ الملك في كمها أو جيبها وحملت به تسعة أشهر، وحينما جاء المخاض، اضطرها وألجأها الطلق إلى جذع نخلة في المكان الذي تنحت إليه، وهو في بيت لحم، فعرفت أنها ستبلى وتمتحن بهذا المولود، الذي لا يحمل الناس فيه أمرها على الصدق في خبرها، فبعدها كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فتمنت الموت، وقالت يا ليتني لم أخلق ولم أك شيئا لا يعرف، ولا يذكر، ولا يدرى من أنا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ، مَكَانًا قَصِيًّا ٢٢ ﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ٢٣ ﴾ سورة مريم: ٢٢-٢٣.

فنادها الذي تحتها أي جبريل من أسفل الوادي، وقيل: عيسى عليه السلام، فقال: لا تحزني قد جعل ربك تحت سر يا أي نهر، وهذي إليك بجذع النخلة، والظاهر أنها كانت شجرة، ولم تكن في وقت ثمرها، ولهذا امتنَّ عليها بذلك، أي طيبي نفسا، فعندك الطعام والشراب، وقالوا خير طعام للنفساء التمر والرطب، ومهما رأيت من أحد فأشيري إليه بأنك نذرت للرحمن صوما، فلزمت الصمت.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَنَادَيْنَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزِيءَ إِلَيْكَ بِجُدِّعِ النَّخْلَةَ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ سورة مريم: ٢٤-٢٦.

إن الله تعالى سوف يتكفل بالدفاع عن مريم-عليها السلام- وهي ساكنة صامتة، فسلمت أمرها لله، واستسلمت لقضائه، فأخذت ولدها، فلما رأوها كذلك اعظموا أمرها، واستنكروه جيدا، وقالوا يا مريم لقد جئت أمرا عظيما، يا شبيهة هارون في العبادة، أنت من بيت طيب طاهر، معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك، فلما استرابوا في أمرها، واستنكروا قضيتها، وقالوا لها معرّضين بقذفها، ورميها بالفرية، وكانت يومها هذا صائمة وساكنته وصامتته، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهكمين بها، ظانين أنها تزدرى وتلعب بهم، كيف نكلم من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأْتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ. قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَأَخَتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ سورة مريم: ٢٧-٢٩.

فأنطقه الله في مهده ليرد عليهم، فنزه جناب ربه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه، وجعلني نبيا، تبرئه لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة.

وجعلني معلما للخير، وأخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت، وأعرف
ببر والدتي، فذكر بعد طاعة ربه وعبادته ما يقرن بذلك، وهو طاعة الوالدين، ولم
يجعلني جبار شقيا، مستكبرا عن عبادته وطاعته وبر والدتي، فأشقى بذلك.

وإثباتا لعبوديته لله، ذكر أنه مخلوق من خلق الله، يحيا ويموت ويبعث كسائر
الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال، التي هي أشق ما يكون على العباد.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا
كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ
وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۗ ﴾ سورة مريم: ٣٠-٣٣.

وهذا الذي قصه الله على نبينا محمد ﷺ في القرآن الكريم من خبر عيسى
عليه السلام هو قول الحق الذي يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به. قَالَ تَعَالَى: ﴿
ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۗ ﴾ سورة مريم: ٣٤.

ولما ذكر الله ﷻ أنه خلقه عبدا نبيا، نزه نفسه المقدسة عن الولد كما يقول
الجاهلون، فإن الله إذا أراد شيئا فإنما يأمر به، فيصير كما يشاء، وأن الله ربهم وربهم،
وأمرهم بعبادته، فهذا الذي جئتكم به من عند الله هو الصراط المستقيم القويم، من
تبعه رشد وهدى، ومن خالفه ضل وغوى. قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ
سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۗ ﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۗ

﴿ ٣٦ ﴾ سورة مريم: ٣٥-٣٦.



٣- دروس وعبر من قصة مريم -عليها السلام-:

١- الله سبحانه وتعالى له طلاقة المشيئة الإلهية، يفعل ما يشاء، ويختار ما يشاء، ويصطفى من يشاء، على من يشاء، فهو الإله، وهو الخالق، وهو الرازق، وإليه المرجع والمآب، فاصطفى الله الأنبياء وذرياتهم على العالمين في عصرهم، لحكمة يعلمها فيهم، فهو الذي اختارهم وأعدهم، وصنعهم على عينه، فليس لأحد من البشر اعتراض أو رفض، لأنه لا يملك من أمر نفسه شيء، فكيف في أمر يتعلق بالذات الإلهية، ولما اعترض مشركو قريش على اختيار محمد ونبوته ورسالته، كان جحودا منهم، ورد الله عليهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَدَعَلِمَ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ سورة الأنعام: ٣٣.

٢- اخلاص النية لله في النذر والعبادة، وفي كل شيء، أمر مدعاة للقبول والتوفيق، فهكذا فعلت زوجة عمران - أم مريم - فنذرت ما في بطنها خالصا لله، بعيدا عن أي حظ من حظوظ النفس أو الدنيا، فقبل الله نذرها، وحقق لها أكثر مما كانت تتطلع إليه، فتقبلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتا حسنا، وكفلها زكريا عليه السلام، ورزقها الله رزقا واسعا، من حيث لا تتخيل أو تحتسب، هي وزكريا عليه السلام، واندھش زكريا عليه السلام من سعة عطاء الله ورحمته، ففتحت أمامه باب الأمل، في أن يتوجه إلى الله بالدعاء، يسأله ما يجب وما يشتهي، وهو الولد الذي يرثه في النبوة والعلم.

٣- أهمية الدعاء في حياة المسلم على مسار اليوم والليلة، وعلى مسار الحياة كلها، فالدعاء يفتح المغاليق، ويفرج الكروب، ويزيل الهموم، ويحقق الأماني،

فذكر يا العليه أصلح الله له زوجته، ورزقه الولد في الكبر، بعد عقم وشيخوخة، وإبراهيم بشره الله بإسحاق في كبر سنه وزوجته، وزوجة عمران حفظ الله لها مريم -عليها السلام- وابنتها من مس الشيطان ونزغه ووسوسته، والدعاء في حياة المسلم معراج لروحه وكلماته عند الله، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ سورة غافر: ٦٠. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلِيمًا﴾ سورة النساء: ٣٢.

فلقد غير الدعاء مسيرة كثير من الناس، فنجأ الله به الأنبياء من خصومهم، وحفظ الله به الأولياء من الكيد المحيط بهم، وحقق لكثير من المؤمنين سؤلهم ومطالبهم، وفي الحديث (ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رجم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال إما أن يُعجَّل له دعوته وإما أن يدخر له في الآخرة وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها). الشوكاني في فتح القدير ١/ ٢٧٤. صحيح عن أبي سعيد الخدري.

٤- أهمية العبادة في حياة المسلم، فهي سبب من أسباب القبول والتوفيق من الله، فالمحراب هو موضع العبادة، وأشرف مكان في المسجد، فذكر يا العليه كفيلاً مريم -عليها السلام- كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا.

وذكر يا العليه حينما رأى عطاء الله لمريم -عليها السلام- أدهشه، فدعاها فاستجاب له، فنادته الملائكة وهو يصلي في المحراب، فلا يوجد دين بلا عبادة، ولا توجد عبادة بدون صلاة، والصلاة صلة بين العبد وربّه، تصل المخلوق بالخالق في

أحسن صورة وابهاها، وأجملها وأسمهاها، فعلى المسلم أن يحرص على العبادة في صورها المتنوعة، فهي (اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة).

٥- تعد السيدة مريم -عليها السلام- الطاهرة العابدة الذكية النقية، واحدة من أفضل نساء العالمين، التي أكملهن الله كما جاء في الحديث السابق ذكره، فكانت صورة مثالية للعبادة، والاستسلام والابتلاء، والصبر والثبات، وتحمل المشاق التي ابتليت بها، فعظم الأجر والمنزلة من عظم البلاء، ولقد نجحت في الاختبار إلى أقصى -درجة وشهد الله لها بذلك. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ أَللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ﴾ سورة آل عمران: ٤٢.

٦- تعد قصة مريم -عليها السلام- من منظور القرآن الكريم غيباً، لم يعلمه الرسول ﷺ من قبل، وكذلك اختصاصهم فيمن يكفلها، وكفالة زكريا عليه السلام لها، فالذي أعلم النبي ﷺ بذلك إنما هو الله ﷻ وهي قصة صحيحة يقبلها العقل والمنطق والواقع، وتتوافق مع مكانة مريم -عليها السلام- واصطفاء الله لها.

وهي على خلاف ما يعتقد اليهود في مريم -عليها السلام- حيث رموها بالزنا والانحراف، وخلاف ما يعتقد النصارى فيها، حيث حملت ابن الإله، ففيه جانب إنساني، وجانب الإلهي، لذلك اختلفوا في كيفية الحمل والولادة، وحقيقة كنه المولود.

٧- من أبرز المعجزات القوية التي تؤكد براء مريم عليها السلام-إنها طاهرة وعفيفة أن الله أنطق وليدها الصغير، وعمره عدة أيام، فتكلم في المهد، فأكد براءة أمه، وأنه عبد الله، وليس إلهًا ولا ابناً للإله، وأنزل الله سورة في القرآن الكريم تبين وتوضح وتؤكد ذلك، وهي صورة الصمد، أن الله لم يلد ولم يولد وليس له زوجة أو صاحبه وفيها رد على مزاعم النصارى فيما نسبوه لعيسى عليه السلام أو مريم- عليها السلام- أو الله تعالى.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ سورة الإخلاص: ١- ٤.

٨- إن الله أيد عيسى عليه السلام بمعجزات كثيرة، تدل على صدق نبوته، وصحة رسالته، وكانت هذه المعجزات من مثل ما برع فيه قومه ومعاصروه، من التقدم في الطب، والحياة المادية الصرفة، التي كانت تسيطر على اليهود، فجاءت معجزاته تركز على الجانبين، لتتحداهم في الجانب الطبي وعلاج المرضى، وترد على منكري الروح، وتغلغل الحياة المادية في الحياة كلها.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ

هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۝١٨﴾ سورة الزمر الآية (١٨).



(٢٠) قصة قوم لوط عليه السلام دروس وعبر.

١. إبراهيم عليه السلام ولوط عليه السلام تاريخيا والعلاقة بينهما.
٢. انحراف قوم لوط عليه السلام عن الفطرة، وحوارهم معه عليه السلام ونزول العذاب.
٣. دروس وعبر من قصة قوم لوط عليه السلام.



وردت قصة لوط عليه السلام في القرآن الكريم في سورتين بالتفصيل، في سورة هود وسورة الحجر، ووردت مجملية في صورة إشارات في سورة الأعراف، والشعراء، والنمل والعنكبوت، والصفات، والقمر.

١- إبراهيم ولوط-عليهما السلام-تاريخيا، والعلاقة بينهما:

لوط عليه السلام هو هاران بن آزر، ابن أخي إبراهيم خليل الرحمن، وكان قد آمن مع إبراهيم، وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله إلى أرض سدوم، وهي مشهورة ببلاد النور، بناحية جبال بيت المقدس. وفي سورة الصفات أشارت إلى موضعهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَنُؤْمِنُ عَلَيْهِمْ مَّصْبِحِينَ﴾ (سورة الصفات: ١٣٧).

أي أفلا تعتبرون بهم، كيف دمر الله عليهم، وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله، وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم الفواحش، التي اخترعوها، ولم يسبقهم إلى ذلك أحد من بني آدم من قبل، وهي إيتان الذكران، وهذا شيء لم تكن بنو آدم تعهده ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل سدوم، قال

الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي: (لولا أن الله قص علينا خبر لوط عليه السلام ما ظننت أن ذكرا يعلوا ذكرا).

فعدلوا عن النساء إلى الرجال، وهو إسراف وجهل، لأنه وضع للشيء في غير محله وموضعه، فقد اكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء، ولم يستجيبوا لنيهم لوط عليه السلام حينما وعظهم وزجرهم ونهاهم عن هذا العمل الشاذ القبيح، فهموا بإخراجه ونفيه هو ومن معه من بين أظهرهم،

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ (١٦٧) سورة الشعراء: ١٦٧.

أي نفيك من بيننا، فأخرجه الله سالما، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين، لقد عابوا لوطا عليه السلام بغير عيب، فلو ط عليه السلام ومن معه كانوا يتطهرون من الحرام، والأدبار، والشذوذ الجنسي أو إتيان الذكران.

وكانوا مع هذا يكفرون بالله، ويكذبون رسوله، ويقطعون طريق الناس، فيقتلونهم ويأخذون أموالهم، ويفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئا عن ذلك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ

الْعَالَمِينَ ﴾ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ۗ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿ (٨١)

ولوط عليه السلام لم يؤمن به سوى أهل بيته فقط، إلا امرأته لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، كانت تخبرهم بمن يقدم عليه عن ضيفانه، بإشارات بينها وبينهم قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (٨٣) سورة الأعراف: ٨٣.

ولهذا لما أمر الله لوطا عليه السلام أن يسرى بأهله ألا يعلمها ولا يخرجها من البلد، بل بقيت معهم، فامرأته كانت من الهالكين، فأرسل الله الملك، فرفع القرية وقلبها، ثم أمطر عليها حجارة من سجيل، وقال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم انظر كيف كان عاقبة من يجتزئ على معاصي الله ويكذب رسله؟.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَأَتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (٨١) سورة هود: ٨١

ذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن اللائط يُلقى من شاهق ويتبع بالحجارة، كما فعل بقوم لوط عليه السلام، وذهب آخرون إلى أنه يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن، وفي الحديث: (من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به) وقال آخرون يعامل معاملة الزاني، إن كان محصناً رجم، وإن كان غير محصن يجلد.

٢- انحراف قوم لوط عليهم السلام عن الفطرة وحوارهم معه عليه السلام ونزول العذاب:

وبدا قصة لوط عليه السلام في سورة هود بعد قصة إبراهيم مباشرة، فجاءت الملائكة لإبراهيم تبشره بإسحاق، وبهلاك قوم لوط عليهم السلام، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ

إِبْرَاهِيمَ الرُّوحِ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ مُجْدِلًا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ
أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ سورة هود: ٧٤-٧٦.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنَّكَ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْآلِ

أَمْرَاتِهِ، كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ سورة العنكبوت: ٣٢

فكست عنهم واطمأنت نفسه، وقالت الملائكة: لقد نفذ فيهم القضاء،
وحقت عليهم الكلمة بالهلاك.

يخبر تعالى عن قدوم الملائكة إلى لوط عليه السلام وهو في منزله، وهم في أجمل
صورة وأحسن هيئة، شبان حسان الوجوه، فساء شأنهم، وضاعت نفسه بسببهم،
وخشى عليهم من قومه أن ينالهم أحد بسوء، وقال هذا يوم شديد بلاؤه، لأنه
سوف يدافع عنهم، ويشق عليه ذلك.

أراد لوط عليه السلام أن يضيفهم وكان قومه قد نهوه أن يضيف رجلا، فجاء بهم
إلى بيته، ولم يعلم أحد بهم، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، فجاءوا يهرعون إليه،
أي يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك، وهم لا يزالون على ما فيهم في عمل
الفاحشة الحرام، في إتيان الذكران.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ
عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هُنَّ لَاءَ بَنَاتِي
هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ سورة هود: ٧٧-٧٨

قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم، فأرشدكم إلى الزواج بالنساء، فهو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، وكل نبي أبو لأمته، فنساء القوم هن بنات لوط عليه السلام فأقبلوا ما أمركم به عن الاقتصاد على نسائكم، أليس منكم رجل فيه خير يقبل ما أمره به، ويترك ما أنهاه عنه، قالوا: إنك تعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن، فليس لنا غرض إلا في الذكور، وأنت تعلم ذلك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ۗ ﴾ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي

بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ سورة هود: ٧٩ - ٨٠.

لقد توعدهم لوط عليه السلام بقوله لو أن لي بكم قوة، لكنك نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي، (ورحم الله لوطاً أن كان لياوي إلى ركنٍ شديدٍ إذ قال لقومه لو أن لي بكم قوةٌ أو آوي إلى ركنٍ شديدٍ قال فما بعث الله نبياً بعده إلا في شدة من قومه). البداية والنهاية لابن كثير ١ / ١٩٤. عن أبي هريرة.

فأخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه، وأنهم لا وصول لهم إليه، وأمره أن يسرى بأهله من آخر الليل، وأن يتبع أدبارهم، ولا يلتفت منكم أحد إذا سمع ما نزل بهم من الأصوات المزعجة، ولكن استمروا ذاهبين. قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُؤْسُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ إِلَىٰ أَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۗ ﴾ (٨١) سورة هود: ٨١.

لقد قربوا إليه هلاك قومه تبشيراً له، لأنه طلب منهم أن يهلكوهم الساعة

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۗ ﴾ (٨١) سورة هود: ٨١.

فإنما قوم لوط عليه السلام وقوف على الباب، وعكوف عليه، جاءوا إلى لوط عليه السلام يهرعون من كل جانب، ولوط عليه السلام واقف على الباب يدافعهم ويردهم ويناهم عما هم فيه، وهم لا يقبلون منه، بل يتوعدونه فعند ذلك دخل عليهم جبريل، فضرب وجوههم بجناحه، فطمس أعينهم فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق، فهذا مصداق قوله، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَودُوهُ عَنْ صَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٩﴾ سورة القمر: ٣٧-٣٩.

فلما جاء أمرنا، وكان ذلك عند طلوع الشمس، حملت القرية على جناح جبريل، فرفعها إلى السماء ثم قلبها، فغشاها ما غشى، ثم أمطر الله عليها حجارة من سجيل، أي حجارة من طين، مستحجرة قوية شديدة وكبيرة، معدة لذلك، وكانت متتالية من السماء يتبع بعضها بعضا، وكانت معلمة مختومة، كل حجر مكتوب عليه اسم صاحبه الذي ينزل عليه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَاقِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ سورة هود: ٨٢-٨٣.

وقيل إنها نزلت على أهل البلد جميعا، فلم تترك منهم أحدا حتى أهلكتهم جميعا، وهذا مصداق قوله، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمُؤَنَّفَكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴿٥٤﴾ سورة النجم: ٥٣-٥٤.

وختم الله القصة بقوله، قَالَ تَعَالَى: ﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ

بِيعِيدٍ ﴿٨٣﴾ سورة هود: ٨٣. وليس هذا الانتقام لمن تشبه بهم في ظلمهم، ببيعد عنه.

وفي سورة الحجر نجد قوله، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَعَنَّاكَ إِتْمُهمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ سورة الحجر: ٧٢-٧٥.

فأقسم تعالى بحياة نبيه، وفي هذا تشریف عظيم، ومقام رفيع، وجاه

عريض، قال ابن عباس (قال ابن عباس رضي الله عنهما) ما خلق الله تعالى، وما

ذراً، وما برأ نفساً- أكرم عليه من محمد-، وما سمعت الله تعالى أقسم بحياة أحد

غيره) أي وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا إنهم لفي سكرتهم يعمهون، أي في

ضلالهم يلعبون ويتمادون.

والصيحة التي أخذتهم، هي الصوت القاصف، عند شروق الشمس

وطلوها، إن في ذلك لآيات للمتوسمين، إن آثار هذه النعمة ظاهرة على تلك

البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره، والتوسم هو المتفرس الناظر المعتبر. قَالَ

تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ

﴿٧٧﴾ سورة الحجر: ٧٥-٧٧.

وإنها لبسبيل مقيم، إن ما نزل بالقرية حتى صارَ بحيرةً منتنةً خبيثةً لبطريق مهيع مسالكه، مستمرة إلى اليوم، فهي معلومة واضحة، وهي دلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسوله.

إن ما نزل بقوم لوط عليه السلام من عذاب في الدنيا ليس لهم وهدم، وإنما لكل أمة تسير على سيرهم، وتنحوا نهجهم، فسوف يكون نهايتها مثل نهايتهم، وفي الحديث: (إِنَّ اللَّهَ لَيُمَلِّ لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ. قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [١٠٢] سورة هود: ١٠٢. وهؤلاء الذين دمرهم الله قال عنهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [٨٣] سورة هود: ٨٣.

وأما عن الذين يقلدونهم في فعلهم فقد قامت عليهم الحجة، ووصل إليهم الإنذار، وخالفوا أوامر الله ورسوله، وانعكست الفطرة، وانطمس الإيثار والوعي من العقول والقلوب.



٣- دروس وعبر من قصة قوم لوط عليهم السلام:

١- كانت زيارة الملائكة لإبراهيم عليه السلام تحمل بشارة ونذارة، ووعدا ووعدا، فكانت تبشر إبراهيم عليه السلام بالولد على الكبر، حيث كان شيخا كبيرا، وامرأته عجوز فبشر وهما بإسحاق مولودا ونبيا، ومن بعده يعقوب.

وأما النذارة الوعيد فكانت بهلاك قوم لوط عليه السلام، وما أعده الله لهم من

عذاب قادم لا محالة، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ (٧٦)

﴿سورة هود: ٧٦﴾

٢- أحيانا يضيق الإنسان ذرعا بشيء، ويكون فيه الفرج، ويرى فيه الشر-

وفي داخله يكمن الخير، وهلاك الظالمين والمنحرفين إنما هو عقوبة من الله لهم،

ويتعظ بهم غيرهم، كما أنه نصر للصلحين الذين يقاومون الانحراف، قَالَ تَعَالَى: ﴿

وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا

تَعْلَمُونَ﴾ (٢١٦) ﴿سورة البقرة: ٢١٦﴾

٣- إذا كان الشر والجريمة تأصلت في الانسان، وليس عنده رغبة في الكف

عنها وإيقافها، والتوبة منها، والرجوع عنها، فإن العقوبة القوية الرادعة هي الحل

لمثل هذه الحالات، فإن الله لينزع بالسلطان ما لا يزرع بالقرآن، والعقوبات زواجر

وجوابر، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ

عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) ﴿سورة النور: ٢﴾

٤- إذا انحرفت الفطرة عن مسارها الطبيعي، واتخذت طريقا غير الشرع

والدين، فإنها تتهادى فيه ولا تقف عند حد معين، فالزواج هو الطريق الوحيد

المشروع لتصريف الغريزة الجنسية، ونيل اللذة، وتحصيل الولد.

وأي خروج عن ذلك المسار بممارسة العادة السرية، أو قضاء الغريزة في الحرام بالزنا، أو الانحراف عن الفطرة بالشذوذ الجنسي، فإنها هو اهدار للطاقات، وضياع لها في غير موضعها، وعدم تحقيق الهدف من الغريزة، وعدم إشباع الرغبة الجنسية بالطريقة الشرعية الصحيحة، فإن ذلك كله دمار للإنسان، والأسرة المجتمع، وتعطيل النسل، وسبب للعقوبة الدنيوية بنزول العذاب، والعقوبة الآخروية يوم القيامة بالعذاب الأليم والشديد في النار.

٥- وجود الصالحين والمصلحين في المجتمع سبب لحمايته، والمحافظة على الفضيلة، والوقوف أمام الرذيلة، ومحاربتها حتى تنحسر أو تندثر، فلوط عليه السلام قال لقومه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْءَاوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ سورة هود: ٨٠.

أي لو كانت عندي منعة وقوة من الأتباع أو العشيرة؛ لوقفت أمامكم، ومنعتكم بالقوة من طريق الانحراف والشذوذ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ سورة هود: ٧٨.

فوجود صاحب العقل والمنطق والرشد بين المنحرفين، إنما هو صمام أمان، وجهاز إنذار يقدم لهم النصيحة، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، لعلهم يتعظون ويرجعون، ومن ثم فوجود المصلحين يحفظ على المجتمع توازنه، ويقوم عليهم الحجة في انحرافهم، قبل نزول العذاب وشيوع الدمار.

٦- إن العقوبة والعذاب إذا نزل من عند الله عمّ وشمل جميع المنحرفين، ولا محاباة لأحد، ولا مجاملة على حساب الدين والعقيدة، فامرأة لوط عليه السلام كانت من الهالكين، رغم أنها زوجة نبي، لكنها لم تؤمن برسالته، وكانت تفشي أسراره لخصومه وأعدائه. قَالَ تَعَالَى: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتَ نُوْحٍ وَأَمْرَاتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِّنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ سورة التحريم: ١٠.

٧- إن وعد الله حق لا ريب فيه، وقادم لا محالة، وقريب أكثر مما يتوقعه الإنسان، فتعجّل لوط عليه السلام نزول العذاب على الذين جاءوا الضيوفه في المساء، فحماهم الله منهم. قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ هود: ٨١. وفعلا جاء العذاب في مواعده وكان أليما شديدا.

٨- العقوبة من جنس الجريمة، فحينما حلت العقوبة قلب الله القرية على أهلها، فجعل عاليها سافلها، فماتوا من أثر الصيحة وقلب القرية، ومن بقى منهم على قيد الحياة، جاءت الحجارة عليهم من السماء، فكما أن جسده تلذذ بالمعصية الحرام، فكذلك لا بد أن يعذب جسده كله بالألم والعقوبة الرادعة قبل الموت، وكل منحرف كان له حجر خاص به مكتوب عليه اسمه لا يخطئه، وكل من فعل وعمل عمل قوم لوط عليه السلام من الأمم والأقوام فلينتظر نفس العقوبة الإلهية في الدنيا، غير ما ينتظره في الآخرة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ سورة هود: ٨٣.

(٢١) قصة أيوب عليه السلام دروس وعبر.

١- ابتلاء أيوب عليه السلام في صحته وأولاده وماله.

٢- دعاء أيوب عليه السلام وشفاء الله له.

٣- دروس وعبر من القصة.



وردت قصة أيوب عليه السلام في موضعين في القرآن الكريم، في سورة الأنبياء، وفي سورة ص.

١- ابتلاء أيوب عليه السلام في صحته وأولاده وماله:

فيذكر تعالى عن قصة أيوب عليه السلام، ما كان أصابه من البلاء، في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والحرث شيء كثير، وأولاد كثيرة، ومنازل مرضية، فابتلى في ذلك كله، وذهب عن آخره.

ثم ابتلى في جسده بالجزام، وفي سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر بهما الله تعالى حتى عافه الجليس، وأفرد في ناحية من البلد، ولم يبق من الناس أحد يحنو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بأمره.

وقال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

ويقال إنها احتاجت إلى المال فصارت تخدم الناس من أجله، وقد كان أيوب عليه السلام في غاية الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك، وفي الحديث: (لما عافى الله أيوب عليه السلام أمطرَ عليه جرادًا من ذهبٍ، فجعل يأخذ بيده ويجعل في ثوبه، قال فقيل له: يا أيوبُ أما تشبع؟ قال يا ربِّ: ومن يشبعُ من رحمتك). البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٢٠٩. صحيح عن أبي هريرة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ فَاكْشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَعَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ سورة الأنبياء: ٨٤.

قال ابن عباس: رُدوا عليه بأعيانهم، وفعل الله تعالى به ذلك رحمة منه، وجعله الله قدوة؛ لثلا يظن أهل البلاء أنها فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله، وابتلائه لعباده بما يشاء.

وفي سورة ص نجد بعض التفاصيل التي لم ترد في سورة الأنبياء، ففي التفسير، لم يبق في جسده مغرز إبرة سليما سوى قلبه، ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه، وما هو فيه، غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه، وتخدمه نحوًا من ثماني عشرة سنة، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد، وسعة طائلة من الدنيا، فسلب جميع ذلك، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته، فإنها كافة لا تفارقه صباحا ومساء، إلا بسبب خدمة الناس، ثم تعود إليه قريبًا، فلما طال به المطال، واشتد به الحال، وانتهى

القدر المقدور، والأجل المحدود، تضرع إلى الله رب العالمين. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ يَنْصُبْ وَعَذَابٍ﴾ سورة ص: ٤١.

بنصب في بدنه، وعذاب في ماله وولده، وبعد هذا الابتلاء والصبر والتوجه إلى الله بالدعاء، جاء الفرج العجيب من حيث لا يحتسب الإنسان.

٢- دعاء أيوب عليه السلام وشفاء الله له:

فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين، وأمره أن يقوم من مقامه، وأن يركض الأرض برجله، ففعل ذلك، فأنبع الله له عينا، وأمره أن يغتسل منها، فأذهب جميع ما كان في بدنه من الأذى، ثم أمره فضرَب الأرض في مكان آخر، فأنبع له عينا أخرى، وأمره أن يشرب منها، فأذهب جميع ما كان في باطنه من السوء، وتكاملت العافية ظاهرا وباطنا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ سورة ص: ٤٢-٤٣. مَنَا وَذَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ سورة ص: ٤٢-٤٣.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ أَيُّوبَ لَبِثَ بِهِ بِلَاؤُهُ ثِنثِي عَشْرَةَ سَنَةً فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا مِنْ أَحْصَى إِخْوَانِهِ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيُرْوِحَانِ).

فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنبَ أيوبُ عليه السلام ذنبًا ما أذنبه أحدٌ من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذُ ثِنثِي عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرَحْمَهُ اللَّهُ

فيكشفُ ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوبُ عليه السلام: لا أدري ما تقول غير أن الله عزَّ وجلَّ يعلمُ أني كنتُ أمرُّ على الرجلينِ يتنازعانِ فيذكرانِ اللهَ فأرجعُ إلى بيتي فأكفّرُ عنهما كراهةً أن يذكرَا اللهَ إلا في حقٍّ، قال: وكان يخرج في حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ.

فلما كان ذات يومٍ أبطأت عليه فأوحى إلى أيوبَ عليه السلام في مكانه: أن اركض برجلك هذا مُغتسلٌ باردٌ وشرابٌ. فاستبطأته، فتلقته تنظرُ فأقبلَ عليها، قد أذهب اللهُ ما به من البلاءِ، وهو على أحسنِ ما كان، فلما رأتها قالت: أي بارك اللهُ فيك هل رأيتَ نبيَّ الله هذا المُبتلى، فوالله على ذلك ما رأيتُ أحدًا أشبه به منك إذ كان صحيحًا!!

قال: فإني أنا هو. وكان له أندران: أندرٌ للقمح، وأندرٌ للشعير، فبعث اللهُ سحابتينِ فلما كانت إحداهما على أندرِ القمح، أفرغت فيه الذهبَ حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندرِ الشعيرِ الورق حتى فاض (تفسير ابن كثير ٣٥٦/٥ عن أنس بن مالك).

وفي الحديث أيضا: (بينما أيوبُ يعْتَسِلُ عُرْيَانًا، حَرَ عليه رجلٌ جرادٍ من ذهبٍ، فجعل يَحْيِي في ثوبه، فناداهُ رَبُّهُ يا أيوبُ ألمْ أكنُ أعْنَيْتَكَ عَمَّا تَرَى، قال بلى يا رَبِّ، ولكنْ لا غنى لي عن بركتِكَ). البخاري (٣٣٩). عن أبي هريرة.

وأما عن أهله وأولاده، فإن الله أحياهم له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم، وهذا رحمة منا على صبره وثباته، وإنابته وتواضعه واستكانته، وذكرى لذوي العقول، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٤٣﴾ سورة

ص: ٤٣.

وكان من أيوب عليه السلام أن غضب على زوجته، ووجد عليها في أمر فعلته، قيل: باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه، فلامها على ذلك، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة. وقيل لغير ذلك من الأسباب، فلما شفاه الله وعافاه، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة، والرحمة والشفقة والإحسان، أن تقابل بالضرب.

فأفتاه الله أن يأخذ ضعفا وهو الشمراخ، فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة، وقد برت يمينه، وخرج من حنثه، ووفى بندره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأناب إليه، ولهذا أثنى الله عليه ومدحه، بأنه رجاء منيب. قَالَ تَعَالَى: ﴿

وَخُذْ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ، وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿٤٤﴾ سورة ص: ٤٤.

فقد جعل الله له مخرجا، وشفاه من مرضه، وعوضه عما فقد، ورزقه من

حيث لا يحتسب، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ

وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ، إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ ﴿٣﴾ سورة

الطلاق: ٢-٣.



٣- دروس وعبر من قصة أيوب عليه السلام:

١- الابتلاء سنة من سنن الله في الناس أجمعين، ويتلى المرء على قدر دينه، فمن ثخن دينه ثخن ابتلاؤه، (أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يُبتلى الناسُ على قدرِ دينهم، فمن ثخنَ دينه اشتدَّ بلاءؤه، ومن ضعفَ دينه ضعفَ بلاءؤه، وإنَّ الرجلَ ليُصيبه البلاءُ حتى يمشيَ في الناسِ ما عليه خطيئةٌ). صحيح الجامع (٩٩٣) عن أبي سعيد الخدري.

وابتلاء أيوب عليه السلام وغيره من الأنبياء دليل على محبة الله لهم، وقد نجحو جميعا في بلائهم، واختبار الله لهم، فأيوب عليه السلام صبر على المرض ثمانية عشر- عاما، وما ضجر ولا جزع ولا اشتكى، ولم يدع الله إلا بعد أن نال الناس منه بألسنتهم، فأيوب عليه السلام أنموذج للصبر الجميل، لكل مبتلى بالمرض فترة طويلة، دون شكاية أو ملل، حتى أصبح مضرب المثل عند الناس في ذلك.

٢- لم يكن صبر أيوب عليه السلام على المرض فقط، وإنما تعدى إلى أمواله كلها ففقدوها، وإلى أولاده جميعا فماتوا، وإلى أصدقائه فابتعدوا عنه، ونفروا منه، وهو نبي من أنبياء الله، فماذا فعل أمام هذه النوازل كلها؟. انشغل قلبه ولسانه بالذكر لله، وحمد الله على أنها سلما من المرض، لذلك استحق مدح الله وثنائه عليه، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ط (٤٤) سورة ص: ٤٤.

٣- الشدائد تكشف معادن الناس، وابتلاء أيوب عليه السلام ومحتته كشفت عن معدن زوجته، حيث صبرت معه مدة المرض كله، فكانت تمرضه وتطعمه وتسقيه،

بل تعمل من أجل أن تحصل المال الذي تنفق منه، ولما باعت ضفائر شعرها من أجل تحصيل المال الذي تنفق منه على طعامه وشرابه، غضب غضبا شديدا، وهو مريض، وأقسم إن شفاه الله ليعاقبها بأن يضر بها مائة سوط.

ولقد حل الله ﷻ له المشكلة في سهولة ويسر، فأمره أن يأخذ شماريخ النخل، ويضر بها بها ضربة واحدة، حتى لا يحنث في يمينه، وهذا دليل على تدخل العناية الإلهية للرافة لها، بعد موقفها الوفي في صحبة زوجها، هذه المدة الطويلة التي قلما تصبر على ذلك امرأة من الناس عبر التاريخ.

٤- من ابتلى من الله في نعمة صحبتها وصحبته، أو في نفسه، أو ولده، فحمد الله واسترجع، وصبر واحتسب، إلا عوضه الله خيرا مما فقد، فأيوب عليه السلام شفاه الله ﷻ من مرضه، وعاد سليما معافا، كأنه ما أصابه شيء، وعوضه الله عن أولاده وأمواله، فأحيا له الأولاد، ورد عليه الأموال، ومثلهم معهم.

وهذا الذي فعله الله معه رحمة وتفضلا من الله على عبده الصابر المحتسب الذاكر، كثير الأوبة والرجوع إلى الله، فعوضه الله ﷻ خيرا مما أخذه منه.

٥- الدعاء ينفع صاحبه في النوازل والشدائد، لاسيما لمن عرف الله في الرخاء فيعرفه الله ﷻ في الشدة، لقد كان دعاء أيوب عليه السلام دعاء خفيفا يلمس موضوع ابتلائه لمسا رقيقا في تعامله مع الله، وهو أعلم بحاله وبلائه، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ

والله ﷻ يقول بعدها مباشرة بفاء التعقيب، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ

فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾

﴿سورة الأنبياء: ٨٤. فكل من ابتلي بالضر أو المرض، عليه أن يفزع ويهرع إلى الله تعالى بهذا الدعاء الجميل.

٦- خلق الصبر من الأخلاق الجميلة، التي يحتاج إليه كل مسلم في الحياة، والحياة لا تخلو من منغصات ومكدرات، فماذا يفعل الإنسان أمامها؟ لا بد أن يتدرب على خلق الصبر الجميل، الذي لا جزع ولا ضجر ولا شكاية فيه.

وإن الداعية إلى الله ﷻ لا يستغنى عن هذا الخلق الجميل، فيصبر على جهالات المدعويين، ويصبر على تكاليف الدعوة، ويصبر على الابتلاء في طريق الدعوة، وقد أوصى لقمان عليه السلام ولده بذلك قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ سورة لقمان: ١٧.

وألو العزم من الرسل تعرضوا لابتلاءات شديدة، وأذى من قومهم، واضطهاد وسب وشتم، ووصف بالكذب والسحر، والكهانة والجنون، والحصار والطرده، والتعرض للقتل، والسجن والنفي، وقد قال الله ﷻ لنبية: قَالَ تَعَالَى:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا وَأُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ

يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ سورة الأحقاف: ٣٥.

ولاشك أن عاقبة الصبر جميلة لصاحبها في الدنيا والآخرة، قَالَ تَعَالَى:

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾
الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ سورة البقرة: ١٥٥ - ١٥٧.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من:

﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا

الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ سورة الزمر الآية (١٨).



(٢٢) قصة يونس عليه السلام دروس وعبر.

- ١- يونس عليه السلام المغاضب المبتلى.
- ٢- دعوة يونس عليه السلام ونجاة الله له.
- ٣- دروس وعبر من قصة يونس عليه السلام.



وردت قصة يونس عليه السلام في سورة الأنبياء، والصفات، والقلم، وفي آية واحدة في سورة يونس.

واسمه يونس عليه السلام بن متى، بعثه الله عز وجل إلى أهل قرية نينوى، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله، فأبوا عليه، وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضبا لهم.

١- يونس عليه السلام المغاضب المبتلى:

وسبب غضبه أنه عانى من قومه أمرا صعبا من الأذى والتكذيب، فخرج عنهم ضجرا قبل أن يؤمنوا، وما درى أن هذا الفعل يوجب عليه ما جرى من الجزاء، فهو غضب من أجل ربه لتمردهم وعصيانهم.

وقيل كان مغیظا عليهم لطول ما عاناه من تكذيبهم، مشتتيا أن ينزل العذاب بهم فكان ذلك من الله على كراهية العفو عن قومه.

فكأنه ظن أن الله ﷻ قد وسع له، إن شاء أن يقيم، وإن شاء أن يخرج، ولم يؤذن له في الخروج، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث، فلما تحققوا منه ذلك، وعلموا أن النبي ﷺ لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم، وأنعامهم ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادهما، ثم تضرعوا إليه الله ﷻ وجاءوا إليه، ورغبت الإبل وفصلائها، وخارت البقر وأولادهما، وثغت الغنم وسخلائها، فرفع الله عنهم العذاب، وهذا مصداق قوله.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَةً ءَامَنْتَ فَفَعَّهَآ إِيْمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ سورة يونس: ٩٨.

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فلججت بهم، وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس عليه السلام فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضا، فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضا القرعة وهي المساهمة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٦﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ سورة الصافات: ١٣٩ - ١٤٠.

فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه في البحر، وقد أرسل الله حوتا فالتقم يونس عليه السلام حين ألقى نفسه من السفينة، فأوحى الله ﷻ إلى ذلك الحوت ألا تأكل له لحما، ولا تهشم له عظاما، فإن يونس عليه السلام ليس لك رزقا، وإنما بطنك تكون له سجنا، والنون السمكة، وأضيف إليها، لا ابتلاعها إياه، فيسمى بذي

النون. قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَأَلْقَمَهُ الْحَوْتَ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ سورة
الصفات: ١٤١ - ١٤٢.

٢- دعوة يونس عليه السلام ونجاة الله له:

ومعنى قوله (فظن أن لن نقدر عليه) أي نضيق عليه في بطن الحوت، أي
نقضى عليه، فقد وقع في ظلمات ثلاث، ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة
الليل، فأخرجه الله ﷻ من بطن الحوت، وتلك الظلمات، وكان في شدة وكرب،
ودعا الله ﷻ بهذا الدعاء، وفي حال البلاء. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ
أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ
الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ سورة الأنبياء: ٨٧.

وجاء الترغيب في هذا الدعاء عن سيد الأنبياء عن سعد بن أبي وقاص قال
قال النبي: (نعم دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: "لا إله إلا أنت سبحانك
إني كنت من الظالمين" فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له). مسند
الإمام أحمد (١٤٦٢) إسناده صحيح.

وفي الحديث (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « دعوة ذي النون إذ
دعا وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع
بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له). صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وهذا اعتراف من يونس عليه السلام بذنبه وتوبته منه، وتوبة الله عليه.

وروى أحمد وغيره عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحدا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجا قال: فقيل: يا رسول الله، ألا تتعلمها؟ فقال: بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها ».

وفي الحديث قال ﷺ: (ما يُنبغي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أنا خَيْرٌ مِنْ يُونسَ بنِ مَتَّى).

البخاري (٤٦٣٠) عن عبدالله بن عباس.

والفلك المشحون هو المركب المملوء بالأمّعة، فقارع فكان من المغلّوين، وذلك أن السفينة تلعبت بها الأمواج من كل جانب، وأشرفوا على الغرق، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقي في البحر، لتخف بهم السفينة، فوقعت القرعة عليه ثلاث مرات، وهم يظنون به أن يلقي من بينهم.

فتجرد من ثيابه ليلقى نفسه وهم يأبون عليه ذلك، وأمر الله الحوت أن يلتقمه فلا يهشم له لحما، ولا يكسر له عظما، فجاء الحوت فالتقمه وطاف به البحار، ولما استقر في بطن الحوت حسب أنه قد مات، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حي، فقام يصلى في بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: يا رب اتخذت لك

مسجدا في موضع لم يبلغه أحد من الناس، واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت، قال الشعبي التقمه ضحى، وقذفه عشية.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

سورة الصافات: ١٤٣-١٤٤.

ولولا ما تقدم به من العمل في الرخاء، أي بسبب صلاته وتسييحه ودعائه المشهور هذا، للبث في بطنه إلى يوم القيامة. فأمر الله الحوت أن يلفظه في العراء، وهى الأرض التي ليس فيها نبت ولا بناء، قيل: على جانب دجلة، وقيل بأرض اليمن، وهو ضعيف البدن، كهيئة الفرخ الذي ليس عليه ريش، أو الصبي حين يولد.

كما جاء في الحديث: (يا غلامٌ أو يا غُليمٌ ألا أعلمك كلماتٍ ينفعك اللهُ بهنَّ؟) فقلتُ: بلى، فقال: احفظِ اللهُ يحفظُكَ، احفظِ اللهُ تجدُهُ أمامك، تعرَّفِ إلى اللهِ في الرِّخاءِ يعرفَكَ في الشَّدَّةِ، إذا سألتَ فاسألِ اللهُ، وإذا استعنتَ فاستعنْ باللهِ.

قد جفَّ القلمُ بما هو كائنٌ، فلو أنَّ الخلقَ كلَّهم جميعًا أرادوا أن ينفعوكُ بشيءٍ لم يقضه اللهُ، لم يقدرُوا عليه، وإنَّ أرادوا أن يضرُّوكُ بشيءٍ لم يكتبه اللهُ عليك، لم يقدرُوا عليه، واعلم أنَّ في الصَّبْرِ على ما تكره خيرا كثيرا، وأنَّ النَّصْرَ مع الصَّبْرِ، وأنَّ الفَرَجَ مع الكَرْبِ، وأنَّ مع العسرِ يسرا (جامع العلوم والحكم لابن رجب ١/٤٥٩). عن عبدالله بن عباس.

وأنت الله عليه شجرة القرع، وكل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين،
وكل شجرة تهلك من عامها فهي من اليقطين.

ومن فوائد القرع، سرعة نباته، تظليل ورقة لكبره، ونعومته، ولا يقربها
الذباب، وجودة أغذية ثمرة، ويؤكل نيئاً ومطبوخاً بلبه وقشره، والحديث (كان
النبي ﷺ يحب الدباء، ويتبعه من نواحي الصحفة). قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبَدَّنَهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ
سَقِيمٌ ۝١٤٥﴾ وَأَبْتَنَّا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَّقِطِينَ ۝١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧﴾
فَأَمَّنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝١٤٨﴾ سورة الصافات: ١٤٥-١٤٨.

وقد أرسل إلى قومه قبل أن يلتقمه الحوت، ورسالته بعد ما نبذه الحوت
كانت إلى الذين أرسل إليهم أولاً، فأمره الله بالعودة إليهم بعد خروجه من الحوت،
فصدقوه كلهم وآمنوا به، وكانوا مائة وبضعة وثلاثين ألفاً، والمراد ليس أنقص من
ذلك، بل يزيد على ذلك، فأمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس ﷺ جميعهم
إلى وقت آجالهم، وهذا معنى قوله. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا
قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨﴾ سورة
يونس: ٩٨.

أي الحال والشأن أنه لم تكن قرية آمنت فنفعها إيمانها، أي قبل منها، لم تكن
هذا لأمة آمنت عند نزول العذاب، إلا لقوم يونس ﷺ لما آمنوا فعلنا بهم كذا
وكذا، صرفنا عنهم عذاب الهون والذل، ومتعناهم إلى حين آجالهم، لأنهم آمنوا قبل
نزل العذاب عليهم.

وفي سورة القلم نجد أن الله أوصى نبيه محمدا ﷺ بالصبر على أذى قومه له وتكذيبهم، فإن الله سيحكم لك عليهم، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، ولا تكن مثل صاحب الحوت، ذا النون، وهو يونس بن متى، حين ذهب مغاضبا على قومه، فكان من أمره ما كان، وما سبق ذكره من قصته، فحينئذ نادى في الظلمات وهو مهموم ومكروب، لولا أن تداركه رحمة من ربك فتاب عليه بها، لبقى في مكانه إلى يوم القيامة، فاستخلصه ربه واصطفاه، ورد عليه الوحي، وجعله من الصالحين. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ تَوَلَّى أَنْ تَدْرِكُهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ لَنُبْدِيَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ سورة القلم: ٤٨

.٥٠-



٣- دروس وعبر من قصة يونس عليه السلام:

١- التحلي بالصبر الجميل إلى أقصى درجة في التعامل مع المدعويين، مهما كان رفضهم وجحودهم وإعراضهم، فمن أقوى أنواع الصبر التي ينبغي للداعية أن يتحلى به، الصبر على أذى المدعويين، فإذا نفذ صبره فعليه أن يتصابر، وإذا نفذت مصابرتة فليأت من هو أكثر منه صبرا ليعطيه جرعة إضافية في الصبر.

فأولوا العزم من الرسل ما أخذوا هذه التسمية إلا بصبرهم على إعراض المدعويين وأذاهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا لَوْلَا الْعَزْمُ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴿٣٥﴾﴾

﴿سورة الأحقاف: ٣٥﴾

وقال تعالى للمسلمين عموماً والدعاة على وجه الخصوص: ﴿يَتَأْتِيهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ سورة آل

عمران: ٢٠٠.

٢- توقع البلاء والاختبار من الله ﷻ للعبد في أي وقت، فالبلاء حسب

تدبير الله، وبسبب ودون سبب، ولقد ظن يونس عليه السلام أن الله لن يضيق عليه، وكانت المفاجأة له.

فهذا البلاء الشديد الذي تعرض له، لقد وقع عليه الاستهام ثلاث مرات،

فهو يفر من قدر الله إلى قدر الله، ولقد قبل نتيجة القرعة، مهما كانت نتائجها وعواقبها، لقد كانت درساً له وللدعاة من بعده، أن الإنسان مهما تعرض لأذى وابتلاء في سبيل دعوته، فلا يغضب ولا يرحل عن موطنه إلا بإذن الله للأنبيا، وحسب مصلحة الدعوة أولاً، والدعاة من بعد.

٣- التعرف إلى الله تعالى في الرخاء، من أقوى العوامل لمعرفة الله ﷻ للعبد

في الشدة، ويونس عليه السلام كان صاحب عبادة وحال مع الله، فلما خرج الدعاء منه استجاب الله له، فله عمل يرفع، وله دعوة مستجابة.

ودعوة يونس عليه السلام من أفضل الأدعية التي يتوجه بها المسلم إلى الله خاصة

في الشدة، وليست الإجابة والنجاة ليونس عليه السلام وحده، وإنما لكل مسلم في غم

وشدة، تنفعه هذه الدعوة، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ، وَكَذَلِكَ نُشَجِّي

٤- الذي ابتلى يونس عليه السلام إنما هو الله، والذي رفع البلاء عنه إنما هو الله، فلا يقع في ملك الله إلا ما أَرادَه الله، والكون كله مسخر من الله، فأمر الله الحوت فلفظه على شاطئ اليم في العراء والخلاء، وهو مريض سقيم.

وأنت الله عليه شجرة اليقطين؛ ليستظل جسده بها، ويأكل من ثمارها، فهي تناسب حالته الصحية المرضية، طعام سهل الهضم في معدته، وأوراق عريضة كبيرة تحميه من حرّ الشمس، وتطرد عنه الحشرات المؤذية، لهذا الجسد الحساس، الذي خرج من عصارة بطن الحوت، التي تهضم كل شيء يدخل فيها.

٥- لقد استوعب قوم يونس عليه السلام الدرس، حينما دعا بنزول العذاب عليهم، فهرعوا إلى الله عز وجل وقد أخرجوا أهليهم وأنعامهم يجأرون إلى الله، بالتوبة والاستغفار والدعاء، ولقد نفعهم إيمانهم هذا، حيث رفع الله عنهم العذاب في الدنيا، ويحاسب كل إنسان على ما قدم من عمل في الآخرة.

ولما عاد إليهم يونس عليه السلام بعد فترة البلاء، وجد القرية قد آمنت كلها، لقد فهمت الدرس جيدا، وكانت أحسن من بعض القرى الذين كذبوا أنبياءهم، وأعرضوا عنهم، حتى جاءهم العذاب الأليم.

٦- لقد قص الله عز وجل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قصة يونس عليه السلام وغيره من الأنبياء في القرآن الكريم، من أجل أن نأخذ العظة والعبرة منهم، فكانت عوناً للنبى صلى الله عليه وسلم على مزيد من الصبر على مشركي قريش، ورفض أن يدعوا عليهم، وأن يوافق جبريل

في أن يطبق عليهم الأخشيين، بل دعا لهم بالهداية، وأصابتهم الدعوة بعدها بأكثر من عشر سنوات، من حين عرض نفسه على الطائف إلى فتح مكة.

وقال الله ﷻ لنبيه قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ سورة يوسف: ١١١.

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّا تَقْصُصْ عَلَيَّكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُسِيتُ بِهِ ۗ فُؤَادَكَ ۗ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ سورة هود: ١٢٠.

فالقصاص القرآني لم يأتي للتسلية، والترفيه عن النفس، وإنما جاء للتسرية عما أصاب النفس من أحزان وآلام، وللتربية على المثل العليا، والقيم الفضلى في الدعوة.

فالأنبياء هم النماذج التي يقتدى بهم البشر- في كل شيء، وقد قال الله ﷻ لنبيه وللأمة من بعده، قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فِيمَهْدَاهُمْ أَقْتَدَهُ ۗ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ سورة الأنعام: ٩٠.

فلنتعلم الصبر على المدعويين، وتحمل البلاء الذي تكرهه النفوس، والتعرف إلى الله في الرخاء، وأن الذي يضر- وينفع ويكشف الضر- إنما هو الله سبحانه وفي آخر سورة يونس نجد قوله، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا

كَاشَفَ لَهُ الْآهُوَ وَإِن يُرَدِّكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ وَهُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ سورة يونس: ١٠٧.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من:

﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا

الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ سورة الزمر الآية (١٨).



(٢٣) قصة قوم عاد دروس وعبر.

- ١- هود عليه السلام ورسالته ودعوته لقومه.
- ٢- تكذيب قوم عاد بالرسالة ونزول العذاب.
- ٣- دروس وعبر من قصة قوم عاد.



وردت قصة قوم عاد مفصلة في سورة الأعراف، وهود، والشعراء، ومجملة في فصلت، والنجم، والقمر، والحاقة، والفجر.

١- هود عليه السلام ورسالته ودعوته لقومه:

أرسل الله عز وجل إلى عاد أخاهم هودا عليه السلام، وهم ولد عام بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، وهم عاد الأولى الذين ذكرهم الله عز وجل في سورة النجم، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنتَهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ سورة النجم: ٥٠.

وهم الذين كانوا يأوون إلى العمر في البر، وهم الذين ذكروا في سورة الفجر

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي

الْبَلَدِ ﴿٨﴾﴾ سورة الفجر: ٦- ٨.

وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، وكانت مساكنهم في اليمن بالأحقاق، وهى حبال الرمل، وفيه قبر هود عليه السلام، وكان من أشرف قومه نسبا، لأن الرسل يبعثهم الله هكذا من أفضل القبائل وأشرفهم، وكان قومه قد شدد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيبا للحق، ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَنفَعُونَ

﴿ سورة الأعراف: ٦٥.﴾

٢- تكذيب قوم عاد بالرسالة ونزول العذاب:

قال الملائة وهم السادة والقادة من قومه، إنا لنراك في سفاهة أي في ضلالة حيث دعوتنا إلى ترك عبادة الأصنام، والاقبال على عبادة الله وحده.

فكما تعجب الملائة من قريش من الدعوة إلى إله واحد، فقال لقومه لست كما تزعمون، بل جئتمكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه، وما وظيفتي معكم إلا البلاغ الواضح المبين، والنصح بأمانه وإخلاص.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ

مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾

﴿ سورة الأعراف: ٦٦ - ٦٨.﴾

يا قوم لا تتعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه، بل احمدا الله على ذلكم، واذكروا نعمة الله عليكم، إذ جعلكم من ذرية نوح، الذي أهلك الله أهل الأرض بسبب تكذيبهم لدعوته، ومن نعم الله ﷻ عليكم أن زادكم طولا وبسطة على الناس، فجعلكم أطول من أبناء جنسكم، فاذكروا هذه النعم والآلاء؛ لعلكم تفلحون في الدنيا والآخرة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۖ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصۜطَةً ۖ فَأَذْكُرُوا آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ سورة الأعراف: ٦٩.

لقد تمردوا وطغوا، وعاندوا، وأنكروا على نبيهم هود ﷺ أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده، حينئذ وجب عليهم وقوع العذاب من ربهم والسخط والغضب، وقال لهم أتجادلونني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآبائكم آلهة، وهي لا تضر ولا تنفع، وليس معكم من حجة أو دليل على عبادتها، وهذا تهديد ووعد من هود ﷺ لقومه فقال فانتظروا إني معكم من المنتظرين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّهُ وَنَذَر مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأُنِزْنَا بِمَا تَعَدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَضِبَ بِمَا تَجَدَّلْتُمْ فِي آسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ سورة الأعراف: ٧٠ - ٧١.

لقد وصف الله صفة إهلاكهم في عدة مواضع من سور القرآن الكريم، بأنه

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايُنِنَا ^ط

وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ سورة الأعراف: ٧٢.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا نَذُرُ مِن شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ

كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ سورة الذاريات: ٤١ - ٤٢.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا عَادُ فَاهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ

وَتَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ

بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ سورة الحاقة: ٦ - ٨.

كما تمردوا وعتوا وطمغوا أهلهم الله بريح عاتية، فكانت تحمل الرجل

منهم، فترفعه إلى الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه، حتى تُبينه من جثته، ولهذا

لقد عاتبهم نبهم حينما أكثروا في الأرض الفساد وتجبروا، وبنوا بكل ربع

آية عبثا بغير نفع، كلمهم نبهم هود عليه السلام قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾

وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ سورة الشعراء: ١٢٨

- ١٣٠.

وفي مسند أحمد عن أبي وائل عن الحارث البكري قال: خرجتُ أشكو

العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فمررتُ بالربذة، فإذا عجوزٌ من بني تميمٍ

منقطعٌ بها، فقالت: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجةٌ،

فهل أنت مُبلغي إليه؟ قال: فحملتها فأتيتُ المدينة، فإذا المسجدُ غاصُّ بأهله، وإذا

رايةٌ سوداءٌ تخفقُ، وإذا بلالٌ متقلدٌ سيفاً بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم،

فقلتُ: ما شأنُ النَّاسِ؟ قالوا: يريدُ أن يبعثَ عمرو بنَ العاصِ وجَهًا. فقال: فجلستُ ، قال: فدخل منزله- أو قال: رحله- فاستأذنتُ عليه ، فأذن لي ، فدخلتُ وسَلَّمْتُ ، قال: هل بينكم وبين تميمٍ شيءٌ؟ قلتُ: نعم ، وكانت لنا الدَّبْرَةُ عليهم ، ومررتُ بعجوزٍ من بني تميمٍ منقطعٌ بها ، فسألتنِي أن أحملها إليك ، وها هي بالبابِ . فأذن لها ، فدخلتُ ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ ، إن رأيتَ أن تجعلَ بيننا وبين تميمٍ حاجزًا ، فاجعلِ الدَّهْنَاءَ ، فحَمِيَتِ العجوزُ واستوفزتُ ، فقالت: يا رسولَ اللهِ ، فإلى أينَ يضطرُّ مُضطرُّك؟ قال: قلتُ: إنَّ مثلي ما قال الأوَّلُ: مِعزَى حملتُ حتفَهَا ، حملتُ هذه ولا أشعرُ أنَّها كانت لي خصمًا ، أعودُ بالله وبرسوله أن أكونَ كوافدِ عادٍ ، قال لي: وما وافدٌ عادٍ؟- وهو أعلمُ بالحديثِ منه ، ولكنَّ يستطعمُه- قلتُ: إنَّ عادًا قحطوا فبعثوا وافدًا لهم يُقالُ له: قَيْلٌ ، فمرَّ بمعاويةَ بنِ بكرٍ ، فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمرَ وتغنيهِ جاريتان ، يُقالُ لهما: الجرادتان ، فلَمَّا مضى الشَّهْرُ خرج إلى جبالِ مهرةَ ، فقال: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تعلمُ أنِّي لم أجيءُ إلى مريضٍ فأداويه ، ولا إلى أسيرٍ فأفاديه . اللَّهُمَّ اسقِ عادًا ما كنتَ تسقيه ، فمرَّت به سحاباتٌ سودٌ ، فَنُودِي: منها اخترْ . فأومأ إلى سحابةٍ منها سوداءَ ، فَنُودِي منها: خذًا رمادًا رمداً ، لا تُبقي من عادٍ أحدًا . قال: فما بلغني أنَّه بعث عليهم من الرِّيحِ إلَّا قدرَ ما يجري في خاتمي هذا ، حتَّى هلكوا- قال أبو وائلٍ: وصدق ، قال: وكانت المرأةُ والرَّجُلُ إذا بعثوا وافدًا لهم قالوا: لا تكنْ كوافدِ عادٍ) أحمد في المسند (١٦٠٢٠) والطبراني (١٤٨٠٥-١٤٨٠٦). صححه أحمد

وفي سورة هود نجد القصة قريبة مما وردت في سورة الأعراف مع بعض الفروق الإضافية.

وأمرهم هود عليه السلام بعبادة الله وحده لا شريك له، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجرا على هذا النصح والبلاغ من الله الذي فطره، فمن الذي يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجره.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالِىٰٓ عَادِ أَخَاهُمْ هُوْدًا قَالَ يَنْقَوْمِرَٔ اَعْبُدُوْا اِلٰهَ مَا لَكُمْ مِّنْ اِلٰهٍ غَيْرِهٖۤ اِنْ اَنْتُمْ اِلَّا مُفْتَرُوْنَ ﴿٥٠﴾ يَنْقَوْمِرَٔ لَا اَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِۤ اَجْرًاۤ اِنْ اَجْرِيۤ اِلَّا عَلٰى الَّذِىۤ فَطَرَنِۤ اَفَلَا تَعْقِلُوْنَ ﴿٥١﴾ سورة هود: ٥٠-٥١.

ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة، يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره، وحفظ شأنه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَنْقَوْمِرَٔ اَسْتَغْفِرُوْا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوْاۤ اِلَيْهِۤ يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَیْكُمْ مَّدْرَارًاۤ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةًۭ اِلٰى قُوَّتِكُمْ وَلَا تُلُوْٓاۤ اِلٰى جُرْمِكُمْ ﴿٥٢﴾ سورة هود: ٥٢.

فقالوا لبيهم ما جئنا بحجة وبرهان على ما تدعيه، وما نحن بتاركي آلهتنا بمجرد قولك اتركهم نتركهم، وما نحن لك بمصدقين، ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل في عقلك، بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها، فتسأل لهم: إني برئ من جميع الأنداد والأصنام، فكيدوني أنتم وآلهتكم إن كانت حقا، ثم لا تنظرون أي طرفة عين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرْنَاكَ بِبَعْضِ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ ۗ فَكَيْدُ فِي جَمِيعَاتِهِمْ لَا تُنظَرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ سورة هود: ٥٣ - ٥٥.

لقد توكلت على الله ربي وربكم، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، فكل شيء تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه، فإنه على صراط مستقيم، وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة، ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام، التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر، ولا توالي ولا تعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له، الذي بيده الملك، وله التصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ سورة هود: ٥٦.

يقول لهم هود عليه السلام: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا عَمَا جِئْتَكُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ رَبِّكُمْ، وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةُ بِإِبْلَاجِي إِيَّاكُمْ رَسُولَ اللَّهِ الَّتِي بَعَثَنِي بِهَا، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ، يَعْبُدُونَهُ وَحَدَهُ وَلَا يَشْرِكُونَ بِهِ أَحَدًا، وَلَا يِيَالِي بِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَضُرُّونَهُ بِكُفْرِكُمْ.﴾

بل يعود وبال ذلك عليكم، إن ربي على كل شيء حفيظ، أي شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويميزهم عليها إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا

تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ سورة هود: ٥٧.

ولما جاء أمرنا وهو الريح العقيم، فأهلكهم الله عن آخرهم، ونجى هودا

عليه السلام وأتباعه من عذاب غليظ برحمته ولطفه،

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُم مِّنْ عَذَابِ

غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ سورة

هود: ٥٨ - ٥٩.

فقوم عاد جحدوا بآيات ربهم أي كفروا بها، وعصوا رسل الله، وذلك أن

من كفر بنبي كفر بجميع الأنبياء، لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به،

فعاد كفروا بهود عليه السلام، فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل، وتركوا اتباع

رسولهم الرشيد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد، فلهذا اتبعوا في هذه الدنيا لعنة من الله،

ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا، وينادي عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، ألا

إن عادا كفروا ربهم، فما بعث نبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَتَّبَعُوا فِي

هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعِدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ سورة هود: ٦٠.

فأما عاد فاستكبروا أي بغوا وعتوا وعصوا، وتفاخروا بشدة تركيبهم

وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون به من بأس الله، أفلا يتفكرون فيمن يبارزون

بالعداوة؟.

فإن العظيم الذي خلق الأشياء، وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد، فبارزوا الجبار في العداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسله، فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا، وهى شديدة الهبوب وباردة، ولها صوت، فكانت قوية، عقوبة لهم من جنس ما اغتروا به من قواهم في أيام متتابعات، فكان يوم نحس عليهم، واستمر سبع ليال وثمانية أيام، حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخر، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب، ويدراً عنهم النكال والوبال.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيَقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصُرُونَ ﴿١٦﴾

سورة فصلت: ١٥-١٦.

كانوا في غاية من قوة التركيب، والبطش الشديد، والطول المديد، والأرزاق الدارة والأموال والجنات والأنباء والزرور والثمار.

أتبنون بكل ربيع آية أي معلما بناء مشهورا، وتفعلون ذلك عبثا لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللهو واللعب وإظهار القوة، ولهذا أنكر عليهم نبيهم، لأنه تضييع للزمان، وإتعااب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدى في الدنيا والآخرة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رَيْعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ سورة الشعراء: ١٢٨.

وتتخذون مصانع، وهي البروج المشيدة، والبنيان المخلد، كأنكم تقيموا فيها أبدا، وليس ذلك بحاصل لكم بل زائل عنكم كما زال عمن كان قبلكم. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (١٢٩) سورة الشعراء: ١٢٩.

روي ابن أبي حاتم، أن أبا الدرداء: (لما رأى ما أحدث المسلمون من البنيان ونصب الشجر، قام في مسجدهم فنادى، يا أهل دمشق، فاجتمعوا إليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا تستحيون! ألا تستحيون! تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، قد كانت قبلكم قرون، يجمعون فيوعون، ويبنون فيوثقون، ويأملون فيطيلون، فأصبح أملهم غرورا، وجمعهم بورا، وأصبحت مساكنهم قبورا، ألا إن عادا ملكت ما بين عدن وعمان خيلا وركابا، فمن يشتري منى ميراث عاد بدرهمين).

وإذا بطشتهم وصفهم بالغلظة والقوة والجبروت، ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم، إن كذبتهم وخالفتهم، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب فما نفع.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيْنَ (١٣٣) وَجَنَّتِ وَعْيُونَ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) سورة الشعراء: ١٣٥ - ١٣٥.

فكان جواب قومه له، بعد ما حذرهم وأنذرهم، ورغبهم ورهبهم، وبين لهم الحق ووضحه، فقالوا لا نرجع عما نحن فيه، ما هذا الذي جئنا به إلا أخلاق الأولين من الآباء، والأجداد، ونحن تابعون لهم، سالكون وراءهم، نعيش كما

عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا معاد. قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ

تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ سورة الشعراء: ١٣٦-

١٣٨-

فاستمروا على تكذيبهم ومخالفتهم وعنادهم، فأهلكهم الله، فأرسل عليهم ريحا صر صرا عاتية، شديدة الهبوب، ذات برد شديد جدا، فكان إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأخبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة، فالريح جعلتهم أبدانا بلا رؤوس، فهي ترفعه إلى أعلى ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه، وتكسر رأسه، وتلقيه كأنهم أعجاز نخل منقعر، وكانوا قد تحصنوا في الجبال والكهوف، والمغارات، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم، فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيئا. قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ سورة الشعراء: ١٣٩.

والطاغية: هي الصيحة التي أسكتتهم، والزلزلة التي أسكتتهم.

إرم ذات العماد: كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد،

وإرم بيت مملكة عاد. وكانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشا.



٣- دروس وعبر من قصة قوم عاد:

١- التركيز في دعوة جميع الأنبياء على توحيد الله وعبادته، وهود عليه السلام واحد

من بينهم فقال لقومه: (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) فهو الهدف الأكبر من

إرسال الرسل، وتوحيد الله وعبادته هو الهدف الذي من أجله خلق الله البشر، وأنزل الكتب، وأنذر المكذبين، وأنزل عليهم العذاب في الدنيا، وتوعدهم بعذاب الآخرة.

٢- المعارضون لدعوة الأنبياء جميعاً هم الملائ، أصحاب النفوذ والسلطة والسيادة، فالدعوة سوف تحولهم إلى بشر عاديين، مثلهم مثل باقي الناس، لكنهم يريدوا التميز على باقي المجتمع.

فكذبوا الرسل وعارضوهم واتهموهم بتهم باطلة، ليخلطوا الأمور عند الأقسام، وهذا تضليل وكذب وافتراء متعمد، يستترون وراءه للحفاظ على المغانم التي يعيشون فيها.

٣- البلاغ الواضح المبين، والنصيحة الصادقة الأمين، هي الدور الأول للرسول سواء آمن الناس أو لم يؤمنوا، فليسوا مطالبين بإجبارهم وإلزامهم بالإسلام، ولا بنتائج مادية لممارستهم الدعوة وجني ثمرتها، فدورهم دلالة الناس على الله، والهداية والقبول من الله سبحانه.

٤- التذكير بالنعمة من بين الأساليب الدعوية التي استخدمها الرسل والأنبياء في دعوتهم، وينبغي على الدعاة الاستفادة منها، فالناس عبيد الاحسان، ونعم والله على البشر جميعاً لا تعد ولا تحصى.

والوعظ والتذكير وتعداد النعم أسلوب قرآني فقال هود عليه السلام لقومه، قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَأذْكُرُوا
ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ سورة الأعراف: ٦٩.

فهلاك قوم نوح عبرة وآية لهم، وقوة الأجسام وطولها نعمة من الله عليهم،
وذكر النعم يتطلب شكر المنعم، والإيمان به وتوحيده وعبادته، وأي خروج عن هذا
يعد كفران بالله وجحود لنعمه يتطلب نزول العذاب على المعرضين والمكذبين.

٥- لقد كثرت أخطاء قوم عاد فكفروا بالله، وطلبوا العذاب، وكذبوا
الرسل، واتهموا رسولهم بالجنون، وأنه أصابه شيء من مس آهتهم، فرد عليهم ردا
علميا منطقيًا، ف تبرأ من شركائهم، وأنه توكل على الله ربه وربهم، الذي بيده تدار
أمور الكون، فكل ما يدب عن الأرض من كائن حي الله أخذ بناصيته، وأن ربه على
صراط مستقيم، فالهداية والتوفيق منه.

٦- لقد حذر هود عليه السلام قومه من سنة الاستخلاف، فهو قد أقام الحججة
عليهم، بالبلاغ الواضح لرسالة الله إلى قومه، ويستخلف ربي قوما غيركم، ومعناه
أن العذاب قادم ونازل لا محاله، وسوف يأت الله بقوم آخرين، يعبدون الله
ويوحدونه، ولا يخرجون عن منهجه، فالله يراقب كل شيء ويسأل عنه صاحبه يوم
القيامة.

٧- إن أمر الله عز وجل إذا جاء فهو نافذ لا يؤخر، ولا يمهل، إنما أمره إذا أراد
شيئا أن يقوم له كن فيكون، فلما جاء الأمر الإلهي نجى الله هودا عليه السلام والذين آمنوا

معه، وهذا من صور رحمة الله بعباده، في نجاة المؤمنين، وهلاك الظالمين، وتلك سنة الله في الأمم السابقة قبل بعثة محمد الذي أرسله الله رحمة للعالمين.

٨- ليست العبرة بنهاية الظالمين فقط، وينزل العذاب وهلاككم، وسوء الخاتمة، وإنما المشكلة الكبرى أن تتابع اللعنات عليهم إلى يوم القيام، فيكون العذاب عليهم أضعافاً مضاعفة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنْبِئُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بَعْدَ إِعَادٍ قَوْمٌ هُودٍ ۗ ﴾ سورة هود: ٦٠.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ

هَدَاهُمُ اللَّهُ ۗ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۗ ﴾ سورة الزمر الآية (١٨).



(٢٤) قصة قوم ثمود دروس وعبر.

١- صالح عليه السلام ورسالته ودعوته لقومه.

٢- تكذيب قوم ثمود بالرسالة ونزول العذاب.

٣- دروس وعبر من قصة قوم ثمود.



وردت قصة قوم ثمود مع نبينهم صالح عليه السلام في عدة سور منها الأعراف، وهود، والشعراء، والنمل، والقمر، والحاقة، والفجر.

وتمود قبيلة من العرب العاربة قبل إبراهيم، وكانت بعد قوم عاد، ومساكنهم مشهورة، فيما بين الحجاز والشام، إلى وادي القرى وما حوله، وقد مرَّ رسول الله ﷺ على قراهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك، سنة تسع من الهجرة.

روي الإمام أحد عن ابن عمر قال: (لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا القدور فأمرهم رسول الله فأهراقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، وقال: إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم) أحمد في المسند (٥٩٨٤) وهو في الصحيحين. وانظر

وقال أحمد أيضا بسنده عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالحجر: (لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم). أخرجاه في الصحيحين من غير وجه).

وفي بعض الروايات أنه عليه السلام: (لما مر بمنازلهم قنع رأسه، وأسرع راحلته، ونهى عن دخول منازلهم إلا أن تكونوا باكين. وفي رواية فإن لم تبكوا فتباكوا، خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم).

وفي رواية: (علام تدخلون على قوم غضب الله عليهم، فناداه رجل فقال: نعجب منهم -يا رسول الله- فقال: ألا أنبئكم شيئا بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم، وما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسددوا، فإن الله لا يعاب بعذابكم شيئا، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئا).



١- صالح عليه السلام ورسالته ودعوته لقومه:

ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحا، لعبادة الله وتوحيده، فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قد جاءكم حجة من الله على صدق ما جئتم به.

وكانوا هم الذين سألوا صالحا عليه السلام أن يأتيهم بآية، فأقامت الناقة وفصيلها، بعد أن وضعته بين أظهرهم مدة، تشرب من بئرها يوما، وتدعه لهم يوما،

وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آيَمٍ ۗ﴾ سورة الأعراف: ٧٣.

وكانت تسرح في بعض تلك الأودية، ترد من فج، وتصدر عن غيره، ليسعها لأنها كانت تتضلع من الماء، وكانت خلقا هائلا، ومنظرا رائعا، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها، فلما طال عليهم ذلك، واشتد تكذيبهم لصالح النبي ﷺ، عزموا على قتلها، ليستأثروا بالماء كل يوم. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ فِيسَمَةٍ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُخَضَّرٌ ۗ﴾ سورة القمر: ٢٨. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ هَذَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ۗ﴾ سورة الشعراء: ١٥٥ - ١٥٦.

٢- تكذيب قوم ثمود بالرسالة ونزول العذاب:

فيقال، إنهم اتفقوا كلهم على قتلها، وهذا هو الظاهر، لأن الله يقول: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبِحُوا نَدِيمِينَ ۗ﴾ ١٥٧ فَاخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۗ﴾ ١٥٨ سورة الشعراء: ١٥٧ - ١٥٨.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَعَٰلَيْنَا ثَمُودُ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۗ﴾ سورة الإسراء: ٥٩. وَقَالَ تَعَالَى:

﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحُ أُمَّتَنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾
سورة الأعراف: ٧٧.

فأسند الله ذلك إلى مجموع القبيلة، فدل على رضاهم بذلك.

وفي سورة هود، يعدد عليهم نبي الله صالح عليه السلام نعم الله عليهم، هو خلقكم من الأرض ابتداءً، خلق منها أباكم آدم، وجعلكم عمارا في الأرض تعمرونها وتستغلونها، فاستغفروه لسالف ذنوبكم، وتوبوا إليه فيما تستقبلونه.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ ﴾ سورة هود: ٦١.

قالوا كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت، أتنهانا أن نعبد ما كان

عليه أسلافنا، وإنا لفي شك كثير مما تدعوننا إليه. قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَُوا يُصَلِّحُ قَدَكُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴾ سورة هود: ٦٢.

قال لقومه إنني على يقين فيما أرسلني به إليكم، فما موقفي من الله إن عصيته، وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده؟ فلن تنفعوني في شيء، وما تزيدونني غير تحسير، أي خسارة كبرى لا تعوض.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَيْنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴾ ﴾ وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ ﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ

تَمَنَعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدَّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَثِيمًا ﴿٦٧﴾ كَأَنَّ لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا آلَا إِنَّا نُمُودًا
كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ التَّمُودِ ﴿٦٨﴾ سورة هود: ٦٣ - ٦٨.

وفي سورة الشعراء، لقد وعظهم صالح عليه السلام محذرا إياهم نقم الله أن تحل
بهم، ومذكرا لهم بنعم الله عليهم، فيما رزقهم من الأرزاق، فجعلهم في أمن من
المحظورات، وأنت لهم من الجنات، وفجر لهم من العيون الجارية، وأخرج لهم
من الزروع والثمرات، فذكرهم الله بقوله تعالى: ﴿ أَتُرْكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴾ ﴿١٤٦﴾ فِي
جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَهَا هُضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ سورة الشعراء: ١٤٦ - ١٤٨.

أي أينع واستوى وطاب، فهو هضيم ذا رطب، إذا يبس تهشم وتفتت
وتناثر، فهو من الرطب الهضيم، ومن اليابس المشيم. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَتَنَحُّونَ مِنْ
الْجِبَالِ يَبُوتًا فَرِهِينَ ﴾ ﴿١٤٩﴾ سورة الشعراء: ١٤٩.

أي حاذقين، وشرهين أشرين، فكانوا ينحتون من الجبال أشرا وبطرا
وعبثا، من غير حاجة إلى سكنها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو
المشاهد لمن رأى منازلهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ ﴿١٥٠﴾ سورة الشعراء:

.١٥٠

أي أقبِلوا على عمل ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة، من عبادة ربكم
الذي خلقكم ورزقكم، لتوحدوه وتعبدوه وتسبحوه بكرة وأصيلا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا

تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ سورة الشعراء: ١٥١-١٥٢.
يعني رؤساءهم وكبراءهم الدعاة لهم إلى الشرك والكفر، ومخالفة الحق.

لقد أجابوا على نبيهم صالح عليه السلام حين دعاهم إلى التوحيد، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَشْرًا مِثْلَنَا فَإِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ سورة الشعراء: ١٥٣-١٥٤.

أي من المسحورين، فأنت مسحور لا عقل لك، ما أنت إلا بشر مثلنا فكيف أوحى إليك دوننا كما جاء في سورة القمر، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ لَقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿٢٦﴾﴾ سورة القمر: ٢٥-٢٦.

لقد اقترحوا عليه آية يأتيهم بها، ليعلموا صدقه بما جاءهم من ربهم، فطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء، فأخذ عليهم العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه، فأنعموا بذلك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا مَرْسَلُوا النَّاقَةَ فَنَنَّهُ لَهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبَيْتَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قَسَمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلِّ شَرْبٍ مُخَضَّرٌ ﴿٢٨﴾ فَادْعُوا صَاحِبَهُمْ فَنَعَطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَجَدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخَضَّبِ ﴿٣١﴾﴾ سورة القمر: ٢٧-٣١.

فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى ثم دعا الله تعالى أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشراء، على الصفة التي وصفوها، فأمن بعضهم وكفر أكثرهم، فكانت ترد الماء يوما وهم يومها، وحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حينما من الدهر ترد الماء،

وتأكل الورك والمرعى، ويتنفعون بلبنها، يحتلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً، فلما طال عليهم الأمد، حضر أشقياءهم، وتمالؤا على قتلها وعقرها.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدَّ غَيْرَ مَكْدُوبٍ

﴿٦٥﴾ سورة هود: ٦٥. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبِرُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ سورة الشعراء: ١٥٧-١٥٨. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ

فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ سورة الشمس: ١٤ -

١٥.

وهو أن أرضهم زلزلت زلزالاً شديداً، وجاءتهم صيحة عظيمة، اقتلعت القلوب من محآكها، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، وأصبحوا في ديارهم جاشمين، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾ سورة الشعراء: ١٥٨.

وفي سورة النمل نجد قوله تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ

أَعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ

لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ سورة النمل: ٤٥-٤٦.

فإذا هم فريقان يختصمون، أي مؤمن وكافر، فقال لقومه لم تستعجلون بنزول العذاب، ولا تطلبون من الله رحمته، قالوا ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً.

وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحد منهم سوء إلا قالوا هذا من قبل صالح وأصحابه، فتشاءموا بهم، والحقيقة كل شيء بقضاء الله وقدره، والله يجازيهم على ذلك، وهم يبتلون بالطاعة والمعصية، ويستدرجون فيما هم فيه من الضلال.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿٤٧﴾ قَالُوا أَطِئْنَا بِكَ وَيَمَنَّا مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾

﴿ سورة النمل: ٤٧.﴾

وأخبر الله عن طغاة ثمود ورؤوسهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر، وتكذيب نبيهم، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة، وهموا بقتل صالح عليه السلام أيضا، بأن بيتوه في أهله ليلا فيقتلوه غيلة، ثم يقولون لأوليائه من أقربائه، إنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لا يشاهدوا ذلك.

وكان في المدينة تسعة رهط، أي في مدينة ثمود تسعة نفر، وكانوا كبراء فيهم ومن رؤسائهم، وهم الذين صدر عن آرائهم ومشورتهم عقر الناقة، وكان من صفاتهم الإفساد في الأرض بكل طريق يقدرون عليها. ﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿٤٨﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴿ سورة النمل: ٤٨.﴾

لقد تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام من لقيه ليلا غيلة، فكادهم الله، وجعل الدائرة عليهم، فلم يصلوا إليه، حتى هلكوا وقومهم أجمعين، قالوا حين عقروها، لنبيتنا صالحا وأهله، فنقتلهم ثم نقول لأوليائه صالح: ما شهدنا من هذا

شيئا، وما لنا به علم، فدمرهم الله أجمعين. قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ سورة النمل: ٤٩.

لما عقروا الناقة قال لهم نبيهم تمتعوا في داركم ثلاثة أيام، فقالوا زعم صالح عليه السلام أنه يفرغ منا إلى ثلاث أيام، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل ثلاث، وكان لصالح عليه السلام مسجد في الحجر عند شعب هناك يصلى فيه، فخرجوا إلى كهف أي غار هناك ليلا، فقالوا إذا جاء يصلى قتلناه، ثم رجعنا، إذا فرغنا منه إلى أهله، ففرغنا منهم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرٍ مَكْدُوبٍ﴾ سورة هود: ٦٥.

فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم، فخشوا أن تشدخهم فتبادروا، فانطبقت عليهم الصخرة، وهم في ذلك الغار، فلا يدرى قومهم أين هم، ولا يدرون ما فعل بقومهم، فعذب الله هؤلاء هنا، وهؤلاء هنا.

وأنجى الله صالحا ومن معه، وذلك قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَكْرُوهًا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ٥٠ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٥١ ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ ٥٢ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ٥٣ سورة النمل: ٥٠-٥٢.

فأصبحت بيوتهم وقراهم فارغة، ليس فيها أحد من الناس، وتلك آية ممن آيات الله لقوم يعلمون. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ٥٣



٣- دروس وعبر من قصة قوم ثمود:

١- بدأت القصة شأنها شأن باقي الأنبياء بالتركيز على عبادة الله وتوحيده، فهو المهمة الأولى التي من أجلها خلق الله الخلق، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب.

وقد يكونون مؤمنين بوجود الله وهو توحيد الربوبية، لكنهم لا يقيمون توحيد الألوهية بينهم، فيشركون غيره معه في العبادة، أو يخالفون قوانينه وأحكامه، فلا يطبقونها فيما بينهم، ويعيشون وفق أهوائهم وشهواتهم، ويفعلون ما يريدون في الحياة كأنهم باقون مخلدون، دون موت أو بعث، أو جزاء وحساب.

٢- أعطاهم الله على يد نبيه صالح عليه السلام الآية كما طلبوا، فخرجت ناقه بفصيلها من المكان الذي اختاروه، وكانت هذه المعجزة من دواعي الإيمان، فإذا بهم يزدادون تمردا وجحودا، وتكبيرا وعصيانا، ولا يخافون من الوعيد الذي ينتظرهم من العذاب الأليم.

٣- التذكير بنعم الله عليهم الكثيرة، التي لا تعد ولا تحصى، ومن بينها أنه جعلهم خلفاء لقوم سابقين مهلكين، ويسر لهم أسباب البناء وال عمران، فبنوا القصور، ونحتوا الجبال، فأعطاهم أرضا سهلة للمعيشة والزراعة، وبناء القصور، وأعطاهم أرضا جبلية، فنحتوا فيها البيوت للرفاهية والتنعم، فكان من المناسب أن يستخدموا نعم الله في شكر المنعم، ولا يفسدوا في الأرض بالكفر والشرك والمعاصي والذنوب.

٤- الصراع والتحدي بين أتباع الأنبياء المؤمنين الموحدين، وبين الملائم القوم المكذبين المعرضين، وكل مُصِرُّ على موقفه، وهذه سنة مكرورة عبر التاريخ، وصورة من صور الصراع بين الحق والباطل، والحق له أدلته وبراهينه، والباطل له شبهاته وزيفه وتضليله، ويبق الحسم في الدنيا بنصر الله وتأييده للمؤمنين، وهلاك المكذبين ونزول العذاب عليهم في الدنيا، غير ما ينتظرهم في الآخرة.

٥- الجولة الأخيرة هي الصدام المباشر بين الطرفين، وغالبا ما تأتي من جهة الباطل، وهو بذلك يتعجل نهايته، فعقروا الناقة، رغم تحذير نبيهم لهم من فعل ذلك، ووعدهم بنزول العذاب، وازدادوا عتوا واجراما، وطلبوا نزول العذاب إن كان صالح عليه السلام رسولا حقا من عند الله، وكان الصواب أن يطلبوا الهداية، بدلا من العذاب.

٦- المفاجأة الكبرى في نزول العذاب عليهم، فبعد ثلاثة أيام من عقر الناقة، أظلمت الحياة عليهم، وأخذتهم الرجفة التي أرجفت قلوبهم، وأصبحوا في بيوتهم يموتون من الخوف والرعب، ويرون نهايتهم السيئة بأعينهم في الدنيا، فكيف بما أعده الله لهم من العذاب في الآخرة.

ويبعد عنهم نبيهم وهو يقيم عليهم الحجة الدامغة، ويقول لهم غير متأسف عليهم، قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ

٧- الباطل يريد الداعية الصالح، ولا يريد الداعية المصلح، لأن الأول صلاحه يعود على نفسه فقط، بينما الثاني إصلاحه يعود على المجتمع، وهذا يهدد المفسدين، وأصحاب المصالح والمطامع الشخصية، ولذلك طبقة الملائم أول المعارضين، بينما العوام والطبقة الوسطى، هم أقرب للإيمان والتسليم من غيرهم.

٨- ثبات الداعية وإصراره على تبليغ دعوته، مهما كانت المساومات والمفاوضات، فهو أمر وارد في جميع الدعوات، ولقد ثبت جميع الأنبياء ثباتا عجيبا لا نظير له، وكذلك اتباع الأنبياء والمرسلين على منوالهم، وإذا غيروا موقفهم فلن يأتيهم النصر.

وكيف يتنزل على قوم خرجوا على المنهج، وحادوا عن الطريق؟ لذلك أعلنها صالح عليه السلام مدويةً في آذانهم وأمام أعينهم قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَنَاتٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِّنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَبْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ، فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ سورة هود: ٦٣. فالمعركة بين الطرفين مستمرة حتى آخر لحظة ونفس في عمر وحياة كل منهما.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من:

﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا

الْأَنْبِيَاءِ ﴿١٨﴾ سورة الزمر الآية (١٨).



(٢٥) قصة قوم مدين دروس وعبر.

١- المخالفات الشرعية التي وقع فيها قوم مدين.

٢- دعوة شعيب عليه السلام لقومه بين الوعد والوعيد.

٢- دروس وعبر من قصة قوم مدين.



وردت قصة قوم مدين في سورة الأعراف، وهود، والشعراء، والعنكبوت.

ومدين تطلق على القبيلة والمدينة، وهي بقرب بلدة تسمى معان بين الحجاز

والشام، وهم أصحاب الأيكة، وهي شجرة كانوا يعبدونها.

١- المخالفات الشرعية التي وقع فيها قوم مدين:

شعيب عليه السلام هذا خطيب الأنبياء، لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته، لقد

دعا قومه إلى ما دعا إليه الرسل والأنبياء السابقون، إلى توحيد الله وعبادته، وقد

أعطاه الله الحجج والبيانات على صدق ما جاءهم به، وركز معهم على أهم خلل في

المجتمع بعد الكفر والشرك، فكانوا يطففون المكيال والميزان، ويبخسون الناس

أشياءهم، ويخونون الناس في أموالهم، ويأخذونها على وجه البخس، وهو نقص

المكيال والميزان خفية وتدليسا.

فكان ينهاهم عن قطع الطريق الحسي والمعنوي، وكانوا يتوعدون الناس بالقتل، إن لم يعطوهم أموالهم، ويتوعدون ويهددون من يؤمن بشعيب عليه السلام بالقتل، وهم يودون ويحرصون على أن تكون سبيل الله عوجا مائلة.

٢- دعوة شعيب عليه السلام لقومه بين الوعد والوعيد:

لقد ذكرهم شعيب عليه السلام بنعم الله عليهم، أنهم كانوا مستضعفين لقلتهم، فصاروا أعزة بتكثير الله لهم، وطلب منهم أن ينظروا في الأمم الخالية، والقرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والنكال، بإجرائهم على معاصي الله وتكذيب رسله، وإن اختلفنا معا فاصبروا وانتظروا حتى يحكم الله بيننا، ويفصل في أمورنا وأموالكم، وهو خير الحاكمين، بين المؤمنين والكافرين، وسيجعل العاقبة للمتقين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَّ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَأَمِيزَاتٍ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِءِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ؕ وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ ؕ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ سورة الأعراف: ٨٥-٨٦.

لقد كان رد فعل قوم مدين أن توعدوا شعيب عليه السلام ومن آمن معه بالنفي عن القرية، أو الإكراه على الرجوع في الملة، والدخول معهم فيهما، وسوف تفعلون ذلك وإن كنتم كارهين له، فقال المؤمنون لو رجعنا في ملتكم ودخلنا معكم

فيما أنتم فيه، فقد أعظمتا الفرية على الله في جعل الشركاء أندادا لله، وهم يريدون أن ينفروا شعيبا عليه السلام من أتباعه، والله وحده هو الذي يعلم بحالنا، أنه يستحيل الرجوع إلى ملة الكفر، فهو يعلم كل شيء، وقد أحاط بكل شيء علما، على الله توكلنا في أمورنا، ما نأتي منهم وما نذر، ربنا أفصل بيننا وبين قومنا بالحق، وانصرنا عليهم، وأنت خير الفاتحين، فأنت العادل الذي لا يجور أبدا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِءَ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَٰئِكَ كَإِهْمِي ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّنا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ سورة الأعراف: ٨٧ - ٨٩.

لقد كان قوم شعيب عليه السلام على أعلى درجة من الكفر والتمرد والعتو، وما هم فيه من الضلال وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا فقالوا: لئن اتبعتم شعيبا عليه السلام إنكم إذا لخاسرون، فقد أرجفوا شعيبا عليه السلام وأتباعه، وتوعدوهم بالجلء، فكان الجزاء من جنس العمل، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾

وأخذ العذاب ثلاث صور لما تهكموا بشعيب عليه السلام في قولهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا يَشْعَيْبُ أَصَلَوْتُنَا أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ سورة هود: ٨٧ فجاءتهم الصيحة فأسكتتهم.

ولما كذبوه أخذهم عذاب يوم الظلة، وذلك لأنهم قالوا:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ سورة الشعراء: ١٨٩.

فأصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب، ووهج عظيم.

ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخذت الأجساد،

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴾ سورة الأعراف: ٩١.

كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول ﷺ وصحبه منها.

وفي النهاية

قَالَ تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ

الْخَاسِرِينَ ﴾ سورة الأعراف: ٩٢.

فتولى عنهم شعيب عليه السلام بعد ما أصابهم ما أصابهم، من العذاب والنقمة والنكال، وقال مقرعاً لهم وموبخاً صنيعهم، لقد أدت إليكم ما أرسلت به فلا آسف عليكم، وقد كفرتم بما جئتم به،

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي ربي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأُ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ سورة الأعراف: ٩٣.

وفي سورة هود نجد إضافات جديدة لم تأت في سورة الأعراف، لما دعاهم إلى توحيد الله وعبادته ونهاهم عن تطفيف المكيال والميزان، قال إني أراكم بخير في معيشتكم ورزقكم، فأخافوا أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاكم محارم الله.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنِّي أَرْبِكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ سورة هود: ٨٤.

فكان النهي منه عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، والوفاء بالكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العثو في الأرض بالفساد، حيث كانوا يقطعون طريق الناس.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَقَوْمِ أَوفُوا بِالْمِيزَانِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ سورة هود: ٨٥.

وقال لهم بقيت الله خير لكم، أي رزق الله خير لكم، ما يبقى لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان، خير لكم من أخذ أموال الناس، افعلوا ذلك لأجل الله لا لأجل الناس.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (٨٦)

سورة هود: ٨٦.

فقالوا له على سبيل التهكم (أصلاتك) أي قراءتك تأمرك أن نترك ما يعبد أبائنا أي عبادة الأصنام والأوثان، فنترك التطفيف على قولك، وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد، وقالوا على سبيل الاستهزاء والسخرية.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا يَدْعُبُ أَصْلُوتَكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٨٧) سورة هود: ٨٧.

فرد عليهم قائلاً: رأيتم إن كنت على بصيرة فيما أدعو إليه، ورزقني نعمة النبوة، والمال الحلال، ولا أريد أن أنهاكم عن شيء وأخالفكم أنا في السر- فأفعله خفية عنكم، فمهما بلغكم عني من خير فأنا أولاكم به، ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدهم عنه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَنْفُورُ آرَاءَ يَتَمَّرُ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٨٨) سورة هود: ٨٨.

قال يا قوم لا يحملنكم عداوتي وبغض على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد فيصيبكم مثل ما أصاب الأقوام السابقة من النعمة والعذاب، وقوم لوط عليه السلام قد أهلكنهم الله قبلكم بالأمس القريب ومكانهم معلوم لكم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَقَوْمٍ لَا يَحْمِلُونَ أَسْفَارًا أَن يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ ﴿٨٩﴾ سورة هود: ٨٩.

لقد طلب من قومه أن يستغفروه من سالف الذنوب، وتوبوا إليه فيما تستقبلون من الأعمال السيئة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ ﴿٩٠﴾ سورة هود: ٩٠.

فردوا عليه بقولهم، ما نفقه كثيرا من قولك، وأنت فرد واحد ضعيف ذليل، لأن عشيرتك ليست على دينك، ولولا معزتهم علينا لرجمناك بالحجارة، وسببناك سبا شديدا، فليس لك عندنا معزة، فقال: أتركوني لأجل قومي، ولا تتركوني إعظاما لجناب الله، أن تنالوا لنيبه بمساءة، وقد اتخذتم جانب الله وراءكم ظهريا، فنبذتموه خلفكم، فلا تطيعونه ولا تعظمونه، وهو يعلم جميع أعمالكم وسيجزئكم بها.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرْنَكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ ﴿٩١﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ ﴿٩٢﴾ سورة هود: ٩١ - ٩٢.

ولما يئس نبي الله شعيب عليه السلام من استجابتهم له قال اعملوا على طريقتكم، وهذا تهديد شديد، إني عامل على طريقتي، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب، مني ومنكم؟.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَقَوْمٍ أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَعِلُّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ سورة هود: ٩٣.

فأنجاه الله وأخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين هامدين لا حراك لهم. كأن لم يعيشوا في ديارهم من قبل ذلك، ألا هلاكا لمدين كما هلكت ثمود جيرانهم من قبل.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَجِيتًا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ؕ أَلَا بُعْدًا لِّمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ سورة هود: ٩٤ - ٩٥.

وفي سورة الشعراء فقطع نسبة الأخوة عنهم؛ لأنهم كانوا يعبدون الأيكة، وهي شجرة، وإن كان أخاهم نسبا، وأمرهم أن يأخذوا كما يعطون، ويعطوا كما يأخذون، ويقيموا العدل فيما بينهم في الوزن والبيع والشراء، ونهاهم عن قطع الطريق، وخوفهم بخالقهم وبأسه الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل،

قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَنْتُقُونَ ﴿١٧٧﴾ سورة الشعراء: ١٧٦-١٧٧.

فكان رد فعلهم أن وصفوه بالسحر والكذب، فطلبوا منه أن يسقط عليهم جانبا من السماء أو عذابا منها، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ سورة الشعراء: ١٨٥ - ١٨٧.

قال الله أعلم بكم إن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم، وكذلك وقع بهم كما سألوا جزاءً وفاقا، فأصابهم حر شديد جدا سبعة أيام، لا يمكنهم شيء، ثم أقبلت سحابة أظلتهم، فجعلوا ينطلقون إليها، يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم شرارا من نار، وهيبا ووهجا عظيما، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهدت أرواحهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ سورة الشعراء: ١٨٨-١٩١. وربك العزيز في انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده المؤمنين.



٣- دروس وعبر من قصة قوم مدين:

١- بدأت قصة شعيب عليه السلام مع قومه بالقاسم المشترك والموحد بين جميع الأنبياء، وهو عبادة الله وتوحيده، وهي القضية الكبرى بين الأنبياء، وأقوامهم، فإذا استقامت هذه العقيدة في قلوبهم، تبعها ما يتعلق بها من عبادة، وشرعة، وأخلاق، وإذا انحرفت العقيدة تبعها خلل في موازين المجتمع كله.

٢- أكبر خلل اجتماعي وقع فيه قوم مدين بعد الخلل العقدي، تطفيف الكيل والميزان، وبخس الناس حقوقهم وهذا خلل يؤدي إلى ضياع الحقوق، وغياب العدل، وانتشار الأنانية والأثرة، وتفكك الرابط الاجتماعي في المجتمع.

كما أنهم وقعوا في جريمة أخرى وهي قطع الطريق على الناس، من أجل سلب أموالهم، وما هو أكبر من ذلك، صد الناس عن الإيمان والتوحيد، ومتابعة نبيهم فيما يدعوهم إليه، فتعددت جرائمهم، وكثرت أمراضهم، حتى أرسل الله إليهم نبيهم شعيب عليه السلام وهو يعرف بأنه خطيب الأنبياء.

٣- التذكير بنعم الله عليهم، وهي سنة متبعة من الأنبياء مع أقوامهم، فذكرهم شعيب عليه السلام هنا بأنهم كانوا قلة في العدد، وأن الله كثر من نسلهم، وهذا يعطيهم قوة ومهابة، وتمكيناً في الأرض، كما أنه حذرهم من عاقبة السابقين عليهم، حينما خرجوا عن ميزان الله، وأفسدوا في الأرض، فكانت نهايتهم شر نهاية.

٤- من أبرز أخلاق الدعاة العملية في ميدان الدعوة، الصبر على أذى المدعويين وإعراضهم، وهو صبر لا حدود ولا نهاية له، حتى يأتي النصر- من الله للمؤمنين، والعذاب والهلاك للمكذبين، وطلب شعيب عليه السلام من قومه المعرضين عنه أن يصبروا أيضاً، حتى يحكم الله بين الفريقين وهو خير الحاكمين.

٥- التهديد بإيقاع العقوبات الظالمة على الأنبياء وأتباعهم، سمة من سمات الصراع بين الحق والباطل، والعقوبة هنا طردهم وإخراجهم من بلدتهم، بنفيهم خارجها، وهذا من أخف العقوبات، والعقوبة الأصعب والأشد، إكراههم على الكفر والردة.

لكن موقف شعيب عليه السلام وأتباعه الإصرار والثبات على الدين، مهما كانت التضحيات والعقوبات، والصبر حتى يفتح الله بين الفريقين بحكمه، إما أن يؤمنوا، وإما أن ينزل بهم العذاب.

٦- التأصيل لفصل الدين عن الواقع، ظهر من حديث قوم مدين لنبيهم شعيب عليه السلام فهم يريدون فصل العبادة عن العقيدة والمعاملات، فالدين حبيس النفس، وفي ضمير الإنسان، ولا يتدخل في المعتقدات للآخرين أو معاملتهم، وختموا حديثهم بالتهكم منه فقالوا إنك لانت الحليم الرشيد.

٧- القدوة الصالحة في شخصية نبي الله شعيب عليه السلام حيث أكد لهم أنه مؤيد من الله بالوحي والمعجزات، وإنه أول المطبقين لما يقول من تعاليم، وأنه هدفه هو إصلاح الأفراد والمجتمع، قدر ما يستطيع من جهد وعطاء، وأن توفيقه أولا وأخيرا مستمد من الله تعالى وأنه متوكل عليه، ومنيب وراجع إليه، وهذه خطبة قصيرة، وموعظة بليغة، فيها من مخاطبة العقل، واستمالة القلوب، مما جعلته يستحق أن يطلق عليه خطيب الأنبياء.

٨- التحذير المتكرر منه لقومه عن سوء العاقبة، ومما نزل بالأمر السابقة، واستضعاف قومه له، وتهديده بالرجم، لولا خوفهم من عشيرته، وكرر الإنذار لهم مرة بعد أخرى، حتى يقيم عليهم الحجة، قبل أن ينزل عليهم العذاب.

ولما جاء الموعد المحدد، والوقت الموعود، نجا الله شعيبا عليه السلام والمؤمنين معه وأخذت الذين ظلموا الصيحة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، وهكذا نهاية الظالمين

واحدة، فحل الهلاك والدمار بهم، كما حل بالسابقين عليهم، وهم ثمود قوم صالح
عليه السلام.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من:

﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْوَالُونَ ﴾

الألب (١٨) سورة الزمر الآية (١٨).



السيرة الذاتية الخاصة بالدكتور/ أحمد عبد الهادي شاهين.

المؤهلات:



(١) ليسانس أصول الدين والدعوة من جامعة الأزهر كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة سنة ١٩٨٩ م قسم الدعوة والثقافة الإسلامية بتقدير (جيد جدا مع مرتبة الشرف).

(٢) ماجستير في الدعوة والثقافة الإسلامية من جامعة الأزهر كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية سنة ١٩٩٥ م بعنوان (مشكلات الشباب النفسية والاجتماعية وعلاج الإسلام لها) بتقدير (ممتاز).

(٣) الدكتوراه في الدعوة والثقافة الإسلامية ومقارنة الأديان. من جامعة الأزهر كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية سنة ١٩٩٩ م بعنوان (خصائص الدعوة في العهدين القديم والجديد والقرآن الكريم دراسة مقارنة) بتقدير (مرتبة الشرف الثانية).

الوظائف السابقة:

١. عمل إماما وخطيبا بوزارة الأوقاف المصرية من ١/٣/١٩٩٠ م. حتى ٢٠/٢/١٩٩٣ م.
٢. عمل معيدا بجامعة الأزهر في كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية في ٢١/٢/١٩٩٣ م. حتى ٢٥/١٢/١٩٩٥ م.
٣. عمل مدرسا مساعدا في كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية في ٢٦/١٢/١٩٩٥ م. حتى ٤/٥/١٩٩٩ م.
٤. عمل مدرسا بقسم الدعوة في كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية من ٥/٥/١٩٩٩ م. حتى ٣٠ يونيو ٢٠٠٣ م.
٥. عمل أستاذا مساعدا بقسم الدعوة في كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية من ٣٠ يونيو ٢٠٠٣ م. حتى ١ يوليو ٢٠٠٤ م.
٦. عمل أستاذا مشاركا في الجامعة الإسلامية بأمريكا متشجن دوترويد من ١ يوليو ٢٠٠٤ م. حتى ٣٠ يونيو ٢٠١١ م.
٧. عمل أستاذا للدعوة والثقافة الإسلامية ومقارنة الأديان في جامعة طيبة. بالمدينة المنورة. المعهد العالي للأئمة والخطباء. وكلية الآداب من ١ يوليو ٢٠١١ م. حتى ٢٠٢١ م.

٨. الوظيفة الحالية: أستاذ بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية ومقارنة الأديان في جامعة الأزهر.

التخصص الدقيق: (الدعوة والثقافة الإسلامية ومقارنة الأديان).

المواد التي يقوم بتدريسها: الدعوة/ الخطابة/ الثقافة الإسلامية/ تاريخ الخلفاء/ إسلام في المشرق/ الفرق/ فقه السيرة النبوية/ الاستشراق/ التنصير/ مقارنة الأديان/ اليهودية/ النصرانية/ مناهج الدعوة/ آيات الله الإنسانية/ آيات الله الكونية/ قضايا معاصرة/ خلق المسلم/ رسالة المسجد/ حقوق الإنسان في الإسلام.

بعض أعمال أخرى:

(١) انتدب للتدريس في كلية الدراسات الإسلامية للبنات بالإسكندرية، ومعهد الثقافة بوزارة الأوقاف، ومعاهد إعداد الدعاة.

(٢) يقوم بالخطابة والدروس والمحاضرات في مساجد الأوقاف بجمهورية مصر- العربية، ومساجد الجمعية الشرعية منذ عام ١٩٨٩م حتى الآن.

(٣) سافر إلى دول أوروبا وأمريكا لإلقاء خطب الجمعة والمحاضرات والدروس الرمضانية، وحضور المؤتمرات والندوات العلمية.

(٤) له العديد من المقالات في مجلة التبيان المصرية. وجريدة الأهرام القاهرية. وجريدة عقيدتي. والأحاديث الإذاعية بإذاعة القرآن الكريم ونداء الإسلام من مكة المكرمة. يجيد الحديث باللغة الإنجليزية، واستخدام الحاسب الألى.

تاريخ الميلاد: ٢٧/٢/١٩٦٧م.

الحالة الاجتماعية: متزوج وله أربعة من الأولاد.

عنوان السكن في مصر: محافظة الدقهلية - مدينة أجا - خلف الإدارة الزراعية.

عنوان العمل في مصر: كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية.

البريد الإلكتروني: drahmed1967@yahoo.com



المؤلفات الخاصة بالدكتور/أحمد عبد الهادي شاهين.

سلسلة كتب في الدعوة والخطابة:

١. الدعوة إلى الإسلام قواعد وأصول.
٢. وسائل الدعوة وأساليبها في ضوء القرآن والسنة والواقع.
٣. القواعد المنهجية للدعوة عند السلف.
٤. السيدة عائشة رضي الله عنها وجهودها في الدعوة الإسلامية.
٥. الدعوة الإسلامية في أمريكا (رؤية من الداخل).
٦. الخطابة قواعد وأصول.
٧. المساجد بين الاتباع والابتداع.
٨. في ظلال خلق المسلم. الجزء الأول.
٩. في ظلال خلق المسلم. الجزء الثاني.
١٠. في ظلال خطب الجمعة. الجزء الثالث.
١١. في ظلال خطب الجمعة. الجزء الرابع.
١٢. في ظلال خطب الجمعة. الجزء الخامس.
١٣. في ظلال خطب الجمعة. الجزء السادس.
١٤. واحة الإمام في إرشاد الأنام. ١٠٠ خطبة مترجمة إلى اللغة الإنجليزية.
١٥. الوحدة الإسلامية فريضة وضرورة.
١٦. قطوف من الأدب والحكمة والذكريات.



سلسلة كتب مشكلات الشباب:

١٧. مشكلة الانحراف الجنسي عند الشباب وكيف عالجها الإسلام؟.
١٨. مشكلة الإدمان والتدخين عند الشباب وكيف عالجها الإسلام؟.

١٩. مشكلة الغلو في الدين عند الشباب وكيف عالجها الإسلام؟.
٢٠. مشكلة القلق عند الشباب وكيف عالجها الإسلام؟.



سلسلة كتب مقارنة الأديان.

٢١. اليهودية في ضوء العهد القديم وموقف القرآن الكريم منها.
٢٢. النصرانية في ضوء العهد الجديد وموقف القرآن الكريم منها.
٢٣. خصائص الدعوة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم والسنة.
٢٤. المسيح ﷺ بين النصرانية والإسلام (دراسة مقارنة).
٢٥. التنصير وخطره على العالم الإسلامي.
٢٦. دور القساوسة التبشيري في الحروب الصليبية.
٢٧. الاستشراق في ميزان الإسلام.
٢٨. العلمانية وخطرها على المجتمعات المسلمة.
٢٩. الحوار بين الأديان. (تعايش لا ذوبان).
٣٠. تحقيق مخطوط (الأجوبة العقلية على أشرفية الشريعة المحمدية).
لإبراهيم بن محمد الراوي العراقي.
٣١. في ظلال السيرة النبوية. الجزء السابع.
٣٢. في ظلال القصص القرآني. الجزء الثامن.
٣٣. فقه الدعوة من قصة نوح ﷺ.
٣٤. فقه الدعوة من قصة موسى ﷺ.
٣٥. المختصر المفيد في أحكام التجويد. سؤال وجواب.
٣٦. الأسئلة والأجوبة الثمينة في فضائل المدينة. سؤال وجواب.
٣٧. شذرات من الذكريات.



الفهرس.

٣	مقدمة.
٥	(١) قصة طالوت وجالوت دروس وعبر.
	١ . التمحيص سنة إلهية.
	٢ . القلة المؤمنة تنتصر على الكثرة الكافرة.
	٣ . دروس وعبر من قصة طالوت وجالوت.
١٦	(٢) قصة قابيل وهابيل دروس وعبر.
	١ . حوار قابيل مع هابيل.
	٢ . تنفيذ قابيل للجريمة، وكيف يتخلص من آثارها.
	٣ . دروس وعبر من القصة.
٢٤	(٣) قصة موسى والخضر <small>عليه السلام</small> دروس وعبر.
	١ . موسى <small>عليه السلام</small> في البحث عن الخضر.
	٢ . القصص الثلاث التي وقعت بين موسى <small>عليه السلام</small> والخضر.
	٣ . دروس وعبر من القصة.
٣٥	(٤) قصة ذو القرنين دروس وعبر.
	١ . ذو القرنين ومواهبه التي أعطاها الله له.
	٢ . رحلة ذي القرنين وقوانينه.
	٣ . دروس وعبر من القصة.
٤٢	(٥) قصة فارون دروس وعبر.
	١ . فارون الباغي وفتنة المال.
	٢ . موقف الناس من فارون.
	٣ . دروس وعبر من قصة فارون.

٥٣	(٦) قصة لقمان الحكيم <small>عليه السلام</small> دروس وعبر.
	١. التربية على العقيدة الصحيحة.
	٢. الوصية بالوالدين.
	٣. التربية على المراقبة.
	٤. الوصية بالصلاة.
	٥. الوصية بالأمر بالمعروف.
	٦. الوصية بحسن الخلق.
٦٣	(٧) قصة أصحاب الكهف دروس وعبر.
	١. الفتية المؤمنة من الاضطهاد إلى الكهف.
	٢. الفتية المؤمنة في معية الله وأمنه.
	٣. دروس وعبر من القصة.
٧٤	(٨) قصة صاحب الجنتين دروس وعبر.
	١. حوار صاحب الجنتين مع صاحبه.
	٢. نتيجة المحاوراة وثمرتها.
	٣. دروس وعبر من القصة.
٨٥	(٩) قصة أصحاب الجنة دروس وعبر.
	١. حقيقة الابتلاء.
	٢. قصة أصحاب الجنة.
	٣. تغيير النية سبب لتغير الأحوال.
	٤. دروس وعبر من قصة أصحاب الجنة.
٩٢	(١٠) قصة سحرة فرعون دروس وعبر.
	١. حوار فرعون مع موسى <small>عليه السلام</small> .

	٢ . سحرة فرعون بين فرعون وموسى <small>عليه السلام</small> .
	٣ . دروس وعبر من القصة.
١٠٢	(١١) قصة قوم سبأ دروس وعبر.
	١ . تاريخ قوم سبأ وحياتهم.
	٢ . قوم سبأ بين النعمة والعذاب.
	٣ . دروس وعبر من قصة قوم سبأ.
١١٢	(١٢) قصة أصحاب الأخدود دروس وعبر.
	١ . قصة أصحاب الأخدود، قصة الإيمان والصمود.
	٢ . أحداث القصة في ضوء القرآن الكريم.
	٣ . أحداث القصة في ضوء السنة النبوية.
	٤ . دروس وعبر من قصة أصحاب الأخدود.
١٢٠	(١٣) قصة مؤمن آل يسن دروس وعبر.
	١ . تذكر المدعوين بالرسول الثلاث.
	٢ . إيجابية مؤمن آل يسن في تقديم النصيحة وتحمل تبعاتها.
	٣ . دروس وعبر من القصة.
١٣٠	(١٤) مؤمن آل فرعون دروس وعبر.
	١ . رسالة موسى لفرعون وحاشيته.
	٢ . مؤمن آل فرعون يصدع بالنصيحة والموعظة البليغة.
	٣ . دروس وعبر من القصة.
١٤٦	(١٥) قصة يوسف <small>عليه السلام</small> دروس وعبر.
	١ . يوسف <small>عليه السلام</small> ورؤياه وحواره مع أبيه.
	٢ . ابتلاءات يوسف <small>عليه السلام</small> والتمكين له.

	٣. دروس وعبر من القصة.
١٨١	(١٦) قصة داود <small>عليه السلام</small> دروس وعبر.
	١. داود <small>عليه السلام</small> وقصته في قتل جالوت.
	٢. عطاءات الله لداود <small>عليه السلام</small> وموابه.
	٣. دروس وعبر من القصة.
١٩١	(١٧) قصة سليمان <small>عليه السلام</small> دروس وعبر.
	١. سليمان <small>عليه السلام</small> ونعم الله عليه في التمكين للملكه.
	٢. سليمان <small>عليه السلام</small> وحواره مع بلقيس.
	٣. دروس وعبر من قصة سليمان <small>عليه السلام</small> .
٢١٢	(١٨) قصة زكريا <small>عليه السلام</small> ويحيى <small>عليه السلام</small> دروس وعبر.
	١. عطاءات الله لزكريا <small>عليه السلام</small> بلا حدود.
	٢. كفالة زكريا <small>عليه السلام</small> لمريم - عليها السلام - وتعلمه منها.
	٣. دروس وعبر من قصة زكريا <small>عليه السلام</small> ويحيى <small>عليه السلام</small> .
٢٢٢	(١٩) قصة مريم - عليها السلام - دروس وعبر.
	١. زوجة آل عمران ونذرها وحملها لمريم - عليها السلام - وكفالة وكريا لها.
	٢. مريم - عليها السلام - الطاهرة وحملها للمسيح <small>عليه السلام</small> .
	٣. دروس وعبر من قصة مريم - عليها السلام -.
٢٣٧	(٢٠) قصة قوم لوط <small>عليه السلام</small> دروس وعبر.
	١. إبراهيم <small>عليه السلام</small> ولوط <small>عليه السلام</small> تاريخيا والعلاقة بينهما.
	٢. انحراف قوم لوط <small>عليه السلام</small> عن الفطرة وحوارهم معه <small>عليه السلام</small> ونزول العذاب.
	٣. دروس وعبر من قصة قوم لوط <small>عليه السلام</small> .
٢٤٨	(٢١) قصة أيوب <small>عليه السلام</small> دروس وعبر.

	١ . ابتلاء أيوب <small>عليه السلام</small> في صحته وأولاده وماله.
	٢ . دعاء أيوب <small>عليه السلام</small> وشفاء الله له.
	٣ . دروس وعبر من القصة.
٢٥٧	(٢٢) قصة يونس <small>عليه السلام</small> دروس وعبر.
	١ . يونس <small>عليه السلام</small> المغاضب المبتلى.
	٢ . دعوة يونس <small>عليه السلام</small> ونجاة الله له.
	٣ . دروس وعبر من قصة يونس <small>عليه السلام</small> .
٢٦٨	(٢٣) قصة قوم عاد دروس وعبر.
	١ . هود <small>عليه السلام</small> ورسالته ودعوته لقومه.
	٢ . تكذيب قوم عاد بالرسالة ونزول العذاب.
	٣ . دروس وعبر من قصة قوم عاد.
٢٨٦	(٢٤) قصة قوم ثمود دروس وعبر.
	١ . صالح <small>عليه السلام</small> ورسالته ودعوته لقومه.
	٢ . تكذيب قوم ثمود بالرسالة ونزول العذاب.
	٣ . دروس وعبر من قصة قوم ثمود.
٢٩٤	(٢٥) قصة قوم مدين دروس وعبر.
	١ . المخالفات الشرعية التي وقع فيها قوم مدين.
	٢ . دعوة شعيب <small>عليه السلام</small> لقومه بين الوعد والوعيد.
	٣ . دروس وعبر من قصة قوم مدين.
٣٠٦	السيرة الذاتية والمؤلفات
٣١٠	الفهرس

